
كتاب
أدب
الدنيا والدين
UTL AT DOWNSVIEW
D RANGE BAY SHLF POS ITEM C
39 11 21 06 04 021 3


A60





﴿ العالم العلامة * الحبر الفهامة * الامام الكبير * المحقق ﴾

﴿ الشهير * اقضى القضاة ابى الحسن على بن محمد بن ﴾

﴿ حبيب البصرى الماوردى ﴾

﴿ رحمه الله تعالى ﴾

﴿ الطبعة الاولى ﴾

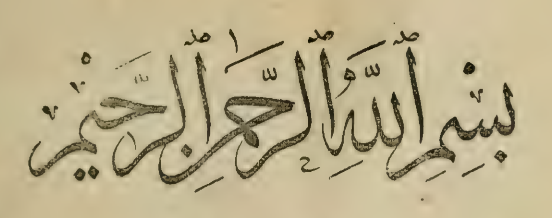
﴿ طبع فى مطبعة الجوائب ﴾

﴿ قسطنطينية ﴾

سنة

١٢٩٩





﴿ قال القاضى ابو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى ﴾
﴿ رحمه الله تعالى ﴾

الحمد لله ذى الطول والآلاء * وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الرسل والانبياء * وعلى آله واصحابه الاتقياء * اما بعد فان شرف المطلوب بشرف نتائجه وعِظَم خطره بكثرة منافعه وبحسب منافعه تجب العناية به وعلى قدر العناية به يكون اجتناء ثمرته واعظم الامور خطرا وقدرا واعمها نفعا ورفدا ما استقام به الدين والدنيا وانتظم به صلاح الآخرة والاولى لان باستقامة الدين تصح العبادة * وبصلاح الدنيا تتم السعادة * وقد توخيت بهذا الكتاب الاشارة الى آدابهما * وتفصيل ما اجمل من احوالهما * على اعدل الامرين من ايجاز وبسط اجمع فيه بين تحقيق الفقهاء * وترقيق الادباء * فلا ينبو عن فهم * ولا يدق فى وهم * مستشهدا من كتاب الله جل اسمه بما يقتضيه * ومن سنن رسول الله صلوات الله عليه بما يضاهيه * ثم متبعا ذلك بامثال الحكماء * وآداب البلغاء * واقوال الشعراء * لان القلوب ترتاح الى الفنون المختلفة وتسأم من الفن الواحد

وقد قال على بن ابى طالب رضى الله عنه ان القلوب تمل كما تمل الابدان فأهدوا اليها طرائف الحكمة فكان هذا الاسلوب * يحب التنقل فى المطلوب * من مكان الى مكان وكان المأمون رحمه الله تعالى يتنقل كثيرا فى داره من مكان الى مكان وينشد قول ابى العتاهية رحمه الله

* لا يصلح النفس اذ كانت مدبرة * الا التنقل من حال الى حال *

وجعلت ما تضمنه هذا الكتاب خمسة ابواب ﴿ الباب الاول ﴾ فى فضل العقل وذم الهوى ﴿ الباب الثانى ﴾ فى ادب العلم ﴿ الباب الثالث ﴾ فى ادب الدين ﴿ الباب الرابع ﴾ فى ادب الدنيا ﴿ الباب الخامس ﴾ فى ادب النفس وانما استمد من الله تعالى حسن معونته * واستودعه حفاظ موهبته * بحوله ومشيئته * وهو حسبى من معين وحفيظ

﴿ باب فضل العقل وذم الهوى ﴾

اعلم ان لكل فضيلة اسا ولكل ادب ينبوعا واس الفضائل و ينبوع الآداب هو العقل الذى جعله الله تعالى للدين اصلا وللدنيا عمادا فاوجب الدين بكماله وجعل الدنيا مدبرة باحكامه والف به بين خلقه مع اختلاف هممهم ومآربهم * وتباين اغراضهم ومقاصدهم * وجعل ما تعبدهم به قسمين قسما وجب بالعقل فوكده الشرع وقسما جاز فى العقل فاوجبه الشرع فكان العقل لهما عمادا وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ما اكتسب المرء مثل عقل يهدى صاحبه الى هدى * او يرده عن ردى * وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لكل شئ عمل دعامة ودعامة عمل المرء عقله فبقدر عقله تكون عبادته لربه أما سمعتم قول الفجار لو كنا نسمع او نعقل ما كنا فى اصحاب السعير وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه اصل الرجل عقله وحسبه دينه ومروته خلقه وقال الحسن البصرى رحمه الله ما استودع الله احدا عقلا الا استنقذه به يوما ما وقال بعض الحكماء العقل افضل مرجو * والجهل انكى عدو * وقال بعض الادباء صديق كل امرء عقله * وعدوه جهله * وقال بعض البلغاء خير

المواهب العقل * وشر المصائب الجهل * وقال بعض الشعراء وهو ابراهيم ابن حسان

* يزين الفتى فى الناس صحة عقله * وان كان محظورا عليه مكاسبه *
* يشين الفتى فى الناس قلة عقله * وان كرمت اعراقه ومناسبه *
* يعيش الفتى بالعقل فى الناس انه * على العقل يجرى علمه وتجاربه *
* وافضل قسم الله للمرء عقله * فليس من الاشياء شئ يقاربه *
* اذا اكمل الرحمن للمرء عقله * فقد كملت اخلاقه ومآربه *

واعلم ان بالعقل تعرف حقائق الامور ويفصل بين الحسنات والسيئات وقد ينقسم قسمين غريزى ومكتسب فالغريزى هو العقل الحقيقى وله حد يتعلق به التكليف لا يجاوزه الى زيادة ولا يقصر عنه الى نقصان وبه يمتاز الانسان عن سائر الحيوان فاذا تم فى الانسان سمى عاقلا وخرج به الى حد الكمال كما قال صالح ابن عبد القدوس

* اذا تم عقل المرء تمت اموره * وتمت امانيه وتم بناؤه *

وروى الضحاك فى قوله تعالى لينذر من كان حيا اى من كان عاقلا واختلف الناس فيه وفى صفته على مذاهب شتى فقال قوم هو جوهر لطيف يفصل به بين حقائق المعلومات ومن قال بهذا القول اختلفوا فى محله فقالت طائفة منهم محله الدماغ لان الدماغ محل الحس وقالت طائفة اخرى منهم محله القلب لان القلب معدن الحياة ومادة الحواس وهذا القول فى العقل بانه جوهر لطيف فاسد من وجهين * احدهما * ان الجواهر متماثلة فلا يصح ان يوجب بعضها ما لا يوجب سائرها ولو اوجب سائرها ما يوجب بعضها لاستغنى العاقل بوجود نفسه عن وجود عقله * والثانى * ان الجوهر يصح قيامه بذاته فلو كان العقل جوهرا لجاز ان يكون عقل بغير عاقل كما جاز ان يكون جسم بغير عقل فامتنع بهذين ان يكون العقل جوهرا وقال آخرون العقل هو المدرك للاشياء على ما هى عليه من حقائق المعنى وهذا القول وان كان اقرب مما قبله

فبعيد

فبعيد من الصواب من وجه واحد وهو ان الادراك من صفات الحى والعقل عرض يستحيل ذلك منه كما يستحيل ان يكون متلذذا او آلما او مشتهيا وقال آخرون من المتكلمين العقل هو جملة علوم ضرورية وهذا الحد غير محصور لما تضمنه من الاجمال * ويتأوله من الاحتمال * والحد انما هو بيان المحدود بما ينفى عنه الاجمال والاحتمال وقال آخرون وهو القول الصحيح ان العقل هو العلم بالمدركات الضرورية وذلك نوعان احدهما ما وقع عن درك الحواس والثانى ما كان مبتدأ فى النفوس فاما ما كان واقعا عن درك الحواس فمثل المرئيات المدركة بالنظر والاصوات المدركة بالسمع والطعوم المدركة بالذوق والروائح المدركة بالشم والاجسام المدركة باللمس فاذا كان الانسان ممن لو ادرك بحواسه هذه الاشياء بعلم ثبت له هذا النوع من العلم لان خروجه فى حال تغميض عينيه من ان يدرك بهما ويعلم لا يخرجه من ان يكون كامل العقل من حيث علم من حاله انه لو ادرك لعلم واما ما كان مبتدأ فى النفوس فكالعلم بان الشئ لا يخلو من وجود او عدم وان الموجود لا يخلو من حدوث او قدم وان من المحال اجتماع الضدين وان الواحد اقل من الاثنين وهذا النوع من العلم لا يجوز ان ينتفى عن العاقل مع سلامة حاله وكمال عقله فاذا صار عالما بالمدركات الضرورية من هذين النوعين فهو كامل العقل وسمى بذلك تشبيها بعقل الناقة لان العقل يمنع الانسان من الاقدام على شهواته اذا قبحت كما يمنع العقل الناقة من الشرود اذا نفرت ولذلك قال عامر بن قيس اذا عقلك عقلك عما لا ينبغى فانت عاقل وقد جاءت السنة بما يؤيد هذا القول فى العقل وهو ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال العقل نور فى القلب يفرق بين الحق والباطل وكل من نفى ان يكون العقل جوهرا اثبت محله فى القلب لان القلب محل العلوم كلها قال الله تعالى أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها فدلت هذه الآية على امرين احدهما ان العقل علم والثانى ان محله القلب وفى قوله تعالى يعقلون بها تأويلان احدهما يعلمون بها والثانى يعتبرون بها

فهذه جملة القول فى العقل الغريزى واما العقل المكتسب فهو نتيجة العقل الغريزى وهو نهاية المعرفة وصحة السياسة واصابة الفكرة وليس لهذا حد لانه ينمى ان استعمل وينقص ان اهمل ونماؤه يكون باحد وجهين اما بكثرة الاستعمال اذا لم يعارضه مانع من هوى ولا صاد عن شهوة كالذى يحصل لذوى الاسنان من الحنكة وصحة الروية بكثرة التجارب وممارسة الامور ولذلك حمدت العرب آراء الشيوخ حتى قال بعضهم المشايخ اشجار الوقار * ومناجع الاخبار * لا يطيش لهم سهم * ولا يسقط لهم وهم * ان رأوك فى قبيح صدوك * وان ابصروك على جميل امدوك * وقيل عليكم بآراء الشيوخ فانهم ان فقدوا ذكاء الطبع فقد مرت على عيونهم وجوه العبر * وتصدت لاسماعهم آثار الغير * وقيل فى منثور الحكم من طال عمره نقصت قوة بدنه وزادت قوة عقله وقيل فيه لا تدع الايام جاهلا الا ادبته، وقال بعض الحكماء كفى بالتجارب تأدبا وبتقلب الايام عظة وقال بعض البلغاء التجربة مرآة العقل * والغرة ثمرة الجهل * وقال بعض الادباء كفى مخبرا عما بقى ما مضى وكفى عبرا لاولى الالباب ما جربوا وقال بعض الشعراء

* ألم تر ان العقل زين لاهله * ولكن تمام العقل طول التجارب *

﴿ وقال آخر ﴾

* اذا طال عمر المرء فى غير آفة * افادت له الايام فى كرها عقلا *

واما الوجه الثانى فقد يكون بفرط الذكاء وحسن الفطنة وذلك جودة الحدس فى زمان غير مهمل للحدس فاذا امتزج بالعقل الغريزى صارت نتيجتهما نمو العقل المكتسب كالذى يكون فى الاحداث من وفور العقل وجودة الرأى حتى قال هرم بن قطبة حين تنافر اليه عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة عليكم بالحديث السن * الحديد الذهن * ولعل هرما اراد ان يدفعهما عن نفسه فاعتذر بما قال لكن لم ينكرا قوله اذعانا للحق فصارا الى ابى جهل لحداثة سنه * وحدة ذهنه * فابى ان يحكم بينهما فرجعا الى هرم فحكم بينهما وفيه قال لبيد

* يا هرم ابن الاكرمين منصبا * انك قد اوتيت حكما معجبا *

وقد قالت العرب عليكم بمشاورة الشباب فانهم ينتجون رأيا لم ينله طول القدم * ولا استولت عليه رطوبة الهرم * وقد قال الشاعر

* رأيت العقل لم يكن انتهابا * ولم يقسم على عدد السنينا *
* ولو ان السنين تقاسمته * حوى الاباء انصبة البنينا *

وحكى الاصمعي رحمه الله قال قلت لغلام حدث من اولاد العرب كان يحادثني فامتعني بفصاحة وملاحة أيسرك ان يكون لك مائة الف درهم وانت احمق قال لا والله قال فقلت ولم قال اخاف ان يجني عليّ حمقي جناية تذهب بمالي ويبقى عليّ حمقي فانظر الى هذا الصبي كيف استخرج بفرط ذكائه واستنبط بجودة قريحته ما لعله يدق على من هو اكبر منه سنا واكثر تجربة واحسن من هذا الذكاء والفطنة ما حكى ابن قتيبة ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر بصبيان يلعبون وفيهم عبد الله بن الزبير فهربوا منه الا عبد الله فقال له عمر رضى الله عنه ما لك لم لا تهرب مع اصحابك فقال يا امير المؤمنين لم اكن على ريبة فاخافك ولم يكن الطريق ضيقا فاوسع لك فانظر ما تضمنه هذا الجواب من الفطنة وقوة المنة وحسن البديهة كيف نفى عنه اللوم واثبت له الحجة فليس للذكاء غايه * ولا لجودة القريحة نهايه * وحكى ان سليمان بن عبد الملك امر الفرزدق بضرب اعناق اسارى من الروم فاستعفاه الفرزدق فلم يفعل واعطاه سيفا لا يقطع شيئا فقال الفرزدق بل اضربهم بسيف ابي رغوان مجاشع يعني سيف نفسه فقام فضرب به عنق رومي منهم فنبا السيف عنه فضحك سليمان ومن حوله فقال الفرزدق

* أيعجب الناس ان اضحكت سيدهم * خليفة الله يستسقى به المطر *
* لم ينب سيفي من رعب ولا دهش * عن الاسير ولكن آخر القدر *
* ولن يقدم نفسا قبل ميتتها * جمع اليدين ولا الصمصامة الذكر *

ثم غمد سيفه وهو يقول

* ما ان يعاب سيد اذا صبا * ولا يعاب صارم اذا نبا *
* ولا يعاب شاعر اذا كبا *

ثم جلس وهو يقول كأني بابن القين قد هجاني فقال

* بسيف ابي رغوان سيف مجاشع * ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم *

ثم قام فانصرف وحضر جرير وخبر بالخبر ولم ينشد له الشعر فانشأ يقول

* بسيف ابي رغوان سيف مجاشع * ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم *

ثم قال يا امير المؤمنين كاني بابن المراغة وقد اجابني فقال

* ولا نقتل الاسرى ولكن نفكهم * اذا ثقل الاعناق حمل المغارم *

فاستحسن سليمان حدس الفرزدق على جرير ثم اخبر الفرزدق بشعر جرير ولم يخبره بحدسه فقال الفرزدق

* كذاك سيوف الهند تنبو ظباتها * وتقطع احيانا مناط التمائم *

* ولن نقتل الاسرى ولكن نفكهم * اذا اثقل الاعناق حمل المغارم *

* وهل ضربة الرومي جاعلة لكم * ابا عن كليب او اخا مثل دارم *

فشاع حديث الفرزدق بهذا حتى حكى ان المهدى اتى باسرى من الروم فامر بقتلهم وكان عنده شبيب بن شيبة فقال له اضرب عنق هذا العلج فقال يا امير قد علمت ما ابتلى به الفرزدق فعير به قوم الى اليوم فقال انما اردت تشريفك وقد اعفيتك وكان ابو الهول الشاعر حاضرا فقال

* جزعت من الرومي وهو مقيد * فكيف ولو لاقيته وهو مطلق *

* دعاك امير المؤمنين لقتله * فكاد شبيب عند ذلك يفرق *

* تنح شبيبا عن قراع كتيبة * وأدن شبيبا من كلام يلفق *

وليس العجب من كلام الفرزدق ان صح من جودة القريحتين ولكن من اتفاق الخاطرين ولمثل ذلك قالت الحكماء آية العقل سرعة الفهم * وغايته اصابة الوهم * وليس لمن منح جودة القريحة وسرعة الخاطر عجز عن جواب وان اعضل كما قيل لعلى رضى الله عنه كيف يحسب الله العباد على كثرة عددهم قال كما يرزقهم على كثرة عددهم وقيل لعبد الله بن عباس اين تذهب الارواح اذا فارقت الاجساد قال اين تذهب نار المصابيح

عند

عند فناء الادهان وهذان الجوابان جوابا اسكات تضمنا دليلى اذعان وبجى قهر ومن غيرهذا الفن وان كان مسكتا ما حكى عن ابليس لعنه الله انه حين ظهر لعيسى ابن مريم عليه السلام فقال ألست تقول انه لن يصيبك الا ما كتبه الله عليك قال نعم قال فارم نفسك من ذروة هذا الجبل فانه ان يقدر لك السلامة تسلم فقال له يا ملعون ان لله ان يختبر عباده وليس للعبد ان يختبر ربه ومثل هذا الجواب لا يستغرب من انبياء الله تعالى الذين امدهم بوحيه وايدهم بنصره وانما يستغرب ممن يلجأ الى خاطره ويعول على بديهته وروى قثم بن العباس رضى الله عنهما قال قيل لعلى ابن ابى طالب رضى الله عنه كم بين السماء والارض قال دعوة مستجابة قيل فكم بين المشرق والمغرب قال مسيرة يوم للشمس فكان هذا السؤال من سائله اما اختبارا واما استبصارا فصدر عنه من الجواب ما اسكت فاما اذا اجتمع هذان الوجهان فى العقل المكتسب وهو ما ينميه فرط الذكاء بجودة الحدس وصحة القريحة بحسن البديهة مع ما ينميه الاستعمال بطول التجارب ومرور الزمان بكثرة الاختبار فهو العقل الكامل على الاطلاق فى الرجل الفاضل الاستحقاق روى انس بن مالك رضى الله عنه قال اثنى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير فقال كيف عقله قالوا يا رسول الله ان من عبادته ان من خلقه ان من فضله ان من ادبه فقال كيف عقله قالوا يا رسول الله نثنى عليه بالعبادة واصناف الخير وتسألنا عن عقله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الاحمق العابد يصيب بجهله اعظم من فجور الفاجر وانما يقرب الناس من ربهم بالزلف على قدر عقولهم واختلف الناس فى العقل المكتسب اذا تناهى وزاد هل يكون فضيلة املا فقال قوم لا يكون فضيلة لان الفضائل هيئات متوسطة بين فضيلتين ناقصتين كما ان الخير توسط بين رذيلتين فما جاوز التوسط خرج عن حد الفضيلة وقد قالت الحكماء للاسكندر ايها الملك عليك بالاعتدال فى كل الامور فان الزيادة عيب والنقصان عجز هذا مع ما وردت به السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال خير الامور اوساطها وقال على بن ابى طالب رضى الله عنه خير الامور النمط الاوسط اليه يرجع العالى ومنه يلحق التالى وقال الشاعر لا تذهبن فى الامور فرطا * لا تسألن ان سألت شططا * وكن من الناس جميعا وسطا * قالوا لان زيادة العقل

تفضي بصاحبها الى الدهاء والمكر وذلك مذموم وصاحبه ملوم وقد امر عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ابا موسى الاشعري ان يعزل زيادا عن ولايته فقال زياد يا امير المؤمنين أعن موجدة او خيانة فقال لا عن واحدة منهما و لكن خفت ان احمل على الناس فضل عقلك ولاجل هذا المحكي عن عمر ما قيل قديما افراط العقل مضر بالجسد و قال بعض الحكماء كفاك من عقلك ما دلك على سبيل رشدك و قال بعض البلغاء قليل يكفي خير من كثير يطغي و قال آخرون و هو اصح القولين زيادة العقل فضيلة لان المكتسب غير محدود وانما تكون زيادة الفضائل المحمودة نقصا مذموما لان ما جاوز الحد لا يسمى فضيلة كالشجاع اذا زاد على حد الشجاعة نسب الى التهور والسخي اذا زاد على حد السخاء نسب الى التبذير و ليس كذلك حال العقل المكتسب لان الزيادة فيه زيادة علم بالامور و حسن اصابة بالظنون ومعرفة ما لم يكن الى ما يكون وذلك فضيلة لا نقص و قد روى عن النبي صلى الله عليه و سلم انه قال افضل الناس اعقل الناس وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال العقل حيث كان مألوف وقد قيل في تأويل قوله تعالى قل كل يعمل على شاكلته اي بحسب عقله وقال القاسم بن محمد كانت العرب تقول من لم يكن عقله اغلب خصال الخير عليه كان حتفه في اغلب خصال الخير عليه و قيل في منثور الحكم كل شئ اذا كثر رخص الا العقل فانه اذا كثر غلا و قال بعض البلغاء ان العاقل من عقله في ارشاد * و من رأيه في امداد * فقوله سديد * و فعله حميد * والجاهل من جهله في اغواء * ومن هواه في اغراء * فقوله سقيم * وفعله ذميم * و انشدني ابن لنكك لابيه

* من لم يكن اكثره عقله * اهلكه اكثر ما فيه *

فاما الدهاء والمكر فهو مذموم لان صاحبه صرف فضل عقله الى الشر و لو صرفه الى الخير لكان محمودا و قد ذكر المغيرة بن شعبة عمر بن الخطاب فقال كان والله افضل من ان يخدع واعقل من ان يخدع وقال عمر لست بالخب و لا يخدعني الخب و اختلف الناس فيمن صرف فضل عقله الى الشر كزياد و اشباهه من الدهاة هل يسمى الداهية منهم عاقلا ام لا فقال بعضهم اسميه عاقلا لوجود العقل منه و قال آخرون لا اسميه عاقلا حتى يكون خيرا دينا لان

الخير و الدين من موجبات العقل فاما الشرير فلا اسميه عاقلا و انما اسميه صاحب روية و فكر و قد قيل العاقل من عقل عن الله امره و نهيه حتى قال اصحاب الشافعي رضي الله عنه فيمن اوصى بثلث ماله لاعقل الناس انه يكون مصروفا فى الزهاد لانهم انقادوا للعقل و لم يغتروا بالامل و روى لقمان بن ابى عامر عن ابى الدرداء ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا عويمر ازدد عقلا تزدد من ربك قربا قلت بابى انت وامى و من لى بالعقل قال اجتنب محارم الله و اد فرائض الله تكن عاقلا ثم تنفل بصالحات الاعمال تزدد فى الدنيا عقلا و تزدد من ربك قربا و به عزا و انشدنى بعض اهل الادب هذه الابيات و ذكر انها لعلى بن ابى طالب رضى الله عنه

* ان المكارم اخلاق مطهرة * فالعقل اولها و الدين ثانيها *
* و العلم ثالثها و الحلم رابعها * والجود خامسها والعرف ساديها *
* والبر سابعها والصبر ثامنها * والشكر تاسعها واللين عاشيها *
* والنفس تعلم انى لا اصدقها * ولست ارشد الا حين اعصيها *
* والعين تعلم فى عينى محدثها * من كان من حزبها او من اعاديها *
* عيناك قد دلتا عينى منك على * اشياء لولاهما ما كنت تبديها *

و اعلم ان العقل المكتسب لا ينفك عن العقل الغريزى لانه نتيجة منه وقد ينفك العقل الغريزى عن العقل المكتسب فيكون صاحبه مسلوب الفضائل * موفور الرذائل * كالانوك الذى لا يجد له فضيله * والاحمق الذى قل ما يخلو من رذيله * وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الاحمق كالفخار لا يرقع ولا يشعب وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الاحمق ابغض خلق الله اليه * اذ حرمه اعز الاشياء عليه * وقال بعض الحكماء الحاجة الى العقل اقبح من الحاجة الى المال و قال بعض البلغاء دولة الجاهل عبرة العاقل و قال انو شروان لبزرجمهر اى الاشياء خير للمرء قال عقل يعيش به قال فان لم يكن قال فاخوان يسترون عيبه قال فان لم يكن قال فمال يتحبب به الى الناس قال فان لم يكن قال فعى صامت قال فان لم يكن قال فموت جارف و قال سابور بن ازدشير العقل نوعان احدهما مطبوع * و الآخر

مسموع ولا يصلح واحد منهما الا بصاحبه فأخذ ذلك بعض الشعراء فقال

* رأيت العقل نوعين * فمسموع ومطبوع *
* ولا ينفع مسموع * اذا لم يك مطبوع *
* كما لا تنفع الشمس * وضوء العين ممنوع *

وقد وصف بعض الادباء العاقل بما فيه من الفضائل * والاحمق بما فيه من الرذائل * فقال العاقل اذا والى بذل فى المودة نصره * واذا عادى رفع عن الظلم قدره * فيسعد مواليه بعقله * ويعتصم معاديه بعدله * ان احسن الى احد ترك المطالبة بالشكر * وان اساء اليه مسيء سبب له اسباب العذر * او منحه الصفح والعفو والاحمق ضال مضل ان اونس تكبر * وان اوحش تكدر * وان استنطق تخلف * وان ترك تكلف * مجالسته مهنة * ومعاتبته محنة * ومحاورته تعر * وموالاته تضر * ومقاربته عمى ومقارنته شقا وكانت ملوك الفرس اذا غضبت على عاقل حبسته مع جاهل والاحمق يسيء الى غيره ويظن انه قد احسن اليه فيطالبه بالشكر * ويحسن اليه فيظن انه قد اساء فيطالبه بالوتر * فمساوى الاحمق لا تنقضى وعيوبه لا تتناهى ولا يقف النظر منها الى غاية الا لوحت ما وراءها مما هو ادنى منها واردى وامر وادهى فما اكثر العبر لمن نظر * وانفعها لمن اعتبر * وقال الاحنف ابن قيس من كل شيء يحفظ الاحمق الامن نفسه وقال بعض البلغاء ان الدنيا ربما اقبلت على الجاهل بالاتفاق * وادبرت عن العاقل بالاستحقاق * فان اتتك منها سهمة مع جهل * او فاتتك منها بغية مع عقل * فلا يحملنك ذلك على الرغبة فى الجهل * والزهد فى العقل * فدولة الجاهل من الممكنات * ودولة العاقل من الواجبات * وليس من امكنه شيء من ذاته * كمن استوجبه بآلته وادواته * وبعد فدولة الجاهل كالغريب الذى يحن الى النقلة * ودولة العاقل كالنسيب الذى يحن الى الوصلة * فلا يفرح المرء بحالة جليلة نالها بغير عقل * ومنزلة رفيعة حلها بغير فضل * فان الجهل ينزله منها * ويزيله عنها * ويحطه الى رتبته * ويرده الى قيمته * بعد ان تظهر عيوبه * وتكثر ذنوبه * ويصير مادحه هاجيا * ووليه معاديا ﴿ واعلم ﴾ انه

بحسب

بحسب ما ينشر من فضائل العاقل * كذلك يظهر من رذائل الجاهل * حتى يصير مثلا فى الغابرين * وحديثا فى الآخرين * مع هتكه فى عصره * وقبح ذكره فى دهره * كالذى رواه عطاء عن جابر قال كان فى بنى اسرائيل رجل له حمار فقال يارب لوكان لك حمار لعلفته مع حمارى فهم به نبى من انبياء الله فاوحى الله اليه انما اثيب كل انسان على قدر عقله واستعمل معاوية رجلا من كلب فذكر المجوس يوما عنده فقال لعن الله المجوس ينكحون امهاتهم والله لو اعطيت عشرة آلاف درهم ما نكحت امى فبلغ ذلك معاوية فقال قبحه الله أترونه لو زادوه فعل وعزله وولى الربيع العامرى وكان من النوكى سائر اليمامة فاقاد كلبا بكلب فقال فيه الشاعر

* شهدت بان الله حقا لقاؤه * وان الربيع العامرى رقيع *
* اقاد لنا كلبا بكلب ولم يدع * دماء كلاب المسلمين تضيع *

وليس لمعار الجهل غايه * ولا لمضار الحق نهايه * قال الشاعر

* لكل داء دواء يستطب به * الا الحماقة اعيت من يداويها *

﴿ فصل ﴾ واما الهوى فهو عن الخير صاد * وللعقل مضاد * لانه ينتج من الاخلاق قبائحها * ويظهر من الافعال فضائحها * ويجعل ستر المروءة مهتوكا * ومدخل الشر مسلوكا * قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما الهوى اله يعبد من دون الله ثم تلا أفرأيت من اتخذ الهه هواه وقال عكرمة فى قوله تعالى ولكنكم فتنتم انفسكم يعنى بالشهوات وتربصتم يعنى بالتوبة وارتبتم يعنى فى امر الله وغرتكم الامانى يعنى بالتسويف حتى جاء امر الله يعنى الموت وغركم بالله الغرور يعنى الشيطان وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال طاعة الشهوة داء * وعصيانها دواء * وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها فانها طلاعة تنزع الى شر غاية ان هذا الحق ثقيل مرئ وان الباطل خفيف وبئ وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ورب نظرة زرعت شهوة وشهوة ساعة اورثت حزنا طويلا وقال على بن ابى طالب رضى الله عنه اخاف عليكم اثنين اتباع الهوى وطول الامل فان اتباع الهوى يصد عن الحق

وطول الامل ينسي الآخرة وقال الشعبي انما سمي الهوى هوى لانه يهوى بصاحبه وقال اعرابي الهوى هوان ولكن غلط باسمه فاخذه الشاعر وقال

* ان الهوان هو الهوى قلب اسمه * فاذا هويت فقد لقيت هوانا *

وقيل في منثور الحكم من اطاع هواه * اعطى عدوه مناه * وقال بعض الحكماء العقل صديق مقطوع * والهوى عدو متبوع * وقال بعض البلغاء افضل الناس من عصى هواه * وافضل منه من رفض دنياه * وقال هشام بن عبد الملك ابن مروان

* اذا انت لم تعص الهوى قادك الهوى * الى كل ما فيه عليك مقال *

قال ابن المعتز رحمه الله لم يقل هشام بن عبد الملك سوى هذا البيت وقال الشاعر

* اذا ما رأيت المرء يعتاده الهوى * فقد ثكلته عند ذاك ثواكله *

* وقد اشمت الاعداء جهلا بنفسه * وقد وجدت فيه مقالا عواذله *

* وما يردع النفس اللجوج عن الهوى * من الناس الا حازم الرأى كامله *

فلما كان الهوى غالبا والى سبيل المهالك موردا جعل العقل عليه رقيبا مجاهدا يلاحظ عثرة غفلته * ويدفع بادرة سطوته * ويدفع خداع حيلته * لان سلطان الهوى قوى * ومدخل مكره خفى * ومن هذين الوجهين يؤتى العاقل حتى تنفذ احكام الهوى عليه اعنى باحد الوجهين قوة سلطانه وبالآخر خفاء مكره فاما الوجه الاول فهو ان يقوى سلطان الهوى بكثرة دواعيه حتى تولى عليه مغالبة الشهوات فيكل العقل عن دفعها * ويضعف عن منعها * مع وضوح قبحها في العقل المقهور بها وهذا يكون في الاحداث اكثر وعلى الشباب اغلب لقوة شهواتهم وكثرة دواعى الهوى المتسلط عليهم وانهم ربما جعلوا الشباب عذرا لهم كما قال محمد بن بشير

* كل يرى ان الشباب له * في كل مبلغ لذة عذرا *

ولذلك قال بعض الحكماء الهوى ملك غشوم * ومتسلط ظلوم * وقال بعض الادباء الهوى عسوف * والعدل مألوف * وقال بعض الشعراء

* يا عاقلا اردى الهوى عقله * مالك قد سدت عليك الامور *

* أتجعل العقل اسير الهوى * وانما العقل عليه امير *

وحسم

وحسم ذلك ان يستعين بالعقل على النفس النفورة فيشعرها ما فى عواقب الهوى من شدة الضرر * وقبح الاثر * وكثرة الاجرام * وتراكم الآثام * فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات اخبر ان الطريق الى الجنة احتمال المكاره والطريق الى النار اتباع الشهوات قال على بن ابى طالب رضى الله عنه اياكم وتحكيم الشهوات على انفسكم فان عاجلها ذميم * وآجلها وخيم * فان لم ترها تنقاد بالتحذير والارهاب * فسوفها بالتأميل والارغاب * فان الرغبة والرهبة اذا اجتمعا على النفس ذلت لهما وانقادت وقد قال ابن السماك كن لهواك مسوفا * ولعقلك مسعفا * وانظر الى ما تسوء عاقبته فوطن نفسك على مجانبته فان ترك النفس وما تهوى داؤها * وترك ما تهوى دواؤها * فاصبر على الدواء * كما تخاف من الداء * وقال الشاعر

* صبرت على الايام حتى تولت * والزمت نفسى صبرها فاستمرت *
* وما النفس الا حيث يجعلها الفتى * فان طمعت تاقت والا تسلت *

فاذا انقادت النفس للعقل بما قد اشعرت من عواقب الهوى لم يلبث الهوى ان يصير بالعقل مدحورا * وبالنفس مقهورا * ثم له الحظ الاوفى فى ثواب الخالق وثناء المخلوقين قال الله تعالى واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى وقال الحسن البصرى افضل الجهاد جهاد الهوى وقال بعض الحكماء اعز العز الامتناع من ملك الهوى وقال بعض البلغاء خير الناس من اخرج الشهوة من قلبه * وعصى هواه فى طاعة ربه وقال بعض الادباء من امات شهوته * فقد احيى مروءته * وقال بعض العلماء ركب الله الملائكة من عقل بلا شهوة وركب البهائم من شهوة بلا عقل وركب ابن آدم من كليهما فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة ومن غلبت شهوته على عقله فهو شر من البهائم وقيل لبعض الحكماء من اشجع الناس واحراهم بالظفر فى مجاهدته قال من جاهد الهوى طاعة لربه * واحترس فى مجاهدته من ورود خواطر الهوى على قلبه * وقال بعض الشعراء

* قد يدرك الحازم ذو الرأى المنى * بطاعة الحزم وعصيان الهوى *

واما الوجه الثانى فهو ان يخفى الهوى بكره حتى تتموه افعاله على العقل فيتصور القبيح حسنا والضرر نفعا وهذا يدعو اليه احد شيئين اما ان يكون للنفس ميل الى ذلك الشئ فيخفى عنها القبيح لحسن ظنها وتتصوره حسنا لشدة ميلها و لذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم حبك الشئ يعمى ويصم اى يعمى عن الرشد ويصم عن الموعظة وقال على رضى الله عنه الهوى عمى قال الشاعر

* حسن فى كل عين من تود *

وقال عبيد الله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن ابى طالب رضى الله عنه

* ولست براء عيب ذى الود كله * ولا بعض ما فيه اذا كنت راضيا *
* فعين الرضى عن كل عيب كليلة * ولكن عين السخط تبدى المساويا *

و اما السبب الثانى فهو اشتغال الفكر فى تمييز ما اشتبه فيطلب الراحة فى اتباع ما استسهل حتى يظن ان ذلك اوفق امريه واحمد حاليه اغترارا بان الاسهل محمود والاعسر مذموم فلن يعدم ان يتورط بخدع الهوى وريبة المكر فى كل مخوف حذر * ومكروه عسر * ولذلك قال عامر بن الظرب الهوى يقظان والعقل راقد فمن ثم غلب وقال سليمان بن وهب الهوى امنع * والرأى انفع * وقيل فى المثل العقل وزير ناصح * والهوى وكيل فاضح * وقال الشاعر

* اذا المرء اعطى نفسه كلما اشتهت * ولم ينهها تاقت الى كل باطل *
* وساقت اليه الاثم والعار بالذى * دعته اليه من حلاوة عاجل *

و حسم السبب الاول ان يجعل فكر قلبه حكما على نظر عينه فان العين رائد الشهوة والشهوة من دواعى الهوى والقلب رائد الحق والحق من دواعى العقل* وقال بعض الحكماء نظر الجاهل بعينه وناظره * ونظر العاقل بقلبه وخاطره * ثم يتهم نفسه فى صواب ما احبت وتحسين ما اشتهت ليصح له الصواب ويتبين له الحق فان الحق اثقل محملا واصعب مركبا فان اشكل عليه امران اجتنب احبهما اليه * وترك اسهلهما عليه * فان النفس عن الحق انفر * وللهوى آثر * وقد قال العباس بن عبد المطلب اذا اشتبه عليك امران فدع احبهما اليك * وخذ اثقلهما عليك * وعلة هذا القول هو ان الثقيل يبطئ النفس

عن

عن التسرع اليه فيتضح مع الابطاء وتطاول الزمان صواب ما استعجم * وظهور ما استبهم * وقد قال على بن ابى طالب من تفكر ابصر والمحبوب اسهل شئ تسرع النفس اليه * وتعجل بالاقدام عليه * فيقصر الزمان عن تصفحه ويفوت استدراكه لتقصير فعله فلا ينفع التصفح بعد العمل ولا الاستبانة بعد الفوت وقال بعض الحكماء ما كان عنك معرضا * فلا تكن به متعرضا * وقال الشاعر

* أليس طلاب ما قد فات جهلا * وذكر المرء ما لا يستطيع *

ولقد وصف بعض البلغاء حال الهوى وما يقارنه من محن الدنيا فقال الهوى مطية الفتنه * والدنيا دار المحنه * فانزل عن الهوى تسلم * واعرض عن الدنيا تغنم * ولا يغرنك هواك بطيب الملاهى ولا تفتنك دنياك بحسن العوارى فمدة اللهو تنقطع وعارية الدهر ترتجع ويبقى عليك ما ترتكبه من المحارم * وتكتسبه من المآثم * وقال على بن عبد الله الجعفرى سمعتنى امرأة بالطواف وانا انشد

* اهوى هوى الدين واللذات تعجبنى * فكيف لى بهوى اللذات والدين *

فقالت هما ضرتان فذر ايهما شئت وخذ الاخرى فاما فرق ما بين الهوى والشهوة مع اجتماعهما فى العلة والمعلول * واتفاقهما فى الدلالة والمدلول * فهو ان الهوى مختص بالآراء والاعتقادات والشهوة مختصة بنيل اللذة فصارت الشهوة من نتائج الهوى وهى اخص والهوى اصل هو اعم ونحن نسأل الله تعالى ان يكفينا دواعى الهوى * ويصرف عنا سبل الردى * ويجعل التوفيق لنا قائدا * والعقل لنا مرشدا * فقد روى ان الله تعالى اوحى الى عيسى عليه السلام عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس والا فاستحى منى وقال محمد بن كناسة

* ما من روى ادبا فلم يعمل به * ويكف عن زيغ الهوى باديب *
* حتى يكون بما تعلم عاملا * من صالح فيكون غير معيب *
* ولقلما تغنى اصابة قائل * افعاله افعال غير مصيب *

وقال آخر

* يا ايها الرجل المعلم غيره * هلا لنفسك كان ذا التعليم *
* تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى * كيما يصح به وانت سقيم *
* ابدأ بنفسك فانهها عن غيها * فاذا انتهت عنه فانت حكيم *
* فهناك تعذر ان وعظت ويقتدى * بالقول منك ويقبل التعليم *
* لا تنه عن خلق وتأتى مثله * عار عليك اذا فعلت عظيم *

حكى ابو فروة ان طارقا صاحب شرطة خالد القسرى مر بابن شبرمة وطارق فى موكبه فقال ابن شبرمة

* اراها وان كانت تحب كأنها * سحابة صيف عن قريب تقشع *

اللهم لى دينى ولهم دنياهم فاستعمل ابن شبرمة بعد ذلك على القضاء فقال له ابنه ابو بكر أتذكر قولك يوم كذا اذ مر بك طارق فى موكبه فقال يا بنى انهم يجدون مثل ابيك ولا يجد ابوك مثلهم ان اباك اكل من حلاوتهم * فحط فى اهوائهم * أما ترى هذا الدين الفاضل كيف عوجل بالتقريع وقوبل بالتوبيخ من اخص ذويه * ولعله من ابر بنيه * فكيف بنا ونحن اطلق منه عنانا * واقلق منه جنانا * اذا رمقتنا اعين المتبعين * وتناولتنا السن المتعتبين * هل نجد غير توفيق الله تعالى ملاذا * وسوى عصمته معاذا *

باب ادب العلم

اعلم ان العلم اشرف ما رغب فيه الراغب * وافضل ما طلب وجد فيه الطالب * وانفع ما كسبه واقتناه الكاسب * لان شرفه يثمر على صاحبه * وفضله ينمى على طالبه * قال الله تعالى قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون فمنع المساواة بين العالم والجاهل لما قد خص به العالم من فضيلة العلم وقال تعالى وما يعقلها الا العالمون فنفى ان يكون غير العالم يعقل عنه امرا * او يفهم منه زجرا * وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اوحى الى ابراهيم عليه السلام انى عليم احب كل عليم وروى ابو امامة قال سئل رسول الله صلى الله عليه

وسلم عن رجلين احدهما عالم والآخر عابد فقال صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلى على ادناكم رجلا وقال على بن ابى طالب رضى الله عنه الناس ابناء ما يحسنون وقال مصعب بن الزبير تعلم العلم فان يكن لك مال كان لك جمالا وان لم يكن لك مال كان لك مالا وقال عبد الملك بن مروان لبنيه يا بنى تعلموا العلم فان كنتم سادة فقتم * وان كنتم وسطا سدتم * وان كنتم سوقة عشتم * وقال بعض الحكماء العلم شرف لا قدر له والادب مال لا خوف عليه وقال بعض الادباء العلم افضل خلف * والعمل به اكمل شرف * وقال بعض البلغاء تعلم العلم فانه يقومك ويسددك صغيرا * ويقدمك ويسودك كبيرا * ويصلح زيغك وفاسدك * ويرغم عدوك وحاسدك * ويقوم عوجك وميلك * ويصحح همتك واملك * وقال على رضى الله تعالى عنه قيمة كل امرئ ما يحسن فاخذه الخليل فنظمه شعرا فقال

* لا يكون العلىّ مثل الدنىّ * لا ولا ذو الذكاء مثل الغبىّ *
* قيمة المرء قدر ما يحسن المر * ء قضاء من الامام علىّ *

وليس يجهل فضل العلم الا اهل الجهل لان فضل العلم انما يعرف بالعلم وهذا ابلغ فى فضله لان فضله لا يعلم الا به فلما عدم الجهال العلم الذى به يتوصلون الى فضل العلم جهلوا فضله * واسترذلوا اهله * وتوهموا ان ما تميل اليه نفوسهم من الاموال المقتناه * والطرف المشتهاه * اولى ان يكون اقبالهم عليها واحرى ان يكون اشتغالهم بها وقد قال ابن المعتز فى منثور الحكم العالم يعرف الجاهل لانه كان جاهلا والجاهل لا يعرف العالم لانه لم يكن عالما وهذا صحيح ولاجله انصرفوا عن العلم واهله انصراف الزاهدين * وانحرفوا عنه وعنهم انحراف المعاندين * لان من جهل شيئا عاداه وانشدنى ابن لنكك لابى بكر بن دريد

* جهلت فعاديت العلوم واهلها * كذاك يعادى العلم من هو جاهله *
* ومن كان يهوى ان يرى متصدرا * ويكره لا ادرى اصيبت مقاتله *

وقيل لبزرجمهر العلم افضل ام المال فقال بل العلم قيل فما بالنا نرى العلماء على ابواب الاغنياء ولا نكاد نرى الاغنياء على ابواب العلماء فقال ذلك لمعرفة العلماء

بمنفعة المال وجهل الاغنياء لفضل العلم وقيل لبعض الحكماء لم لايجتمع العلم والمال * فقال لعز الكمال * فانشدت لبعض اهل هذا العصر

* وفى الجهل قبل الموت موت لاهله * فاجسامهم قبل القبور قبور *
* وان امرءا لم يحى بالعلم ميت * فليس له حتى النشور نشور *

ووقف بعض المتعلمين بباب عالم ثم نادى تصدقوا علينا بما لايتعب ضرسا * ولا يسقم نفسا * فاخرج له طعاما ونفقة فقال فاقتى الى كلامكم * اشد من فاقتى الى طعامكم * انى طالب هدى * لا سائل ندى * فأذن له العالم وافاده من كل ما سأل عنه فخرج جذلا فرحا وهو يقول علم اوضح لبسا * خير من مال اغنى نفسا * واعلم ان كل العلوم شريفة ولكل علم منها فضيلة والاحاطة بجميعها محال قيل لبعض الحكماء من يعرف كل العلوم فقال كل الناس وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من ظن ان للعلم غاية فقد بخسه حقه ووضعه فى غير منزلته التى وصفه الله بها حيث يقول وما اوتيتم من العلم الا قليلا وقال بعض العلماء لو كنا نطلب العلم لنبلغ غايته كنا قد بدأنا العلم بالنقيصة ولكننا نطلبه لننقص فى كل يوم من الجهل ونزداد فى كل يوم من العلم وقال بعض العلماء المتعمق فى العلم كالسابح فى البحر ليس يرى ارضا * ولا يعرف طولا ولا عرضا * وقيل لحماد الراوية أما تشبع من هذه العلوم فقال استفرغنا فيها المجهود * فلم نبلغ منها المحدود * فنحن كما قال الشاعر

* اذا قطعنا علما بدا علم *

وانشد الرشيد عن المهدى بيتين وقال اظنهما له

* يا نفس خوضى بحار العلم او غوصى * فالناس ما بين معموم ومخصوص *
* لا شئ فى هذه الدنيا نحيط به * الا احاطة منقوص بمنقوص *

واذا لم يكن الى معرفة جميع العلوم سبيل وجب صرف الاهتمام الى معرفة اهمها والعناية باولاها وافضلها واولى العلوم وافضلها علم الدين لان الناس بمعرفته يرشدون * وبجهله يضلون * اذ لا يصح آداء عبادة جهل فاعلها صفات آدائها * ولم يعلم شروط اجزائها * ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل العلم خير من فضل العبادة وانما كان كذلك لان العلم يبعث على فضل

العبادة و العبادة مع خلو فاعلها من العلم بها قد لا تكون عبادة فلزم علم الدين كل مكلف وكذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم وفيه تأويلان احدهما علم ما لا يسع جهله من العبادات والثانى جملة العلم اذا لم يقم بطلبه من فيه كفاية واذا كان علم الدين قد اوجب الله تعالى فرض بعضه على الاعيان وفرض جميعه على الكافة كان اولى مما لم يجب فرضه على الاعيان ولا على الكافة قال الله تعالى فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين و لينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون وروى عبد الله بن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فاذا هو بمجلسين احدهما يذكرون الله تعالى والآخر يتفقهون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا المجلسين على خير واحدهما احب الىّ من صاحبه اما هؤلاء فيسألون الله تعالى و يذكرونه فان شاء اعطاهم وان شاء منعهم واما المجلس الآخر فيتعلمون الفقه و يعلمون الجاهل وانما بعثت معلما وجلس الى اهل الفقه وروى مروان بن جناح عن يونس بن ميسرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال الخير عادة والشر لجاجة ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال خيار امتى علماؤها وخيار علمائها فقهاؤها وروى معاذ بن رفاعة عن ابراهيم بن عبد الرحمن العذرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين * وانتحال المبطلين * وتأويل الجاهلين * وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال على ّ بخلفائى قالوا ومن خلفاؤك قال الذين يحيون سنتى و يعلمونها عباد الله وروى حميد عن انس ان النبى صلى الله عليه وسلم قال التفقه فى الدين حق على كل مسلم ألا فتعلموا وعلموا وتفقهوا ولا تموتوا جهالا وروى سليمان بن يسار عن ابى هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ما عبد الله بشئ افضل من فقه فى الدين ولفقيه واحد اشد على الشيطان من الف عابد ولكل شئ عماد وعماد الدين الفقه وربما مال بعض المتهاونين بالدين الى العلوم العقلية ورأى انها احق بالفضيلة واولى بالتقدمة استثقالا لما تضمنه الدين من التكليف * واسترذالا لما جاء به الشرع

من التعبد والتوقيف * والكلام مع مثل هذا فى اصل * لا يتسع له هذا الفصل * ولن ترى ذلك فيمن سلمت فطنته * وصحت رويته * لان العقل يمنع من ان يكون الانسان هملا او سدى يعتمدون على آرائهم المختلفة ويتفانون لاهوائهم المتشعبة لما تؤول اليه امورهم من الاختلاف والتنازع * ويفضى اليه احوالهم من التباين والتقاطع * فلم يستغنوا عن دين يتألفون به ويتفقون عليه ثم العقل موجب له او مانع ولو تصور هذا المختل التصور ان الدين ضرورة فى العقل وان العقل فى الدين اصل لقصر عن التقصير واذعن للحق ولكن اهمل نفسه فضل واضل وقد يتعلق بالدين علوم قد بين الشافعى فضيلة كل واحد منها فقال من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن تعلم الفقه نبل مقداره ومن كتب الحديث قويت حجته ومن تعلم الحساب جزل رأيه ومن تعلم العربية رق طبعه ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه ولعمرى ان صيانة النفس اصل الفضائل لان من اهمل صيانة نفسه ثقة بما منحه العلم من فضيلته وتوكلا على ما يلزم الناس من صيانته سلبوه فضيلة علمه ووسموه بقبيح تبذله فلم يف ما اعطاه العلم بما سلبه التبذل لان القبيح انم من الجميل والرذيلة اشهر من الفضيلة لان الناس لما فى طبائعهم من البغضة والحسد ونزاع المنافسة تنصرف عيونهم عن المحاسن الى المساوى فلا ينصفون محسنا ولا يحابون مسيئا لا سيما من كان بالعلم موسوما واليه منسوبا فان زلته لا تقال وهفوته لا تعذر اما لقبح اثرها واغترار كثير من الناس بها وقد قيل فى منثور الحكم ان زلة العالم كالسفينة تغرق ويغرق معها خلق كثير وقيل لعيسى ابن مريم عليه السلام من اشد الناس فتنة قال زلة العالم اذا زل زل بزلته عالم كثير فهذا وجه واما لان الجهال بذمه اغرى * وعلى تنقصه احرى * ليسلبوه فضيلة التقدم ويمنعوه مباينة التخصيص عنادا لما جهلوه ومقتا لما باينوه لان الجاهل يرى العلم تكلفا ولوما * كما ان العالم يرى الجهل تخلفا وذما * وانشدت عن الربيع للشافعى رضى الله عنه

* ومنزلة السفيه من الفقيه * كمنزلة الفقيه من السفيه *
* فهذا زاهد فى قرب هذا * وهذا فيه ازهد منه فيه *
* اذا غلب الشقاء على سفيه * تقطع فى مخالفة الفقيه *

وقال يحيى بن خالد لابنه عليك بكل نوع من العلم فخذ منه فان المرء عدو ما جهل وانا اكره ان تكون عدو شئ من العلم وانشد

* تفنن وخذ من كل علم فانما * يفوق امرؤ فى كل فن له علم *
* فانت عدو للذى انت جاهل * به ولعلم انت تتقنه سلم *

واذا صان ذو العلم نفسه حق صيانتها ولازم فعل ما يلزمها امن تعيير الموالى وتنقيص المعادى وجمع الى فضيلة العلم جميل الصيانة وعز النزاهة فصار بالمنزلة التى يستحقها بفضائله وروى ابو الدرداء ان النبى صلى الله عليه وسلم قال العلماء ورثة الانبياء لان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم وروى ابو هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال للانبياء على العلماء فضل درجتين وللعلماء على الشهداء فضل درجة وقال بعض البلغاء ان من الشريعة ان تجل اهل الشريعة * ومن الصنيعة ان ترب حسن الصنيعة * فينبغى لمن استدل بفطرته على استحسان الفضائل * واستقباح الرذائل * ان ينفى عن نفسه رذائل الجهل بفضائل العلم وغفلة الاهمال باستيقاظ المعاناة ويرغب فى العلم رغبة متحقق لفضائله واثق بمنافعه ولا يلهيه عن طلبه كثرة مال وجده ولا نفوذ امر وعلو منزلة فان من نفذ امره فهو الى العلم احوج ومن علت منزلته فهو بالعلم احق وروى انس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع العبد المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك وقد قال بعض الادباء كل عز لا يوطده علم مذله * وكل علم لا يؤيده عقل مضله * وقال بعض علماء السلف اذا اراد الله بالناس خيرا جعل العلم فى ملوكهم والملك فى علمائهم وقال بعض البلغاء العلم عصمة الملوك لانه يمنعهم من الظلم * ويردهم الى الحلم * ويصدهم عن الاذيه * ويعطفهم على الرعيه * فمن حقهم ان يعرفوا حقه ويستبطنوا اهله فاما المال فظل زائل وعارية مسترجعة وليس فى كثرته فضيلة ولو كانت فيه فضيلة لخص الله به من اصطفاه لرسالته * واجتباه لنبوته * وقد كان اكثر انبياء الله تعالى مع ما خصهم الله به من كرامته وفضلهم على سائر خلقه فقراء لا يجدون بلغة ولا يقدرون على شئ حتى صاروا فى الفقر مثلا فقال البحترى

* فقر كفقر الانبياء وغربة * وصبابة ليس البلاء بواحد *

و لعدم الفضيلة فى المال منحه الله الكافر و حرمه المؤمن قال الشاعر

* كم كافر بالله اموالـه * تزداد اضعافا على كفره *

* و مؤمن ليس له درهم * يزداد ايمانا على فقره *

* يا لائم الدهر و افعاله * مشتغلا يزرى على دهره *

* الدهر مأمور له آمر * ينصرف الدهر على امره *

و قد بين على بن ابى طالب رضى الله عنه فضل ما بين العلم و المال فقال العلم خير من المال العلم يحرسك و انت تحرس المال العلم حاكم و المال محكوم عليه مات خزان الاموال و بقى خزان العلم اعيانهم مفقوده * و اشخاصهم فى القلوب موجوده * و سئل بعض العلماء ايما افضل المال ام العلم فقال الجواب عن هذا ايما افضل المال ام العقل و قال صالح بن عبد القدوس

* لا خير فيمن كان خير ثنائه * فى الناس قولهم غنى واجد *

و ربما امتنع الانسان من طلب العلم لكبر سنه واستحيائه من تقصيره فى صغره * ان يتعلم فى كبره * فرضى بالجهل ان يكون موسوما به وآثره على العلم ان يصير مبتدئا به و هذا من خدع الجهل وغرور الكسل لان العلم اذا كان فضيلة فرغبة ذوى الاسنان فيه اولى و الابتداء بالفضيلة فضيلة و لان يكون شيخا متعلما اولى من ان يكون شيخا جاهلا حكى ان بعض الحكماء رأى شيخا كبيرا يحب النظر فى العلم و يستحى فقال له يا هذا أتستحيي ان تكون فى آخر عمرك افضل مما كنت فى اوله وذكر ان ابراهيم بن المهدى دخل على المأمون وعنده جماعة يتكلمون فى الفقه فقال ياعم ماعندك فيما يقول هؤلاء فقال يا امير المؤمنين شغلونا فى الصغر و اشتغلنا فى الكبر فقال لم لا تتعلمه اليوم قال أويحسن بمثلى طلب العلم قال نعم و والله لان تموت طالبا للعلم خير من ان تعيش قانعا بالجهل قال و الى متى يحسن بى طلب العلم قال ما حسنت بك الحياة ولان الصغير اعذر و ان لم يكن فى الجهل عذر لانه لم تطل به مدة التفريط و لا استمرت عليه ايام الاهمال و قد قيل فى منثور الحكم جهل الصغير معذور * و علمه محقور * فاما الكبير فالجهل به اقبح * و نقصه عليه افضح * لان علو السن

اذا لم يكسبه فضلا و لم يفده علما و كانت ايامه فى الجهل ماضيه * و من الفضل خاليه * كان الصغير افضل منه لان الرجاء له اكثر * والامل فيه اظهر * وحسبك نقصا فى رجل يكون الصغير المساوى له فى الجهل افضل منه و انشدت لبعض اهل الادب

* اذا لم يكن مر السنين مترجما * عن الفضل فى الانسان سميته طفلا *
* و ما تنفع الايام حين يعدها * و لم يستفد فيهن علما و لا فضلا *
* ارى الدهر من سوء التصرف مائلا * الى كل ذى جهل كأن به جهلا *

و ربما امتنع من طالب العلم لتعذر المادة و شغله اكتسابها عن التماس العلم وهذا و ان كان اعذر من غيره مع انه قل مايكون ذلك الا عند ذى شره وعيب وشهوة مستعبدة فينبغى ان يصرف الى العلم حظا من زمانه فليس كل الزمان زمان اكتساب ولا بد للمكتسب من اوقات استراحة و ايام عطلة و من صرف كل نفسه الى الكسب حتى لم يترك لها فراغا الى غيره فهو من عبيد الدنيا و اسراء الحرص و قد روى عن النبى صلى الله عليه و سلم انه قال لكل شئ فترة فمن كانت فترته الى العلم فقد نجا وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال كونوا علماء صالحين فان لم تكونوا علماء صالحين فجالسوا العلماء و اسمعوا علما يدلكم على الهدى و يردكم عن الردى و قال بعض العلماء من احب العلم احاطت به فضائله و قال بعض الحكماء من صاحب العلماء وقر * و من جالس السفهاء حقر * و ربما منعه من طلب العلم ما يظنه من صعوبته و بعد غايته و يخشى من قلة ذهنه و بعد فطنته وهذا الظن اعتذار ذوى النقص و خيفة اهل العجز لان الاخبار قبل الاختبار جهل و الخشية قبل الابتلاء عجز و قد قال الشاعر

* لا تكونن للامور هيوبا * فالى خيبة يصير الهيوب *

و قال رجل لابى هريرة رضى الله عنه اريد ان اتعلم العلم و اخاف ان اضيعه فقال كفى بترك العلم اضاعة و ليس وان تفاضلت الاذهان و تفاوتت الفطن ينبغى لمن قل منها حظه ان ييئس من نيل القليل و ادراك اليسير الذى يخرج به من حد الجهالة الى ادنى مراتب التخصيص فان الماء مع لينه يؤثر فى صم الصخور فكيف لايؤثر العلم الزكى * فى نفس راغب شهى * و طالب خلى * لا سيما

وطالب العلم معان قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الملائكة لتضع اجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب وربما منع ذا السفاهة من طلب العلم ان يصور فى نفسه حرفة اهله و تضايق الامور مع الاشتغال به حتى يسمهم بالادبار و يتوسمهم بالحرمان فان رأى محبرة تطير منها و ان رأى كتابا اعرض عنه و ان رأى متحليا بالعلم هرب منه كأنه لم ير عالما مقبلا و جاهلا مدبرا و لقد رأيت من هذه الطائفة جماعة ذوى منازل و احوال كنت اخفى عنهم ما يصحبنى من محبرة و كتاب لئلا اكون عندهم مستثقلا و ان كان البعد عنهم مؤنسا و مصلحا و القرب منهم موحشا و مفسدا فقد قال بزرجمهر الجهل فى القلب كالبز فى الارض يفسد ما حوله لكن اتبعت فيهم الحديث المروى عن ابى الاشعث عن ابى عثمان عن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خالطوا الناس باخلاقهم و خالفوهم فى اعمالهم ولذلك قال بعض البلغاء رب جهل وقيت به علماء * وسفه حميت به حلماء * و هذه الطبقة ممن لا يرجى لها صلاح * و لا يؤمل لها فلاح * لان من اعتقد ان العلم شين * و ان تركه زين * و ان للجهل اقبالا مجديا * وللعلم ادبارا مكديا * كان ضلاله مستحكما و رشاده مستبعدا و كان هو الخامس الهالك الذى قال فيه على بن ابى طالب رضى الله عنه اغد عالما او متعلما او مستمعا او محبا ولا تكن الخامس فتهلك و قد رواه خالد الحذاء عن عبد الرحمن ابن ابى بكرة عن النبي صلى الله عليه وسلم مسندا و ليس لمن هذه حاله فى العذل نفع و لا فى الاصلاح مطمع وقد قيل لبزرجمهر ما لكم لا تعاتبون الجهال فقال انا لا نكلف العمى ان يبصروا و لا الصم ان يسمعوا و هذه الطائفة التى تنفر من العلم هذا النفور و تعاند اهله هذا العناد ترى العقل بهذه المثابة و تنفر من العقلاء هذا النفور و تعتقد ان العاقل محارف و ان الاحمق محظوظ و ناهيك بضلال من هذا اعتقاده فى العقل و العلم هل يكون لخير اهلا او لفضيلة موضعا و قد قال بعض البلغاء اخبث الناس المساوى بين المحاسن و المساوى و علة هذا انهم ربما رأوا عاقلا غير محظوظ و عالما غير مرزوق فظنوا ان العلم و العقل هما السبب فى قلة حظه و رزقه وقد انصرفت عيونهم عن حرمان اكثر النوكى و ادبار اكثر الجهال لان فى العقلاء و العلماء قلة

وعليهم

و عليهم من فضلهم سمة ولذلك قيل العلماء غرباء لكثرة الجهال فاذا ظهرت سمة فضلهم و صادف ذلك قلة حظ بعضهم تنوهوا بالتميز واشتهروا بالتعيين فصاروا مقصودين باشارة المتعنتين ملحوظين بايماء الشامتين و الجهال و الحمقى لما كثروا و لم يتخصصوا انصرفت عنهم النفوس فلم يلحظ المحروم منهم بطرف شامت و لا قصد المجدود منهم باشارة عائب فلذلك ظن الجاهل المرزوق ان الفقر و الضيق مختص بالعلم و العقل دون الجهل و الحمق ولو فتشت احوال العلماء و العقلاء مع قلتهم لوجدت الاقبال فى اكثرهم و لو اختبرت امور الجهال و الحمقى مع كثرتهم لوجدت الحرمان فى اكثرهم و انما يصير ذو الحال الواسعة منهم ملحوظا مشتهرا لان حظه عجيب و اقباله مستغرب كما ان حرمان العاقل العالم غريب و اقلاله عجيب و لم تزل الناس على سالف الدهور من ذلك متعجبين و به معتبرين حتى قيل لبرزجمهر ما اعجب الاشياء فقال نجح الجاهل و اكداء العاقل لكن الرزق بالحظ و الجد لا بالعلم و العقل حكمة منه تعالى يدل بها على قدرته و اجراء الامور على مشيئته وقد قالت الحكماء لو جرت الاقسام على قدر العقول لم تعش البهائم فنظمه ابو تمام فقال

* ينال الفتى من عيشه وهو جاهل * و يكدى الفتى من دهره وهو عالم *
* ولو كانت الارزاق تجرى على الحجى * هلكن اذن من جهلهن البهائم *

﴿ وقال كعب بن زهير بن ابى سلمى ﴾

* لو كنت اعجب من شئ لاعجبنى * سعى الفتى وهو مخبوء له القدر *
* يسعى الفتى لامور ليس يدركها * و النفس واحدة و الهم منتشر *

على ان العلم و العقل سعادة و اقبال * و ان قل معهما المال * وضاقت معهما الحال * و الجهل و الحمق حرمان و ادبار و ان كثر معهما المال * و اتسعت فيهما الحال * لان السعادة ليست بكثرة المال فكم من مكثر شقى و مقل سعيد وكيف يكون الجاهل الغنى سعيدا والجهل يضعه * ام كيف يكون العالم الفقير شقيا و العلم يرفعه * وقد قيل فى منثور الحكم كم من ذليل اعزه علمه ومن عزيز اذله جهله وقال عبد الله بن المعتز الجاهل كروضة على مزبلة و قال بعض الحكماء كلما حسنت نعمة الجاهل ازداد قبحا وقال بعض العلماء لبنيه يا بنى تعلموا

العلم فان لم تنالوا به من الدنيا حظا فلأن يذم الزمان لكم احب الى من ان يذم الزمان بكم وقال بعض الادباء من لم يفد بالعلم مالا * كسب به جمالا *
وانشد بعض اهل الادب لابن طباطبا

* حسود مريض القلب يخفى انينه * ويضحى كئيب البال عندى حزينه *
* يلوم على ان رحت للعلم طالبا * اجمع من عند الرواة فنونه *
* فاعرف ابكار الكلام وعونه * واحفظ مما استفيد عيونه *
* ويزعم ان العلم لا يكسب الغنى * ويحسن بالجهل الذميم ظنونه *
* فيا لائمى دعنى اغالى بقيمتى * فقيمة كل الناس ما يحسنونه *

وانا استعيذ بالله من خدع الجهل المذله * وبوادر الحمق المضله * واسأله السعادة بعقل رادع يستقيم به من زل * وعلم نافع يستهدى به من ضل * فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اذا استرذل الله عبدا حظر عليه العلم فينبغى لمن زهد فى العلم ان يكون فيه راغبا * ولمن رغب فيه ان يكون له طالبا * ولمن طلبه ان يكون منه مستكثرا ولمن استكثر منه ان يكون به عاملا ولا يطلب لتركه احتجاجا ولا للتقصير فيه عذرا وقد قال الشاعر

* فلا تعذرانى فى الاساءة انه * شرار الرجال من يسئ فيعذر *

ولا يسوف نفسه بالمواعيد الكاذبة ويمنيها بانقطاع الاشغال المتصلة فان لكل وقت شغلا ولكل زمان عذرا وقال الشاعر

* نروح ونغدو لحاجاتنا * وحاجة من عاش لا تنقضى *
* تموت مع المرء حاجاته * وتبقى له حاجة ما بقى *

ويقصد طلب العلم واثقا بتيسير الله قاصدا وجه الله تعالى بنية خالصة وعزيمة صادقة فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من تعلم علما لغير الله واراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار وروى ابو هريرة رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال تعلموا العلم قبل ان يرفع ورفعه ذهاب اهله فان احدكم لا يدرى متى يحتاج اليه او متى يحتاج الى ما عنده وليحذر ان يطلبه لمراء او رياء فان الممارى به مهجور لا ينتفع * والمرائى به محقور لا يرتفع * وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لا تعلموا العلم لتماروا به السفهاء * ولا تعلموا

العلم لتجادلوا به العلماء * فمن فعل ذلك منكم فالنار مثواه وليس المماري به هو المناظر فيه طالبا للصواب منه ولكنه القاصد لدفع مايرد عليه من فاسد او صحيح وفيهم جاءت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لا يجادل الا منافق او مرتاب وقال الاوزاعى اذا اراد الله بقوم شرا اعطاهم الجدل * ومنعهم العمل * وانشد الرياشى لمصعب بن عبدالله

* اجادل كل معترض ظنين * واجعل دينه عرضا لديني *
* وترك ماعملت لرأى غيرى * وليس الرأى كالعلم اليقين *
* وما انا والخصومة وهى شئ * يصرف فى الشمال وفى اليمين *
* فاما ما علمت فقد كفانى * واما ما جهلت فجنبونى *

وقد بين ذلك بعض العلماء فقال لصاحبه لا يمنعك حذر المراء من حسن المناظرة فان الممارى هو الذى لايريد ان يتعلم منه احد ولا يرجو ان يتعلم من احد * واعلم * ان لكل مطلوب باعثا و الباعث على المطلوب شيئان رغبة او رهبة فليكن طالب العلم راغبا راهبا اما الرغبة ففى ثواب الله تعالى لطالبى مرضاته * وحافظى مفترضاته * و اما الرهبة فمن عقاب الله تعالى لتاركى اوامره * و مهملى زواجره * فاذا اجتمعت الرغبة و الرهبة اديا الى كنه العلم و حقيقة الزهد لان الرغبة اقوى الباعثين على العلم و الرهبة اقوى السببين فى الزهد وقد قالت الحكماء اصل العلم الرغبة و ثمرته السعاده * و اصل الزهد الرهبة و ثمرته العباده * فاذا اقترن الزهد و العلم فقد تمت السعادة و عمت الفضيلة و ان افترقا فيا ويح مفترقين ما اضر افتراقهما و اقبح انفرادهما و قد روى عن النبى صلى الله عليه و سلم انه قال من ازداد فى العلم رشدا * فلم يزدد فى الدنيا زهدا * لم يزدد من الله الا بعدا * و قال مالك بن دينار من لم يؤت من العلم مايقمعه * فما اوتى منه لا ينفعه * و قال بعض الحكماء الفقيه بغير ورع كالسراج يضئ البيت و يحرق نفسه * فصل *

واعلم ان للعلوم اوائل تؤدى الى اواخرها و مداخل تفضى الى حقائقها فليبتدئ طالب العلم باوائلها لينتهى الى اواخرها و بمداخلها لتفضى الى حقائقها ولا يطلب الآخر قبل الاول * ولا الحقيقة قبل المدخل * فلا

يدرك الآخر ولا يعرف الحقيقة لان البناء على غير اس لا يبنى * و الثمر من غير غرس لا يجنى * و لذلك اسباب فاسدة و دواعى واهية ﴿ فمنها ﴾ ان يكون فى النفس اغراض تختص بنوع من العلم فيدعو الغرض الى قصد ذلك النوع و يعدل عن مقدماته كرجل يؤثر القضاء و يتصدى للحكم فيقصد من علم الفقه ادب القاضى و ما يتعلق به من الدعوى و البينات او يحب الاتسام بالشهادة فيتعلم كتاب الشهادات فيصير موسوما بجهل ما يعانى فاذا ادرك ذلك ظن انه قد حاز من العلم جمهوره * وادرك منه مشهوره * و لم ير ما بقى منه الا غامضا طلبه عناء * و غويصا استخراجه فناء * لتصور همته على ما ادرك * و انصرافها عما ترك * ولو نصح نفسه لعلم ان ماترك اهم مما ادرك لان بعض العلم مرتبط ببعض و لكل باب منه تعلق بما قبله فلا تقوم الاواخر الا باوائلها و قد يصح قيام الاوائل بانفسها فيصير طلب الاواخر بترك الاوائل تركا للاوائل و الاواخر فاذا ليس يعرى من لوم و ان كان تارك الآخر الوم ﴿ و منها ﴾ ان يحب الاشتهار بالعلم اما لتكسب او لتجمل فيقصد من العلم ما اشتهر من مسائل الجدل و طريق النظر و يتعاطى علم ما اختلف فيه دون ما اتفق عليه ليناظر على الخلاف و هو لا يعرف الوفاق و يجادل الخصوم و هو لا يعرف مذهبا مخصوصا ولقد رأيت من هذه الطبقة عددا قد تحققوا بالعلم تحقق المتكلفين * واشتهروا به اشتهار المتبحرين * اذا اخذوا فى مناظرة الخصوم ظهر كلامهم * و اذا سئلوا عن واضح مذهبهم ضلت افهامهم * حتى انهم ليخبطون فى الجواب خبط عشواء فلا يظهر لهم صواب * و لا يتقرر لهم جواب * ولا يرون ذلك نقصا اذا نمقوا فى المجالس كلاما موصوفا * و لفقوا على المخالف جوابا مألوفا * وقد جهلوا من المذاهب ما يعلم المبتدى و يتداوله الناشى فهم دائما فى لغط مضل * او غلط مذل * و رأيت قوما منهم يرون الاشتغال بالمذاهب تكلفا * و الاستكثار منه تخلفا * وحاجنى بعضهم عليه فقال لان علم حافظ المذاهب مستور * وعلم المناظر عليه مشهور * فقلت فكيف يكون علم حافظ المذهب مستورا وهو سريع الجواب * كثير الصواب * فقال لانه ان لم يسأل سكت فلم يعرف و المناظر ان لم يسأل سائل يعرف فقلت

أليس

أليس اذا سئل الحافظ فاصاب بان فضله قال نعم قلت أفليس اذا سئل المناظر فاخطأ بان نقصه وقد قيل عند الامتحان * يكرم المرء او يهان * فامسك عن جوابى لانه ان انكر كابر المعقول ولو اعترف لزمته الحجة والامساك اذعان والسكوت رضى وان ينقاد الى الحق اولى من ان يستفزه الباطل وهذه طريقة من يقول اعرفونى وهو غير عروف ولامعروف وبعيد ممن لايعرف العلم ان يعرفه وقد قال زهير

* ومهما تكن عند امرئ من خليقة * وان خالها تخفى على الناس تعلم *

ومن اسباب التقصير ايضا ان يغفل عن التعلم فى الصغر * ثم يشتغل به فى الكبر * فيستحيى ان يبتدئ بمايبتدئ الصغير * ويستنكف ان يساويه الحدث الغرير * فيبدأ باواخر العلوم واطرافها * و يهتم بحواشيها واكنافها * ليتقدم على الصغير المبتدى * ويساوى الكبير المنتهى * و هذا ممن رضى بخداع نفسه * و قنع بمداهنة حسه * لان معقوله ان احس و معقول كل ذى حس يشهد بفساد هذا التصور و ينطق باختلال هذا التخيل لانه شئ لا يقوم فى وهم وبجهل مايبتدئ به المتعلم اقبح من جهل ما ينتهى اليه العالم و قد قال الشاعر

* ترق الى صغير الامر حتى * يرقيك الصغير الى الكبير *
* فتعرف بالتفكر فى صغير * كبيرا بعد معرفة الصغير *

و لهذا المعنى و اشباهه كان التعلم فى الصغر احمد روى مروان بن سالم عن اسمعيل بن ابى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم مثل الذى يتعلم فى صغره كالنقش على الحجر و الذى يتعلم فى كبره كالذى يكتب على الماء وقال على بن ابى طالب كرم الله وجهه قلب الحدث كالاراضى الخالية ما القى فيها من شئ قبلته و انما كان كذلك لان الصغير افرغ قلبا و اقل شغلا و ايسر تبذلا و اكثر تواضعا و قد قيل فى منثور الحكم المتواضع من طلاب العلم اكثرهم علما كما ان المكان المنخفض اكثر البقاع ماء فاما ان يكون الصغير اضبط من الكبير اذا عرى من هذه الموانع واوعى منه اذا خلا من هذه القواطع فلا * حكى ان الاحنف بن قيس سمع رجلا يقول التعليم فى الصغر

كالنقش على الحجر فقال الاحنف الكبير اكثر عقلا و لكنه اشغل قلبا
و لعمرى لقد لخص الاحنف عن المعنى و نبه على العلة لان قواطع الكبير كثيرة
﴿ فمنها ﴾ ما ذكرنا من الاستحياء و قد قيل فى منثور الحكم من رق
وجهه رق علمه و قال الخليل بن احمد يرتع الجهل بين الحياء و الكبر فى العلم
﴿ ومنها ﴾ وفور شهواته و تقسم افكاره و قال الشاعر

* صرف الهوى عن ذى الهوى عزيز * ان الهوى ليس له تمييز *

وقال بعض البلغاء ان القلب اذا علق كالرهن اذا غلق ﴿ ومنها ﴾ الطوارق
المزعجة و الهموم المذهلة وقد قيل فى منثور الحكم الهم قيد الحواس وقال
بعض البلغاء من بلغ اشده * لاقى من العيش اشده * ﴿ ومنها ﴾ كثرة اشتغاله
وترادف حالاته حتى انها تستوعب زمانه وتستنفد ايامه فاذا كان ذا رئاسة الهته *
وان كان ذا معيشة قطعته * ولذلك قيل تفقهوا قبل ان تسودوا وقال بزرجمهر
الشغل مجهده * و الفراغ مفسده * فينبغى لطالب العلم ان لا ينى فى
طلبه وينتهز الفرصة به فربما شح الزمان بما سمح * وضن بما منح * ويبتدئ من العلم
باوله ويأتيه من مدخله ولا يتشاغل بطلب ما لا يضر جهله فيمنعه ذلك من ادراك
ما لا يسعه جهله فان لكل علم فصولا مذهله * وشذورا مشغله * ان
صرف اليها نفسه قطعته عما هو اهم منها وقال ابن عباس رضى الله عنهما
العلم اكثر من ان يحصى فخذوا من كل شئ احسنه وقال المأمون ما لم
يكن العلم بارعا فبطون الصحف اولى به من قلوب الرجال و قال بعض
الحكماء بترك ما لا يعنيك تدرك ما يغنيك ولا ينبغى ان يدعوه ذلك الى ترك
ما استصعب عليه اشعارا لنفسه ان ذلك من فضول علمه واعذارا لها فى ترك
الاشتغال به فان ذلك مطية النوكى وعذر المقصرين ومن اخذ من العلم ما تسهل
وترك منه ما تعذر كان كالقناص اذا امتنع عليه الصيد تركه فلا يرجع الا خائبا
اذ ليس يرى الصيد الا ممتنعا كذلك العلم كله صعب على من جهله سهل
على من علمه لان معانيه التى يتوصل اليها مستودعة فى كلام مترجم عنها
وكل كلام مستعمل فهو يجمع لفظا مسموعا ومعنى مفهوما فاللفظ كلام
يعقل بالسمع والمعنى تحت اللفظ يفهم بالقلب وقد قال بعض الحكماء العلوم

مطالعها

مطالعها من ثلاثة اوجه قلب مفكر ولسان معبر وبيان مصور فاذا عقل الكلام بسمعه فهم معانيه بقلبه واذا فهم المعانى سقط عنه كلفة استخراجها وبقى عليه معاناة حفظها واستقرارها لان المعانى شوارد تضل بالاغفال * و العلوم وحشية تنفر بالارسال * فاذا حفظها بعد الفهم انست * و اذا ذكرها بعد الانس رست * وقال بعض العلماء من اكثر المذاكرة بالعلم لم ينس ما علم واستفاد مالم يعلم وقال الشاعر

* اذا لم يذاكر ذو العلوم بعلمه * و لم يستفد علما نسى ما تعلما *
* فكم جامع للكتب فى كل مذهب * يزيد مع الايام فى جمعه عمى *

و ان لم يفهم معانى ما سمع كشف عن السبب المانع منها ليعلم العلة فى تعذر فهمها فان بمعرفة اسباب الاشياء و عللها يصل الى تلافى ما شذ و صلاح ما فسد و ليس يخلو السبب المانع من ذلك من ثلاثة اقسام اما ان يكون لعلة فى الكلام المترجم عنها واما ان يكون لعلة فى المعنى المستودع فيها واما ان يكون لعلة فى السامع المستخرج فان كان السبب المانع من فهمها لعلة فى الكلام المترجم عنها لم يخل ذلك من ثلاثة احوال ❊ احدها ❊ ان يكون لتقصير اللفظ عن المعنى فيصير تقصير اللفظ عن ذلك المعنى سببا مانعا من فهم ذلك المعنى و هذا يكون من احد وجهين اما من حصر المتكلم وعيه واما من بلادته و قلة فهمه ❊ الحال الثانى ❊ ان يكون لزيادة اللفظ على المعنى فتصير الزيادة علة مانعة من فهم المقصود منه و هذا قد يكون من احد وجهين اما من هذر المتكلم و اكثاره و اما لسوء ظنه بفهم سامعه ❊ و الحال الثالث ❊ ان يكون لمواضعة يقصدها المتكلم بكلامه فاذا لم يعرفها السامع لم يفهم معانيها و اما تقصير اللفظ وزيادته فمن الاسباب الخاصة دون العامة لانك لست تجد ذلك عاما فى كل الكلام و انما تجده فى بعضه فان عدلت عن الكلام المقصر الى الكلام المستوفى وعن الزائد الى الكافى ارحت نفسك من تكلف ما يكد خاطرك وان اقت على استخراجه اما لضرورة دعتك اليه عند اعواز غيره او لحمية داخلتك عند تعذر فهمه فانظر فى سبب الزيادة والتقصير فان كان التقصير لحصر والزيادة لهذر سهل عليك استخراج المعنى منه لان ماله من الكلام محصول لا يجوز ان يكون المختل

منه اكثر من الصحيح و فى الاكثر على الاقل دليل و ان كانت زيادة اللفظ على المعنى دليلا لسوء ظن المتكلم بفهم السامع كان استخراجه اسهل وان كان تقصير اللفظ عن المعنى لسوء فهم المتكلم فهو اصعب الامور حالا و ابعدها استخراجا لان ما لم يفهمه مكلمك فانت من فهمه ابعد الا ان يكون بفرط ذكائك وجودة خاطرك تتنبه باشارته على استنباط ما عجز عنه و استخراج ما قصر فيه فتكون فضيلة الاستيفاء لك و حق التقدم له و اما المواضعة فضربان عامة و خاصة اما العامة فهى مواضعة العلماء فيما جعلوه القابا لمعان لا يستغنى المتعلم عنها ولا يقف على معنى كلامهم الا بها كما جعل المتكلمون الجواهر والاعراض و الاجسام القابا تواضعوها لمعان اتفقوا عليها ولست تجد من العلوم علما يخلو من هذا و هذه المواضعة العامة تسمى عرفا و اما الخاصة فمواضعة الواحد يقصد بباطن كلامه غير ظاهره فاذا كانت فى الكلام كانت رمزا * و ان كانت فى الشعر كانت لغزا * فاما الرمز فلست تجده فى علم معنوى * ولا فى كلام لغوى * و انما يختص غالبا باحد شيئين اما بمذهب شنيع يخفيه معتقده و يجعل الرمز سببا لتطلع النفوس اليه و احتمال التأويل فيه سببا لدفع التهمة عنه و اما لما يدعى اربابه انه علم معوز * و ان ادراكه بديع معجز * كالصنعة التى وضعها اربابها اسما لعلم الكيمياء فرمزوا باوصافه و اخفوا معانيه ليوهموا الشح به و الاسف عليه خديعة للعقول الواهية و الآراء الفاسدة وقد قال الشاعر

* منعت شيئا فاكثرت الولوع به * احب شئ الى الانسان ما منعا *

ثم ليكونوا براء من عهدة ما قالوه اذا جرب و لو كان ما تضمن هذين النوعين و اشباههما من الرموز معنى صحيحا وعلما مستفادا لخرج من الرمز الخفى الى العلم الجلى فان اغراض الناس مع اختلاف اهوائهم لا تتفق على ستر سليم و اخفاء مفيد وقد قال زهير

* الستر دون الفاحشات ولا * يلقاك دون الخير من ستر *

و ربما استعمل الرمز من الكلام فيما يراد تفخيمه من المعانى و تعظيمه من الالفاظ ليكون احلى فى القلوب موقعا * و اجل فى النفوس موضعا * فيصير بالرمز

سائرا

سائرا وفى الصحف مخلدا كالذى حكى عن فيثاغورس فى وصاياه المرموزة انه قال احفظ ميزانك من البذى و اوزانك من الصدى يريد بحفظ اللسان الميزان من البذى حفظ اللسان من الخنا و حفظ الاوزان من الصدى حفظ العقل من الهوى فصار بهذا الرمز مستحسنا و مدونا ولو قاله باللفظ الصريح * والمعنى الصحيح * لما سار عنه * ولا استحسن منه * وعلة ذلك ان المحجوب عن الافهام كالمحجوب عن الابصار فيما يحصل له فى النفوس من التعظيم * و فى القلوب من التفخيم * وما ظهر منهما ولم يحتجب هان و استرذل و هذا انما يصح استحلاؤه فيما قل وهو باللفظ الصريح مستقل فاما العلوم المنتشرة التى تتطلع النفوس اليها فقد استغنت بقوة الباعث عليها * وشدة الداعى اليها * عن الاستدعاء اليها برمز مستحلى و لفظ مستغرب بل ذلك منفر عنها لما فى التشاغل باستخراج رموزها من الابطاء عن دركها فهذا حال الرمز و اما اللغز فهو تحرى اهل الفراغ وشغل ذوى البطالة ليتنافسوا فى تباين قرائحهم و يتفاخروا فى سرعة خواطرهم فيستكدوا خواطرا قد منحوا صحتها فيما لا يجدى نفعا ولا يفيد علما كاهل الصراع الذين قد صرفوا ما منحوه من صحة اجسامهم الى صراع كدود يصرع عقولهم و يهد اجسامهم ولا يكسبهم حمدا ولا يجدى عليهم نفعا انظر الى قول الشاعر

* رجل مات و خلف رجلا * ابن ام ابن ابى اخت ابيه *
* معه ام بنى اولاده * وابا اخت بنى عم اخيه *

اخبرنى عن هذين البيتين وقد روعك صعوبة ما تضمنهما من السؤال اذا استكديت الفكر فى استخراجه فعلمت انه اراد ميتا خلف ابا وزوجة وعما ما الذى افادك من العلم ونفى عنك من الجهل ألست بعد علمه تجهل ما كنت جاهلا من قبله ولو ان السائل قلب لك السؤال فاخر ما قدم وقدم ما اخر لكنت فى الجهل به قبل استخراجه كما كنت فى الجهل الاول وقد كددت نفسك واتعبت خاطرك ثم لا تعدم ان يرد عليك مثل هذا مما تجهله فتكون فيه كما كنت قبله فاصرف نفسك تولى الله رشدك عن علوم النوكى وتكلف البطالين فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه ثم اجعل ما من الله به عليك من صحة القريحة وسرعة الخاطر مصروفا الى علم

ما يكون انفاق خاطرك فيه مذخورا * وكد فكرك فيه مشكورا * وقد روى سعيد بن ابى هند عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ ونحن نستعيذ بالله من ان نغبن بفضل نعمة، علينا ونجهل نفع احسانه الينا وقد قيل فى منثور الحكم من الفراغ تكون الصبوة وقال بعض البلغاء من امضى يومه فى غير حق قضاه * او فرض اداه * او مجد اثله * او حمد حصله * او خير اسسه * او علم اقتبسه * فقد عق يومه وظلم نفسه وقال بعض الشعراء

* لقد اهاج الفراغ عليك شغلا * واسباب البلاء من الفراغ *

فهذا تعليل ما فى الكلام من الاسباب المانعة من فهم معانيه حتى خرج بنا الاستيفاء والكشف الى الاغماض واما القسم الثانى وهو ان يكون السبب المانع من فهم السامع لعلة فى المعنى المستودع فلا يخلو حال المعنى من ثلاثة اقسام اما ان يكون مستقلا بنفسه او يكون مقدمة لغيره او يكون نتيجة من غيره فاما المستقل بنفسه فضربان جلى وخفى فاما الجلى فهو يسبق الى فهم متصوره من اول وهلة وليس هو من اقسام ما يشكل على من تصوره واما الخفى فيحتاج فى ادراكه الى زيادة تأمل وفضل معاناة لينجلى عما اخفى وينكشف عما اغمض وباستعمال الفكر فيه يكون الارتياض به وبالارتياض به يسهل منه ما استصعب ويقرب منه ما بعد فان للرياضة جراءة وللدراية تأثيرا واما ما كان مقدمة لغيره فضربان احدهما ان تقوم المقدمة بنفسها وان تعدت الى غيرها فتكون كالمستقل بنفسه فى تصوره وفهمه مستدعيا لنتيجته والثانى ان يكون مفتقرا الى نتيجته فيتعذر فهم المقدمة الا بما يتبعها من النتيجة لانها تكون بعضا وتبعيض المعنى اشكل له وبعضه لا يغنى عن كله واما ما كان نتيجة لغيره فهو لا يدرك الا باوله ولا يتصور على حقيقته الا بمقدمته والاشتغال به قبل المقدمة عناء * واتعاب الفكر فى استنباطه قبل قاعدته اذاء * فهذا يوضح تعليل ما فى المعانى من الاسباب المانعة من فهمها واما القسم الثالث وهو ان يكون السبب المانع لعلة فى المستمع فذلك ضربان احدهما من ذاته والثانى من طار عليه فاما ما كان من ذاته فيتنوع نوعين احدهما ما كان مانعا من تصور المعنى والثانى ما كان

مانعا من حفظه بعد تصوره وفهمه فاما ما كان مانعا من تصور المعنى وفهمه فهو البلادة وقلة الفطنة وهو الداء العياء وقد قال بعض الحكماء اذا فقد العالم الذهن قل على الاضداد احتجاجه * وكثر الى الكتب احتياجه * وليس لمن بلى به الا الصبر والاقلال لانه على التقليل اقدر * وبالصبر احرى ان ينال ويظفر * وقد قال بعض الحكماء قدم لحاجتك بعض لجاجتك وليس يقدر على الصبر من هذا حاله الا ان يكون غالب الشهوة بعيد الهمة فيشعر قلبه الصبر لقوة شهوته وجده احتمال التعب لبعد همته فاذا تلوح له المعنى بمساعدة الشهوة اعتبر ذلك الحاح الآملين ونشاط المدركين فقل عنده كل كثير * وسهل عليه كل عسير * وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لا تنالون ما تحبون الا بالصبر على ما تكرهون * ولا تبلغون ما تهوون الا بترك ما تشتهون * وقيل فى منثور الحكم اتعب قدمك * فان تعب قدمك * وقال بعض البلغاء اذا اشتد الكلف * هانت الكلف * وانشد بعض اهل الادب لعلى بن ابى طالب كرم الله وجهه

* لا تعجزن ولا يدخلك منضجرة * فالنجح يهلك بين العجز والضجر *

واما المانع من حفظه بعد تصوره وفهمه فهو النسيان الحادث عن غفلة التقصير واهمال التوانى فينبغى لمن بلى به ان يستدرك تقصيره بكثرة الدرس ويوقظ غفلته بادامة النظر فقد قيل لا يدرك العلم من لا يطيل درسه * ويكد نفسه * وكثرة الدرس كدود لا يصبر عليه الا من يرى العلم مغنما * والجهالة مغرما * فيحتمل تعب الدرس ليدرك راحة العلم وينفى عنه معرة الجهل فان نيل العظيم بامر عظيم وعلى قدر الرغبة تكون المطالب وبحسب الراحة يكون التعب وقد قيل طلب الراحة قلة الاستراحة وقال بعض الحكماء اكمل الراحة ما كانت عن كد التعب * واعز العلم ما كان عن ذل الطلب * وربما استثقل المتعلم الدرس والحفظ واتكل بعد فهم المعانى على الرجوع الى الكتب والمطالعة فيها عند الحاجة فلا يكون الا كمن اطلق ما صاده ثقة بالقدرة عليه بعد الامتناع منه فلا تعقبه الثقة الا خجلا والتفريط الا ندما وهذه حال قد يدعو اليها احد ثلاثة اشياء اما الضجر من معاناة الحفظ ومراعاته وطول الامل فى التوفر عليه

عليه عند نشاطه وفساد الرأى فى عزيمته وليس يعلم ان الضجور خائب وان الطويل الامل مغرور وان الفاسد الرأى مصاب والعرب تقول فى امثالها حرف فى قلبك * خير من الف فى كتبك * وقالوا لا خير فى علم لا يعبر معك الوادى * ولا يعمر بك النادى * وانشدت عن الربيع للشافعى رضى الله عنه

* علمى معى حيث ما يممت ينفعنى * قلبى وعاء له لا بطن صندوق *
* ان كنت فى البيت كان العلم فيه معى * او كنت فى السوق كان العلم فى السوق *

وربما اعتنى المتعلم بالحفظ من غير تصور ولا فهم حتى يصير حافظا لالفاظ المعانى قيما بتلاوتها وهو لا يتصورها ولا يفهم ما تضمنها يروى بغير روية ويخبر عن غير خبرة فهو كالكتاب الذى لا يدفع شبهة ولا يؤيد حجة وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال همة السفهاء الروايه * وهمة العلماء الرعايه * وقال ابن مسعود رضى الله عنه كونوا للعلم رعاه * ولا تكونوا له رواه * فقد يرعوى من لا يروى * ويروى من لا يرعوى * وحدث الحسن البصرى بحديث فقال له رجل يا ابا سعيد عمن قال ما تصنع بعمن اما انت فقد نالتك عظته * وقامت عليك حجته * وربما اعتمد على حفظه وتصوره واغفل تقييد العلم فى كتبه ثقة بما استقر فى ذهنه وهذا خطاء منه لان الشكل معترض والنسيان طارق وقد روى انس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال قيدوا العلم بالكتاب وروى ان رجلا شكى الى النبى صلى الله عليه وسلم النسيان فقال له استعمل يدك اى اكتب حتى ترجع اذا نسيت الى ما كتبت وقال الخليل بن احمد اجعل ما فى الكتب رأس المال وما فى القلب النفقة وقال مهبود لولا ما عقدته الكتب من تجارب الاولين * لانحل مع النسيان عقود الآخرين * وقال بعض البلغاء ان هذه الآداب نوافر تند عن عقل الاذهان فاجعلوا الكتب عنها حماه * والاقلام لها رعاه * واما الطوارى فنوعان احدهما شبهة تعترض المعنى فتمنع عن نفس تصوره وتدفع عن ادراك حقيقته فينبغى ان يزيل تلك الشبهة عن نفسه بالسؤال والنظر ليصل الى تصور المعنى و ادراك حقيقته ولذلك قال بعض العلماء لا تخل قلبك من المذاكرة فيعود عقيما * ولا تعف طبعك من المناظرة فيعود سقيما * وقال بشار بن برد

* شفاء العمى طول السؤال وانما * دوام العمى طول السكوت على الجهل *
* فكن سائلا عما عناك فانما * دعيت اخا عقل لتبحث بالعقل *
و الثانى افكار تعارض الخاطر فيذهل عن تصور المعنى و هذا سبب قل ما يعرى منه احد لا سيما فيمن انبسطت آماله و اتسعت امانيه و قد يقل فيمن لم يكن له فى غير العلم ارب ولا فيما سواه همة فان طرأت على الانسان لم يقدر على مكابرة نفسه على الفهم و غلبة قلبه على التصور لان القلب مع الاكراه اشد نفورا و ابعد قبولا و قد جاء الاثر بان القلب اذا اكره عمى و لكن يعمل فى دفع ما طرأ عليه من هم مذهل او فكر قاطع ليستجيب له القلب مطيعا وقد قال الشاعر
* و ليس بمغن فى المودة شافع * اذا لم يكن بين الضلوع شفيع *
وقال بعض الحكماء ان لهذه القلوب تنافر كتنافر الوحش فألفوها بالاقتصاد فى التعليم والتوسط فى التقديم لتحسن طاعتها و يدوم نشاطها فهذا تعليل ما فى المستمع من الاسباب المانعة من فهم المعانى وهاهنا قسم رابع يمنع من معرفة الكلام وفهم معانيه ولكنه قد يعرى من بعض الكلام فلذلك لم يدخل فى جملة اقسامه ولم نستجز الاخلال بذكره لان من الكلام ما كان مسموعا لا يحتاج فى فهمه الى تامل الخط به والمانع من فهمه هو على ما ذكرنا من اقسامه ومنه ما كان مستودعا بالخط محفوظا بالكتابة مأخوذا بالاستخراج فكان الخط حافظا له ومعبرا عنه وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى واثارة من العلم قال يعنى الخط وروى عن مجاهد فى قوله تعالى يؤتى الحكمة من يشاء يعنى الخط ومن يؤتى الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا يعنى الخط والعرب تقول الخط احد اللسانين وحسنه احد الفصاحتين وقال جعفر بن يحيى الخط سمط الحكمة به يفصل شذورها * وينظم منثورها * وقال ابن المقفع اللسان مقصور على القريب الحاضر والقلم على الشاهد والغائب وهو للغابر الكائن مثله للقائم الدائم وقال حكيم الروم الخط هندسة روحانيه * وان ظهرت بآلة جسمانيه * وقال حكيم العرب الخط اصل فى الروح وان ظهر بحواس الجسد واختلف فى اول من كتب الخط فذكر كعب الاحبار ان اول من كتب آدم عليه السلام كتب سائر الكتب قبل موته بثلاثمائة سنة فى طين ثم طبخه فلما غرقت الارض فى ايام نوح على نبينا

وعليه السلام بقيت الكتابة فاصاب كل قوم كتابهم و بقى الكتاب العربى الى ان خص الله تعالى به اسمعيل فاصابه وتعلمها وحكى ابن قتيبة ان اول من كتب ادريس على نبينا وعليه السلام وكانت العرب تعظم قدر الخط وتعده من اجل نافع حتى قال عكرمة بلغ فداء اهل بدر اربعة آلاف حتى ان الرجل ليفادى على انه يعلم الخط لما هو مستقر فى نفوسهم من عظم خطره وجلالة قدره وظهور نفعه واثره وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم فوصف نفسه بالكرم واعد ذلك من نعمه العظام * ومن آياته الجسام * حتى اقسم به فى كتابه فقال سبحانه وتعالى نون والقلم وما يسطرون فاقسم بالقلم وما يخط بالقلم واختلف فى اول من كتب بالعربية فذكر كعب الاحبار ان اول من كتب به آدم عليه السلام ثم وجدها بعد الطوفان اسمعيل على نبينا وعليه السلام وحكى ابن عباس رضى الله عنه ان اول من كتب بها ووضعها اسمعيل عليه السلام على لفظه ومنطقه وحكى عروة بن الزبير رضى الله عنه ان اول من كتب بها قوم من الاوائل اسماؤهم ابجد وهوز وحطى وكلمن وسعفص وقرشت وكانوا ملوك مدين وحكى ابن قتيبة فى المعارف ان اول من كتب بالعربى مرار بن مرة من اهل الانبار ومن الانبار انتشرت وحكى المدائنى ان اول من كتب بها مرار بن مرة واسلم بن سدرة وعامر بن حدرة فمرار وضع الصور واسلم فصل ووصل وعامر وضع الاعجام ولما كان الخط بهذا الحال وجب على من اراد حفظ العلم ان يبدأ بامرين احدهما تقويم الحروف على اشكالها الموضوعة لها و الثانى ضبط ما اشتبه منها بالنقط و الاشكال المميزة لها ثم ما زاد على هذين من تحسين الخط وملاحة نظمه فانما هو زيادة حذق بصنعته وليس بشرط فى صحته وقد قال على بن عبيدة حسن الخط لسان اليد و بهجة الضمير و قال ابو العباس المبرد رداءة الخط زمانة الادب و قال عبد الحميد البيان فى اللسان والخط فى البنان و انشدنى بعض اهل العلم لاحد شعراء البصرة

* اعذر اخاك على نزالة خطه * و اغفر نزالته لجودة ضبطه *
* فاذا ابان عن المعانى لم يكن * تحسينه الا زيادة شرطه *

واعلم

* واعلم بان الخط ليس يراد من * تركيبه الا تبين سمطه *
ومحل ما زاد على الخط المفهوم من تصحيح الحروف وحسن الصورة محل ما زاد على الكلام المفهوم من فصاحة الالفاظ وصحة الاعراب ولذلك قالت العرب حسن الخط احد الفصاحتين وكما انه لا يعذر من اراد التقدم فى الكلام ان يطرح الفصاحة والاعراب وان فهم وافهم كذلك لا يعذر من اراد التقدم فى الخط ان يطرح تصحيح الحروف وتحسين الصورة وان فهم وافهم وربما تقدم بالخط من كان الخط من جل فضائله * واشرف خصائله * حتى صار عالما مشهورا * وسيدا مذكورا * غير ان العلماء اطرحوا صرف الهمة الى تحسين الخط لانه يشغلهم عن العلم ويقطعهم عن التوفر عليه ولذلك تجد خطوط العلماء فى الاغلب رديئة لا يخط الا من اسعده القضاء وقد قال الفضل بن سهل من سعادة المرء ان يكون رديء الخط لان الزمان الذى يفنيه بالكتابة يشغله بالحفظ والنظر وليست رداءة الخط هى السعادة وانما السعادة ان لا يكون له صارف عن العلم وعادة ذى الخط الحسن ان يتشاغل بتحسين خطه عن العلم فمن هذا الوجه صار برداءة خطه سعيدا وان لم تكن رداءة الخط سعادة واذا كان ذلك كذلك فقد يعرض للخط اسباب تمنع من قراءته ومعرفته كما يعرض للكلام اسباب تمنع من فهمه وصحته والاسباب المانعة من قراءة الخط وفهم ما تضمنه قد تكون من ثمانية اوجه
﴿ احدها ﴾ اسقاط الفاظ من اثناء الكلام يصير الباقى بها مبتورا لا يعرف استخراجه ولا يفهم معناه وهذا يكون اما من سهو الكاتب او من فساد نقله وهذا يسهل استنباطه على من كان مرتاضا بذلك النوع فيستدل بحواشى الكلام وما سلم منه على ما سقط او فسد لا سيما اذا قل لان الكلمة تستدعى ما يليها ومعرفة المعنى توضح عن الكلام المترجم عنه فاما من كان قليل الارتياض بذلك النوع فانه يصعب عليه استنباط المعنى منه لا سيما اذا كان كثيرا لانه يحتاج فى فهم المعانى الى الفكرة والروية فيما قد استخرجه بالكتابة فاذا هو لم يعرف تمام الكلام المترجم عن المعنى قصر فهمه عن ادراكه وضل فكره عن استنباطه
﴿ والوجه الثانى ﴾ زيادة الفاظ فى اثناء الكلام يشكل بها معرفة الصحيح غير الزائد من معرفة السقيم الزائد فيصير الكل مشكلا وهذا لا يكاد يوجد كثيرا

الان يقصد الكاتب تعمية كلامه فيدخل فى اثنائه ما يمنع من فهمه فيصير ذلك رمزا يعرف بالمواضعة فاما وقوعه سهوا فقد يكون بالكلمة والكلمتين وذلك لا يمنع من فهمه على المرتاض وغيره ﴿ والوجه الثالث ﴾ اسقاط حروف من اثناء الكلمة يمنع من استخراجها على الصحة وقد يكون هذا تارة من السهو فيقل وتارة من ضعف الهجاء فيكثر والقول فيه كالقول فى الوجه الاول ﴿ والوجه الرابع ﴾ زيادة حروف فى اثناء الكلمة يشكل بها معرفة الصحيح من حروفها وهذا يكون تارة من سهو الكاتب فيقل فلا يمنع من استخراج الصحيح ويكون تارة لتعمية ومواضعة يقصد بها الكاتب اخفاء غرضه فيكثر كالتراجم ويكون القول فيه كالقول فى الوجه الثانى ﴿ والوجه الخامس ﴾ وصل الحروف المفصولة وفصل الحروف الموصولة فيدعو ذلك الى الاشكال لان الكلمة ينبه عليها وصل حروفها ويمنع فصلها من مشاركة غيرها فان كان ذلك من سهو قل فسهل استخراجه وان كان ذلك من قلة معرفة بالخط او مشقا تشبق به اليد كثيرا فصعب استخراجه الا على المرتاض به ولذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه شر الكتابة الشبق كما ان شر القراءة الهدرمة وان كان للتعمية والرمز لم يعرف الا بالمواضعة ﴿ والوجه السادس ﴾ تغيير الحروف عن اشكالها وابدالها باغيارها حتى يكتب الحاء على شكل الباء والصاد على شكل الراء وهذا يكون فى رموز التراجم ولا يوقف عليه الا بالمواضعة الا لمن قد زاد فيه الذكاء فقدر على استخراج المعنى ﴿ والوجه السابع ﴾ ضعف الخط عن تقويم الحروف على الاشكال الصحيحة واثباتها على الاوصاف الحقيقية حتى لا تكاد الحروف تمتاز عن اغيارها حتى تصير العين الموصولة كالفاء والمفصولة كالحاء وهذا يكون من رداءة الخط وضعف اليد واستخراج ذلك ممكن بفضل المعاناة وشدة التأمل وربما اضجر قاريه * واوهى معانيه * ولذلك قيل ان الخط الحسن ليزيد الحق وضوحا ﴿ والوجه الثامن ﴾ اغفال النقط والاشكال التى تتميز بها الحروف المشتبهة وهذا ايسر امرا واخف حالا لان من كان مميزا بصحة الاستخراج ومعرفة الخط لم تخف عليه معرفة الخط وفهم ما تضمنه مع اغفال النقط والاشكال بل استقبح الكتاب ذلك فى المكاتبات ورأوه من تقصير

الكاتب اوسوء ظنه بفهم المكاتب و ان كان استقباحهم له فى مكاتبة الرؤساء اكثر حكى قدامة بن جعفر ان بعض كتاب الدواوين حاسب عاملا فشكى العامل منه الى عبيد الله بن سليمان وكتب رقعة يذكر فيها احتجاجا لصحة دعواه * و وضوح شكواه * فوقع فيها عبيد الله بن سليمان هذا هذا فاخذها العامل و قرأها فظن ان عبيد الله اراد بهذا هذا اثباتا لصحة دعواه وصدق قوله كما يقال فى اثبات الشئ هو هو فحمل الرقعة الى كاتب الديوان و اراه خط عبيد الله و قال له ان عبيد الله قد صدق قولى و صحح ما ذكرت فخفى على الكاتب ذلك و اطيف به على كتاب الدواوين فلم يقفوا على مراد عبيد الله ورد اليه ليسأل عن مراده به فشدد عبيد الله الكلمة الثانية وكتب تحتها و الله المستعان استعظاما منه لتقصيرهم فى استخراج مراده حتى احتاج الى ابانة بالشكل فهذه حال الكتاب فى استقباحهم اعجام المكاتبات بالنقط و الاشكال فاما غير المكاتبات من سائر العلوم فلم يروه قبيحا بل استحسنوه لا سيما فى كتب الادب التى يقصد بها معرفة صيغة الالفاظ وكيفية مخارجها مثل كتب النحو و اللغة و الشعر الغريب فان الحاجة الى ضبطها بالشكل و الاعجام اكثر * وهى فيما سواه من العلوم ايسر * و قد قال الثورى الخطوط المعجمه * كالبرود المعلمه * و قال بعض البلغاء اعجام الخط يمنع من استعجامه وشكله يؤمن من اشكاله و قال بعض الادباء رب علم لم تعجم فصوله * فاستعجم محصوله * وكما استقبح الكتاب الشكل و الاعجام فى المكاتبات وان كان فى كتب العلوم مستحسنا فكذلك استحسنوا مشق الخط فى المكاتبات و ان كان فى كتب العلوم مستقبحا و سبب ذلك انهم لفرط ادلالهم فى الصنعة و تقدمهم فى الكتابة يكتفون بالاشارة و يقتصرون على التلويح ويرون الحاجة الى استيفاء شروط الابانة تقصيرا ولفضل ما يعتقدونه من التقدم بهذا الحال رأوا ما نبه عليه من سواد المداد اثرا جميلا * وعلى الفضل والتخصيص دليلا * حكى ان عبيدالله بن سليمان رأى على بعض ثيابه اثر صفرة فاخذ من مداد الدواة فطلاه به ثم قال المداد بنا احسن من الزعفران و انشد

* انما الزعفران عطر العذارى * و مداد الدوىّ عطر الرجال *

فهذه جملة كافية فى الابانة على الاسباب المانعة من فهم الكلام و معرفة

معانيه لفظا كان او خطا والله ولى التوفيق فينبغى لطالب العلم ان يكشف
عن الاسباب المانعة عن فهم المعنى ليسهل عليه الوصول اليه ثم يكون من بعد
ذلك سائسا لنفسه مدبرا لهسا فى حال تعلمه فان للنفس نفورا يفضى الى تقصير
ووفورا يؤول الى سرف وقيادها عسر ولها احوال ثلاث حال عدل وانصاف*
و حال غلو و اسراف * وحال تقصير واجحاف * فاما حال العدل و الانصاف
فهى ان تختلف قوى النفس من جهتين متقابلتين طاعة مسعدة و شفقة كافة
فطاعتها تمنع التقصير * و شفقتها ترد عن السرف و التبذير * و هذه احمد
الاحوال لان ما منع من التقصيد نما وما صد عن السرف مستديم و النمو اذا
استدام فاخلق به ان يستكمل و قال بعض الحكماء اياك و مفارقة الاعتدال فان
المسرف مثل المقصر فى الخروج عن الحد و اما حال الغلو و الاسراف فهى
ان تختص النفس بقوى الطاعة وتقدم قوى الشفقة فيبعثها اختصاص الطاعة
على افراغ الجهد و يفضى افراغ الجهد الى عجز الكلال فيؤدى عجز
الكلال * الى الترك و الاهمال * فتصير الزيادة نقصانا * و الربح خسرانا *
و قد قالت الحكماء طالب العلم وعامل البر كآكل الطعام ان اخذ منه
قوتا عصمه * و ان اسرف فيه ابشمه * و ربما كان فيه منيته كاخذ الادوية
التى فيها شفاء و مجاوزة القصد فيها السم المميت * و اما حال التقصير
و الاجحاف فهى ان تختص النفس بقوى الشفقة و تعدم قوى الطاعة
فيدعوها الاشفاق الى المعصية و تمنعها المعصية من الاجابة فلا تطلب شاردا *
و لا تقبل عائدا * و لا تحفظ مستودعا و من لم يطلب الشارد * و يقبل
العائد * و يحفظ المستودع فقد الموجود * ولم يجد المفقود * و من فقد
ما وجد فهو مصاب محزون * و من لم يجد ما فقد فهو خائب مغبون * و قد
قال بعض الحكماء العجز مع الوانى * و الفوت مع التوانى * وقد يكون للنفس مع
الاحوال الثلاث حالتان مشتركتان بغلبة احدى القوتين فيكون للنفس طاعة
واشفاق واحدهما اغلب من الآخر فان كانت الطاعة اغلب كانت الى
الوفور اميل وان كان الاشفاق اغلب كانت الى التقصير اقرب فاذا عرف من

نفسه

نفسه قدر طاعتها وخير منها كنه اشفاقها راض نفسه لتثبت على احد حالاتها وقد اشار الى ما وصفنا من حال النفس الفرزدق فى قوله

* لكل امرء نفسان نفس كريمة * واخرى يعاصيها الفتى ويطيعها *
* ونفسك من نفسيك تشفع للندى * اذا قل من احرازهن شفيعها *

وان اهمل سياستها * فاغفل رياضتها * ورام ان يأخذها بالعنف * ويقهرها بالعسف * استشاطت نافرة ولجت معاندة فلم تنقد الى طاعة ولم تنكف عن معصية وقال سابق البربرى

* اذا زجرت لجوجا زدته طلعا * ولجت النفس منه فى تماديها *
* فعد عليه اذا ما نفسه جمحت * باللين منك فان اللين يثنيها *

فاذا استصعب عليه قياد نفسه ودام منه نفور قلبه مع سياستها * ومعاناة رياضتها * تركها ترك راحه * ثم عاودها بعد الاستراحه * فان اجابتها تسرع * وطاعتها ترجع * وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان القلب يموت ويحيى ولو بعد حين وقال ابن مسعود للقلوب شهوة واقبال وفترة وادبار فأتوها من قبل شهوتها ولا تأتوها من قبل فترتها وقال الشاعر

* وما سمى الانسان الا لانسه * ولا القلب الا انه يتقلب *

فاما الشروط التى يتوفر بها علم الطالب * وينتهى معها كمال الراغب * مع ما يلاحظ به من التوفيق ويمد به من المعونة فتسعة شروط * احدها * العقل الذى يدرك به حقائق الامور * والثانى * الفطنة التى يتصور بها غوامض العلوم * والثالث * الذكاء الذى يستقر به حفظ ما تصوره وفهم ما علمه * والرابع * الشهوة التى يدوم بها الطلب ولا يسرع اليه الملل * والخامس * الاكتفاء بمادة تغنيه عن كلف الطلب * والسادس * الفراغ الذى يكون معه التوفر ويحصل به الاستكثار * والسابع * عدم القواطع المذهلة من هموم وامراض * والثامن * طول العمر واتساع المدة لينتهى بالاستكثار الى مراتب الكمال * والتاسع * الظفر بعالم سمح بعلمه متأن فى تعليمه فاذا استكمل هذه الشروط التسعة فهو اسعد طالب وانجح متعلم وقد قال الاسكندر يحتاج طالب العلم الى اربع مدة وجدة وقريحة

وشهوة وتمامها فى الخامسة معلم ناصح ﴿ فصل ﴾ وساذكر طرفا مما يتأدب به المتعلم ويكون عليه العالم اعلم ان المتعلم تملقا وتذللا فان استعملهما غنم * وان تركهما حرم * لان التملق للعالم يظهر مكنون علمه والتذلل له سبب لادامة صبره وباظهار مكنونه تكون الفائدة وباستدامة صبره يكون الاكثار وقد روى معاذ عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ليس من اخلاق المؤمن الملق الا فى طلب العلم وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ذللت طالبا فعززت مطلوبا وقال بعض الحكماء من لم يحتمل ذل التعلم ساعة بقى فى ذل الجهل ابدا وقال بعض حكماء الفرس اذا قعدت وانت صغير حيث تحب قعدت وانت كبير حيث لا تحب ثم ليعرف له فضل علمه وليشكر له جميل فعله فقد روت عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من وقر عالما فقد وقر ربه وقال على بن ابى طالب رضى الله عنه لا يعرف فضل اهل العلم الا اهل الفضل وقال بعض الشعراء

* ان المعلم والطبيب كلاهما * لا ينصحان اذا هما لم يكرما *

* فاصبر لدائك ان اهنت طبيبه * واصبر لجهلك ان جفوت معلما *

ولا يمنعه علو منزلته ان كانت له وان كان العالم خاملا فان العلماء بعلمهم قد استحقوا التعظيم لا بالقدرة والمال وانشدنى بعض اهل الادب لابى بكر بن دريد

* لا تحقرن عالما وان خلقت * اثوابه فى عيون رامقه *

* وانظر اليه بعين ذى ادب * مهذب الرأى فى طرائقه *

* فالمسك بينا تراه ممتهنا * بفهر عطاره وساحقه *

* حتى تراه فى عارضى ملك * وموضع التاج من مفارقه *

وليكن مقتديا بهم فى اخلاقهم متشبها بهم فى جميع افعالهم ليصير لها آلفا وعليها ناشئا ولما خالفها مجانبا فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم خيار شبانكم المتشبهون بشيوخكم وشرار شيوخكم المتشبهون بشبانكم وروى ابن عمر رضى الله عنهما ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من تشبه بقوم فهو منهم وانشدنى بعض اهل الادب لابى بكر بن دريد

* العالم العاقل ابن نفسه * اغناه جنس علمه عن جنسه *
* كن ابن من شئت وكن مؤدبا * فانما المرء بفضل كيسه *
* وليس من تكرمه لغيره * مثل الذى تكرمه لنفسه *

وليحذر المتعلم البسط على من يعلمه وان آنسه والادلال عليه وان تقدمت صحبته قيل لبعض الحكماء من اذل الناس فقال عالم يجرى عليه حكم جاهل وكلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم جارية من السبى فقال لها من انت فقالت بنت الرجل الجواد حاتم فقال صلى الله عليه وسلم ارحموا عزيز قوم ذل ارحموا غنيا افتقر ارحموا عالما ضاع بين الجهال ولا يظهر له الاستكفاء منه والاستغناء عنه فان فى ذلك كفرا لنعمته واستخفافا بحقه وربما وجد بعض المتعلمين قوة فى نفسه لجودة ذكائه وحدة خاطره فقصد من يعلمه بالاعنات له والاعتراض عليه ازراء به وتبكيتا له فيكون كمن تقدم فيه المثل السائر لابى البطحاء

* اعلمه الرماية كل يوم * فلما استد ساعده رمانى *

وهذه من مصائب العلماء وانعكاس حظوظهم ان يصيروا عند من يعلموه مستجهلين * وعند من قدموه مسترذلين * وقال صالح بن عبد القدوس

* وان عناء ان تعلم جاهلا * فيحسب جهلا انه منك اعلم *
* متى يبلغ البنيان يوما تمامه * اذا كنت تبنيه وغيرك يهدم *
* متى ينتهى عن سيئ من اتى به * اذا لم يكن منه عليه تندم *

وقد رجح كثير من الحكماء حق العالم على حق الوالد حتى قال بعضهم

* يا فاخرا للسفاء بالسلف * وتاركا للعلاء والشرف *
* آباء اجسادناهم سبب * لان جعلنا عرائض التلف *
* من علم الناس كان خيراب * ذاك ابو الروح لا ابو النطف *

ولا ينبغى ان يبعثه معرفة الحق له على قبول الشبهة منه ولا يدعوه ترك الاعنات له على التقليد فيما اخذ عنه فانه ربما غلا بعض الاتباع فى عالمهم حتى يروا ان قوله دليل وان لم يستدل وان اعتقاده حجة وان لم يحتج فيفضى بهم الامر الى التسليم له فيما اخذ منه فلا يبعد ان تبطل تلك المقالة ان انفردت او يخرج اهلها

من عداد العلماء فيما شاركت لانه قد لا يرى لهم من يأخذ عنهم ما كانوا يرونه لمن اخذوا عنه فيطالبهم بما قصروا فيه فيضعفوا عن ابانته ويعجزوا عن نصرته فيذهبوا ضائعين ويصيروا عجزة مضعوفين ولقد رأيت من هذه الطائفة رجلا يناظر فى مجلس حفل وقد استدل عليه الخصم بدلالة صحيحة فكان جوابه عنها ان قال ان هذه دلالة فاسدة وجه فسادها ان شيخى لم يذكرها وما لم يذكره الشيخ لا خير فيه فامسك عنه المستدل تعجبا ولان شيخه كان محتشما وقد حضرت طائفة يرون فيه مثل ما رأى هذا الجاهل ثم اقبل المستدل علىّ وقال لى والله لقد افحمنى بجهله وصار سائر الناس المبرئين من هذه الجهالة مابين مستهزئ ومتعجب * ومستعيذ بالله من جهل مغرب * فهل رأيت كذلك عالما اوغل فى الجهل * وادل على قلة العقل * واذا كان المتعلم معتدل الرأى فيمن يأخذ عنه * متوسط الاعتقاد ممن يتعلم منه * حتى لا يحمله الاعنات على اعتراض المبكتين * ولا يبعثه الغلو على تسليم المقلدين * برئ المتعلم من الذمتين * وسلم العالم من الجهتين * وليس كثرة السؤال فيما التبس اعناتا ولا قبول ما صح فى النفس تقليدا وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال العلم خزائن ومفتاحه السؤال فاسألوا رحمكم الله فانما يؤجر فى العلم ثلاثة القائل والمستمع والآخذ وقال عليه الصلاة والسلام هلا سألوا اذا لم يعلموا فانما شفاء العى السؤال فامر بالسؤال وحث عليه ونهى آخرين عن السؤال وزجر عنه فقال صلى الله عليه وسلم انهاكم عن قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال وقال عليه الصلاة والسلام اياكم وكثرة السؤال فانما هلك من قبلكم بكثرة السؤال وليس هذا مخالفا للاول وانما امر بالسؤال من قصد به علم ما جهل ونهى عنه من قصد به اعنات ما سمع واذا كان السؤال فى موضعه ازال الشكوك ونفى الشبهة وقد قيل لابن عباس رضى الله عنهما بم نلت هذا العلم قال بلسان سؤول وقلب عقول وروى نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما ان النبى صلى الله عليه وسلم قال حسن السؤال نصف العلم وانشد المبرد عن ابى سليمان الغنوى

فسل الفقيه تكن فقيها مثله * لا خير فى علم بغير تدبر

واذا

* واذا تعسرت الامور فأرجها * وعليك بالامر الذى لم يعسر *

وليأخذ المتعلم حظه ممن وجد طلبته عنده من نبيه وخامل ولا يطلب الصيت وحسن الذكر باتباع اهل المنازل من العلماء اذا كان النفع بغيرهم اعم الا ان يستوى النفعان فيكون الاخذ عمن اشتهر ذكره وارتفع قدره اولى لان الانتساب اليه اجمل والاخذ عنه اشهر وقد قال الشاعر

* اذا انت لم يشهرك علمك لم تجد * لعلمك مخلوقا من الناس يقبله *
* وان صانك العلم الذى قد حملته * اتاك له من يجتنيه و يحمله *

واذا قرب منك العلم فلا تطلب ما بعد واذا سهل من وجه فلا تطلب ما صعب واذا حمدت من خبرته فلا تطلب من لم تختبره فان العدول عن القريب الى البعيد عناء * وترك الاسهل بالاصعب بلاء * والانتقال من المخبور الى غيره خطر وقد قال على بن ابى طالب رضى الله عنه عقبى الاخرق مضره * والمتعسف لا تدوم له مسره * وقال بعض الحكماء القصد اسهل من التعسف * والكف اودع من التكلف * وربما تتبع نفس الانسان من بعد عنه استهانة بمن قرب منه وطلب ما صعب احتقارا لما سهل عليه وانتقل الى من لم يخبره مللا لمن خبره فلا يدرك محبوبا ولا يظفر بطائل وقد قالت العرب فى امثالها العالم كالكعبة يأتيها البعداء * ويزهد فيها القرباء * وانشدنى بعض شيوخنا لسيح بن حاتم

* لا ترى عالما يحل بقوم * فيحلوه غير دار الهوان *
* قل ما توجد السلامة و الصحة مجموعتين فى انسان *
* فاذا حلتا مكانا سحيقا * فهما فى النفوس معشوقتان *
* هذه مكة المنيعة بيت الله يسعى لحجها الثقلان *
* و يرى ازهد البرية فى الحج لها اهلها لقرب المكان *

✻ فصل ✻ فاما ما يجب ان يكون عليه العلماء من الاخلاق التى بهم اليق ولهم الزم فالتواضع ومجانبة العجب لان التواضع عطوف و العجب منفر و هو بكل احد قبيح وبالعلماء اقبح لان الناس بهم يقتدون و كثيرا ما يداخلهم الاعجاب لتوحدهم بفضيلة العلم ولو انهم نظروا حق النظر و عملوا بموجب العلم لكان التواضع بهم اولى ومجانبة العجب بهم احرى لان العجب نقص

ينافى الفضل لا سيما مع قول النبى صلى الله عليه وسلم ان العجب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب فلا يفى ما ادركوه من فضيلة العلم بما لحقهم من نقص العجب وقد روى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قليل العلم خير من كثير العبادة وكفى بالمرء علما اذا عبد الله عز وجل وكفى بالمرء جهلا اذا اعجب برأيه وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم وتواضعوا لمن تعلمون وليتواضع لكم من تعلمونه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم وقال بعض السلف من تكبر بعلمه وترفع وضعه الله به ومن تواضع بعلمه رفعه به وعلة اعجابهم انصراف نظرهم الى كثرة من دونهم من الجهال وانصراف نظرهم عمن فوقهم من العلماء فانه ليس متناه فى العلم الا وسيجد من هو اعلم منه اذ العلم اكثر من ان يحيط به بشر قال الله تعالى نرفع درجات من نشاء يعنى فى العلم وفوق كل ذى علم عليم قال اهل التأويل فوق كل ذى علم من هو اعلم منه حتى ينتهى ذلك الى الله تعالى وقيل لبعض الحكماء من يعرف كل العلم قال كل الناس وقال الشعبى ما رأيت مثلى وما اشاء ان القى رجلا اعلم منى الا لقيته لم يذكر الشعبى هذا القول تفضيلا لنفسه فيستقبح منه وانما ذكره تعظيما للعلم عن ان يحاط به فينبغى لمن علم ان ينظر الى نفسه بتقصير ما قصر فيه ليسلم من عجب ما ادرك منه وقد قيل فى منثور الحكم اذا علمت فلا تفكر فى كثرة من دونك من الجهال ولكن انظر الى من فوقك من العلماء وانشدت لابن العميد

* من شاء عيشا هنيئا يستفيد به * فى دينه ثم فى دنياه اقبالا *
* فلينظرن الى من فوقه ادبا * ولينظرن الى من دونه مالا *

وقل ما تجد بالعلم معجبا وبما ادرك منتخرا * الا من كان فيه مقلا ومقصرا * لانه قد يجهل قدره * ويحسب انه نال بالدخول فيه اكثره * فاما من كان فيه متوجها ومنه مستكثرا فهو يعلم من بعد غايته * والعجز عن ادراك نهايته * ما يصده عن العجب به وقد قال الشعبى العلم ثلاثة اشبار فمن نال منه شبرا شمخ بانفه وظن انه ناله ومن نال الشبر الثانى صغرت اليه نفسه وعلم انه لم ينله واما الشبر الثالث فهيهات لا يناله احد ابدا ومما انذرك به من حالى انى صنفت فى

البيوع كتابا جمعت فيه ما استطعت من كتب الناس واجهدت فيه نفسى وكددت فيه خاطرى حتى اذا تهذب واستكمل وكدت اعجب به وتصورت اننى اشد الناس اضطلاعا بعلمه حضرنى وانا فى مجلسى اعرابيان فسألانى عن بيع عقداه فى البادية على شروط تضمنت اربع مسائل لم اعرف لواحدة منهن جوابا فاطرقت مفكرا * وبحالى وحالهما معتبرا * فقالا ما عندك فيما سألناك جواب وانت زعيم هذه الجماعة فقلت لا فقالا واهاً لك وانصرفا ثم اتيا من يتقدمه فى العلم كثير من اصحابى فسألاه فاجابهما مسرعا بما اقنعهما وانصرفا عنه راضيين بجوابه حامدين لعلمه فبقيت مرتبكا وبحالهما و حالى معتبرا وانى لعلى ما كنت عليه من المسائل الى وقتى فكان ذاك زاجر نصيحة ونذير عظة تذلل بها قياد النفس وانخفض لها جناح العجب توفيقا منحته ورشدا اوتيته وحق على من ترك العجب بما يحسن ان يدع التكلف لما لا يحسن فقديما نهى الناس عنهما * واستعاذوا بالله منهما * ومن اوضح ذلك بيانا استعاذة الجاحظ فى كتاب البيان حيث يقول اللهم انا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن * كما نعوذ بك من العجب بما نحسن * ونعوذ بك من شر السلاطة والهذر * كما نعوذ بك من شر العى والحصر * ونحن نستعيذ بالله تعالى مثل ما استعاذ فليس لمن تكلف ما لا يحسن غاية ينتهى اليها ولا حد يقف عنده ومن كان تكلفه غير محدود فاخلق به ان يضل ويضل وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من سئل فافتى بغير علم فقد ضل واضل وقال بعض الحكماء من العلم ان لا تتكلم فيما لا تعلم بكلام من يعلم فحسبك جهلا من عقلك ان تنطق بما لا تفهم ولقد احسن زرارة بن زيد حيث يقول

* اذا ما انتهى علمى تناهيت عنده * اطال فاملى او تناهى فاقصرا *

* ويخبرنى عن غائب المرء فعله * كفى الفعل عما غيب المرء مخبرا *

فاذا لم يكن الى الاحاطة بالعلم سبيل فلا عار ان يجهل بعضه واذا لم يكن فى جهل بعضه عار لم يقبح به ان يقول لا اعلم فيما ليس يعلم وروى ان رجلا قال

يا رسول الله اى البقاع خير واى البقاع شر فقال لا ادرى حتى اسأل جبريل وقال
على بن ابى طالب رضى الله عنه وما ابردها على القلب اذا سئل احدكم فيما لا يعلم
ان يقول الله اعلم وان العالم من عرف ان ما يعلم فيما لا يعلم قليل وقال عبد الله بن
عباس رضى الله عنهما اذا ترك العالم قول لا ادرى اصيبت مقاتله وقال بعض
العلماء هلك من ترك لا ادرى وقال بعض الحكماء ليس لى من فضيلة العلم الا علمى
بانى لست اعلم وقال بعض البلغاء من قال لا ادرى علم فدرى ومن انتحل ما لا يدرى
اهمل فهوى ولا ينبغى للرجل وان صار فى طبقة العلماء الافاضل ان يستنكف
من تعلم ما ليس عنده ليسلم من التكلف وقد قال عيسى بن مريم على نبينا وعليه
السلام ياصاحب العلم تعلم من العلم ما جهلت وعلم الجهال ما علمت وقال على
ابن ابى طالب رضى الله عنه خمس خذوهن عنى فلو ركبتم الفلك ما
وجدتموهن الا عندى الا لا يرجون احد الا ربه * ولا يخافن الا ذنبه *
ولا يستنكف العالم ان يتعلم لما ليس عنده واذا سئل احدكم عما لا يعلم فليقل
لا اعلم ومنزلة الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد وقال عبدالله بن
عباس رضى الله عنهما لو كان احدكم يكتفى من العلم لاكتفى منه موسى على
نبينا وعليه السلام لما قال هل اتبعك على ان تعلمنى مما علمت رشدا وقيل للخليل
ابن احمد بم ادركت هذا العلم قال كنت اذا لقيت عالما اخذت منه واعطيته
وقال بزرجمهر من العلم ان لا تحقر شيئا من العلم ومن العلم تفضيل جميع العلم
وقال المنصور لشريك انى لك هذا العلم قال لم ارغب عن قليل استفيده * ولم
ابخل بكثير افيده * على ان العلم يقتضى ما بقى منه ويستدعى ما تأخر عنه
وليس للراغب فيه قناعة ببعضه وروى عون بن عبدالله عن ابن مسعود رضى
الله عنه انه قال منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا اما طالب العلم فانه
يزداد للرحمن رضى ثم قرأ انما يخشى الله من عباده العلماء واما طالب الدنيا فانه
يزداد طغيانا ثم قرأ كلا ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى وليكن مستقلا للفضيلة
منه ليزداد منها ومستكثرا النقيصة فيه لينتهى عنها ولا يقنع من العلم بما ادرك لان
القناعة فيه زهد والزهد فيه ترك والترك له جهل وقد قال بعض الحكماء عليك
بالعلم والاكثار منه فان قليله اشبه شئ بقليل الخير وكثيره اشبه شئ بكثيره ولن

يعيب الخير الا القلة فاما كثرته فانها امنية وقال بعض البلغاء من فضل علمك استقلالك لعلمك ومن كمال عقلك استظهارك على عقلك ولا ينبغي ان يجهل من نفسه مبلغ علمها ولا يتجاوز بها قدر حقها ولان يكون بها مقصرا فيذعن بالانقياد * اولى من ان يكون بها مجاوزا فيكف عن الازدياد * لان من جهل حال نفسه كان لغيرها اجهل وقد قالت عائشة رضي الله عنها يا رسول الله متى يعرف الانسان ربه قال اذا عرف نفسه وقد قسم الخليل بن احمد احوال الناس فيما علموه او جهلوه اربعة اقسام متقابلة لا يخلو الانسان منها فقال الرجال اربعة رجل يدرى ويدرى انه يدرى فذلك عالم فاسألوه * ورجل يدرى ولا يدرى انه يدرى فذلك ناس فذكروه * ورجل لا يدرى ويدرى انه لا يدرى فذلك مسترشد فارشدوه * ورجل لا يدرى ولا يدرى انه لا يدرى فذلك جاهل فارفضوه * وانشد ابو القاسم الآمدي

* اذا كنت لا تدرى ولم تك بالذى * يسائل من يدرى فكيف اذا تدرى *
* جهلت ولم تعلم بانك جاهل * فمن لى بان تدرى بانك لا تدرى *
* اذا كنت من كل الامور معميا * فكن هكذا ارضا يطأك الذى يدرى *
* ومن اعجب الاشياء انك لا تدرى * وانك لا تدرى بانك لا تدرى *

وليكن من شيمته العمل بعلمه وحث النفس على ان تأتمر بما يأمر به ولا يكن ممن قال الله تعالى فيهم مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا فقد قال قتادة فى قوله تعالى وانه لذو علم لما علمناه يعنى انه عامل بما علم وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ويل لجماع القول ويل للمصرين يريد الذين يسمعون القول ولا يعملون به وروى عبد الله بن وهب عن سفيان ان الخضر على نبينا وعليه السلام قال لموسى عليه السلام يا ابن عمران تعلم العلم لتعمل به ولا تتعلمه لتحدث به فيكون عليك بوره * ولغيرك نوره * وقال على بن ابى طالب انما زهد الناس فى طلب العلم لما يرون من قلة انتفاع من علم بما علم وقال ابو الدرداء اخوف ما اخاف اذا وقفت بين يدى الله ان يقول قد علمت فماذا عملت اذ علمت وكان يقال خير من القول فاعله * وخير من الصواب قائله * وخير من العلم حامله * وقيل فى منثور الحكم لم ينتفع بعلمه من ترك العمل به وقال

بعض العلماء ثمرة العلم ان يعمل به وثمرة العمل ان يؤجر عليه و قال بعض الصلحاء العلم يهتف بالعمل * فان اجابه اقام و الا ارتحل * و قال بعض العلماء خير العلم ما نفع * وخير القول ما ردع * وقال بعض الادباء ثمرة العلوم * العمل بالعلوم * وقال بعض البلغاء من تمام العلم استعماله * ومن تمام العمل استقلاله * فمن استعمل علمه لم يخل من رشاد * ومن استقل عمله لم يقصر عن مراد * و قال حاتم الطائى

* ولم يحمدوا من عالم غير عامل * خلافا ولا من عامل غير عالم *
* رأوا طرقات المجد عوجا قطيعة * و اقطع عجز عندهم عجز حازم *

لانه لما كان علمه حجة على من اخذ عنه واقتبسه منه حتى يلزمه العمل به والمصير اليه كان عليه احج وله الزم لان مرتبة العلم قبل مرتبة القول كما ان مرتبة العلم قبل مرتبة العمل وقد قال ابو العتاهية رحمه الله

* اسمع الى الاحكام تحملها الرواة اليك عنكا *
* و اعلم هديت بانها * حجج تكون عليك منكا *

ثم ليتجنب ان يقول ما لا يفعل و ان يأمر بما لا يأتمر به و ان يسر غير ما يظهر ولا يجعل قول الشاعر هذا

* اعمل بقولى و ان قصرت فى عملى * ينفعك قولى و لا يضررك تقصيرى *

عذرا له فى تقصير يضره و ان لم يضر غيره فان اضرار النفس يغريها ويحسن لها مساويها فان من قال ما لا يفعل فقد مكر و من امر بما لا يأتمر فقد خدع و من اسر غير ما يظهر فقد نافق وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال المكر والخديعة وصاحبا هما فى النار على ان امره بما لا يأتمر مطرح * و انكاره ما لا ينكره من نفسه مستقبح * بل ربما كان ذلك سببا لاغراء المأمور بترك ما امره به عنادا * و ارتكاب ما نهى عنه كيادا * وحكى ان اعرابيا اتى ابن ابى ذئب فسأله عن مسألة طلاق فافتاه بطلاق امرأته فقال انظر حسنا قال نظرت و قد بانت فولى الاعرابى و هو يقول

* اتيت ابن ذئب ابتغى الفقه عنده * فطلق حتى البت تبت انامله *
* اطلق فى فتوى ابن ذئب حليلتى * و عند ابن ذئب اهله وحلائله *

فظن بجهله انه لا يلزمه الطلاق بقول من لم يلتزم الطلاق فما ظنك بقول يجب فيه اشتراك الآمر و المأمور كيف يكون مقبولا منه و هو غير عامل به ولا قابل له كلا وقال احمد بن يوسف

* وعامل بالفجور يأمر بالبر * كهاد يخوض فى الظلم *
* اوكطبيب قد شفه سقم * و هو يداوى من ذلك السقم *
* يا واعظ الناس غير متعظ * ثوبك طهر او لا فلا تلم *

﴿ وقال آخر ﴾

* عود لسانك قلة اللفظ * و احفظ كلامك ايما حفظ *
* اياك ان تعظ الرجال وقد * اصبحت محتاجا الى الوعظ *

و اما الانقطاع عن العلم الى العمل و الانقطاع عن العمل الى العلم اذا عمل بموجب العلم فقد حكى عن الزهرى فيه ما يغنى عن تكلف غيره و هو انه قال العلم افضل من العمل لمن جهل و العمل افضل من العلم لمن علم و اما فضل ما بين العلم و العبادة اذا لم يخل بواجب و لم يقصر فى فرض فقد روى عن النبى صلى الله عليه و سلم انه قال يبعث العالم و العابد فيقال للعابد ادخل الجنة و يقال للعالم اتئد حتى تشفع للناس و من آداب العلماء ان لا يبخلوا بتعليم ما يحسنون * ولا يمتنعوا من افادة ما يعلمون * فان البخل به لوم وظلم * و المنع منه حسد و اثم * و كيف يسوغ لهم البخل بما منحوه جودا من غير بخل * واوتوه عفوا من غير بذل * ام كيف يجوز لهم الشح بما ان بذلوه زاد و نمى * و ان كتموه تناقص ووهى * و لو استن بذلك من تقدمهم لما وصل العلم اليهم و لانقرض عنهم بانقراضهم و لصاروا على مرور الايام جهالا * و بتقلب الاحوال و تناقصها ارذالا * و قد قال الله تعالى و اذ اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا يكتمونه وروى عن النبى صلى الله عليه و سلم انه قال لا تمنعوا العلم اهله فان فى ذلك فساد دينكم والتباس بصائركم ثم قرأ ان الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعدما بيناه للناس فى الكتاب اولئك يلعنهم الله و يلعنهم اللاعنون و روى عن النبى صلى الله عليه و سلم انه قال من كتم علما يحسنه الجمه الله يوم القيامة بلجام من نار وروى عن على بن ابى طالب

كرم الله وجهه انه قال ما اخذ الله العهد على اهل الجهل ان يتعلموا حتى اخذ
على العهد اهل العلم ان يعلموا وقال بعض الحكماء اذا كان من قواعد الحكمة
بذل ما ينقصه البذل فاحرى ان يكون من قواعدها بذل ما يزيده البذل و قال
بعض العلماء كما ان الاستفادة نافلة للمتعلم كذلك الافادة فريضة على المعلم و قد
قيل فى منثور الحكم من كتم علما فكأنه جاهل وقال خالد بن صفوان انى لافرح
بافادتى المتعلم اكثر من فرحى باستفادتى من المعلم ثم له بالتعليم نفعان احدهما ما يرجوه
من ثواب الله تعالى فقد جعل النبى صلى الله عليه وسلم التعليم صدقة فقال
تصدقوا على اخيكم بعلم يرشده * ورأى يسدده * وروى ابن مسعود عن النبى
صلى الله عليه وسلم انه قال تعلموا وعلموا فان اجر العالم والمتعلم سواء قيل وما
اجرهما قال مائة مغفرة ومائة درجة فى الجنة والنفع الثانى زيادة العلم واتقان الحفظ
فقد قال الخليل بن احمد اجعل تعليمك دراسة لعلمك واجعل مناظرة المتعلم تنبيها
على ما ليس عندك وقال ابن المعتز فى منثور الحكم النار لا ينقصها ما اخذ منها
ولكن يخمدها ان لا تجد حطبا كذلك العلم لا يفنيه الاقتباس ولكن فقد الحاملين
له سبب عدمه فاياك والبخل بما تعلم وقال بعض العلماء علم علمك وتعلم علم غيرك فاذا
علمت ما جهلت وحفظت ما علمت ثم اعلم ان المتعلمين ضربان مستدع وطالب فاما
المستدعى الى العلم فهو من استدعاه العالم الى التعليم لما ظهر له من جودة ذكائه
وبان له من قوة خاطره فاذا وافق استدعاء العالم شهوة المتعلم كانت نتيجتها درك
النجباء * وظفر السعداء * لان العالم باستدعائه متوفر * والمتعلم بشهوته مستكثر *
و اما طالب العلم لداع يدعوه * وباعث يحدوه * فان كان الداعى دينيا * وكان
المتعلم فطنا ذكيا * وجب على العالم ان يكون عليه مقبلا و على تعليمه متوفرا لا يخفى
عليه مكنونا * و لا يطوى عنه مخزونا * و ان كان بليدا بعيد الفطنة فينبغى ان
لا يمنع من اليسير فيحرم * ولا يحمل عليه بالكثير فيظلم * ولا يجعل بلادته ذريعة
لحرمانه فان الشهوة باعثة و الصبر مؤثر و قد روى عن النبى صلى الله عليه
و سلم انه قال لا تمنعوا العلم اهله فتظلموا * و لا تضعوه فى غير اهله فتأثموا *
و قال بعض الحكماء لا تمنعوا العلم احدا فان العلم امنع لجانبه فاما ان لم يكن
الداعى دينيا نظر فيه فان كان مباحا كرجل دعاه الى طلب العلم حب النباهة

فطلب

فطلب الرئاسة فالقول فيه يقارب القول الاول فى تعليم من قبل لان العلم يعطفه الى الدين فى ثانى حال و ان لم يكن مبتدئا به فى اول حال و قد حكى عن سفيان الثورى انه قال تعلمنا العلم لغير الله تعالى فابى ان يكون الا لله و قال عبد الله ابن المبارك طلبنا العلم للدنيا فدلنا على ترك الدنيا وان كان الداعى محظورا كرجل دعاه الى طلب العلم شر كامن ومكر باطن يريد ان يستعملهما فى شبه دينية وحيل فقهية لا تجد اهل السلامة منها مخلصا ولا عنها مدفعا كما قال النبى صلى الله عليه و سلم اهلاك امتى رجلان عالم فاجر و جاهل متعبد و قيل يا رسول الله اى الناس اشر قال العلماء اذا فسدوا فينبغى للعالم اذا رأى من هذه حاله ان يمنعه عن طلبته * و يصرفه عن بغيته * فلا يعينه على امضاء مكره * واعمال شره * فقد روى انس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال واضع العلم فى غير اهله كمقلد الخنازير اللؤلؤ والجوهر والذهب وقال عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام لا تلقوا الجوهر للخنزير فالعلم افضل من اللؤلؤ ومن لا يستحقه شر من الخنزير وحكى ان تلميذا سأل عالما عن بعض العلوم فلم يفده فقيل له لم منعته فقال لكل تربة غرس * ولكل بناء اس * وقال بعض البلغاء لكل ثوب لابس * ولكل علم قابس * وقال بعض الادباء ارث لروضة توسطها خنزير * وابك لعلم حواه شرير * وينبغى ان يكون للعالم فراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف مبلغ طاقته وقدر استحقاقه ليعطيه ما يتحمله بذكائه او يضعف عنه ببلادته فانه اروح للعالم وانجح للمتعلم وقد روى ثابت عن انس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله عبادا يعرفون الناس بالتوسم وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه اذا انا لم اعلم ما لم ار فلا علمت ما رأيت وقال عبد الله بن الزبير لا عاش بخير من لم ير برأيه ما لم ير بعينيه وقال ابن الرومى

* المعىّ يرى باول رأى * آخر الامر من وراء المغيب *
* لوذعىّ له فؤاد ذكىّ * ما له فى ذكائه من ضريب *
* لا يروى ولا يقلب طرفا * واكف الرجال فى تقليب *

واذ كان العالم فى توسم المتعلمين بهذه الصفة وكان بقدر استحقاقهم خبيرا

لم يضع له عناء ولم يخب على يديه صاحب وان لم يتوسمهم وخفيت عليه احوالهم ومبلغ استحقاقهم كانوا واياه فى عناء مكد وتعب غير مجد لانه لا يعدم ان يكون فيهم ذكى محتاج الى الزيادة وبليد يكتفى بالقليل فيضجر الذكى منه ويعجز البليد عنه ومن يردد اصحابه بين عجز وضجر ملوه وملهم وقد حكى عبد الله بن وهب ان سفيان بن عبدالله قال قال الخضر لموسى عليهما السلام يا طالب العلم ان القائل اقل ملالة من المستمع فلا تمل جلساءك اذا حدثتهم يا موسى واعلم ان قلبك وعاء فانظر ما تحشو فى وعائك وقال بعض الحكماء خير العلماء من لا يقل ولا يمل وقال بعض العلماء كل علم كثر على المستمع ولم يطاوعه الفهم ازداد القلب به عمى وانما ينفع سمع الآذان * اذا قوى فهم القلوب فى الابدان * وربما كان لبعض السلاطين رغبة فى العلم لفضيلة نفسه وكرم طبعه فلا يجعل ذلك ذريعة فى الانبساط عنده والادلال عليه بل يعطى ما يستحقه بسلطانه وعلو يده فان للسلطان حق الطاعة والاعظام * وللعالم حق القبول والاكرام * ثم لا ينبغى ان يبتدئه الا بعد الاستدعاء ولا يزيده على قدر الاكتفاء فربما احب بعض العلماء اظهار علمه للسلطان فاكثره فصار ذلك ذريعة الى ملاله ومفضيا الى بعده فان السلطان متقسم الافكار مستوعب الزمان فليس له فى العلم فراغ المنقطعين اليه ولا صبر المنفردين به وقد حكى الاصمعى رحمه الله قال قال لى الرشيد يا عبدالملك انت اعلم منا ونحن اعقل منك لا تعلمنا فى ملاء * ولا تسرع الى تذكيرنا فى خلاء * واتركنا حتى نبتدئك بالسؤال فاذا بلغت من الجواب حد الاستحقاق فلا تزد الا ان يستدعى ذلك منك وانظر الى ما هو الطف فى التأديب وانصف فى التعليم * وبلغ باوجز لفظ غاية التقويم * وليخرج تعليمه مخرج المذاكرة والمحاضرة لا مخرج التعليم والافادة لان لتأخير التعلم خجلة تقصير يجل السلطان عنها فان ظهر منه خطأ او زلل فى قول او عمل لم يجاهره بالرد وعرض باستدراك زلله * واصلاح خلله * وحكى ان عبد الملك بن مروان قال للشعبى كم عطاءك قال الفين قال لحنت قال لما ترك امير المؤمنين الاعراب كرهت ان اعرب كلامى عليه ثم ليحذر اتباعه فيما يجانب الدين ويضاد الحق موافقة لرأيه ومتابعة لهواه فربما زلت

اقدام

اقدام العلماء فى ذلك رغبة او رهبة فضلوا واضلوا مع سوء العاقبة وقبح الآثار وقد روى الحسن البصرى رحمه الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزال هذه الامة تحت يد الله و فى كنفه مالم يمار قراؤها امراءها و لم يزك صلحاؤها فجارها ولم يمار اخيارها اشرارها * فاذا فعلوا ذلك رفع عنهم يده ثم سلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب وضربهم بالفاقة والفقر وملأ قلوبهم رعبا ومن آدابهم نزاهة النفس عن شبه المكاسب * والقناعة بالميسور عن كد المطالب * فان شبهة المكسب اثم وكذا الطلب ذل والأجر اجدر به من الاثم والعز اليق به من الذل وانشدنى بعض اهل الادب لعلى بن عبد العزيز القاضى رحمه الله تعالى

* يقولون لى فيك انقباض وانما * رأوا رجلا عن موقف الذل احجما *
* ارى الناس من داناهم هان عندهم * ومن اكرمته عزة النفس اكرما *
* ولم اقض حق العلم ان كان كلما * بدا طمع صيرته لى سلما *
* وما كل برق لاح لى يستفزنى * ولا كل من لاقيت ارضاه منعما *
* اذا قيل هذا منهل قلت قد ارى * ولكن نفس الحر تحتمل الظما *
* انهنهها عن بعض ما لا يشينها * مخافة اقوال العدا فيم اولما *
* ولم ابتذل فى خدمة العلم مهجتى * لاخدم من لاقيت لكن لاخدما *
* ااشقى به غرسا واجنيه ذلة * اذا فاتباع الجهل قدكان احزما *
* ولو ان اهل العلم صانوه صانهم * ولو عظموه فى النفوس لعظما *
* ولكن اهانوه فهان ودنسوا * محياه بالاطماع حتى تجهما *

على ان العلم عوض من كل لذة ومغن عن كل شهوة ومن كان صادق النية فيه لم يكن له همة فيما يجد بدا منه وقال بعض البلغاء من تفرد بالعلم لم توحشه خلوه * ومن تسلى بالكتب لم تفته سلوه * ومن آنسه قراءة القرآن * لم توحشه مفارقة الاخوان * وقال بعض العلماء لا سمير كالعلم * ولا ظهير كالحلم * ومن آدابهم ان يقصدوا وجه الله بتعليم من علموا ويطلبوا ثوابه بارشاد من ارشدوا من غير ان يعتاضوا عليه عوضا ولا يلتمسوا عليه رزقا قال الله تعالى ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا قال ابو العالية لاتأخذوا عليه اجرا وهو مكتوب عندهم

فى الكتاب الاول يا ابن آدم علم مجانا كما علمت مجانا وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اجر المعلم كاجر الصائم القائم وحسب من هذا اجره ان يلتمس عليه اجرا و من آدابهم نصح من علموه و الرفق بهم و تسهيل السبيل عليهم و بذل المجهود فى رفدهم ومعونتهم فان ذلك اعظم لاجرهم و اسنى لذكرهم و انشر لعلومهم و ارسخ لمعلومهم و قد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لعلى كرم الله وجهه يا على لان يهدى الله بك رجلا خير مما طلعت عليه الشمس و من آدابهم ان لا يعنفوا متعلما ولا يحقروا ناشئا ولا يستصغروا مبتدئا فان ذلك ادعى اليهم و اعطف عليهم و احث على الرغبة فيما لديهم وروى عن النبى صلى الله عليه و سلم انه قال علموا و لا تعنفوا فان المعلم خير من المعنف و روى عن النبى صلى الله عليه و سلم انه قال وقروا من تعلمون منه ووقروا من تعلمونه و من آدابهم ان لايمنعوا طالبا ولا يؤيسوا متعلما لما فى ذلك من قطع الرغبة فيهم و الزهد فيما لديهم واستمرار ذلك مفض الى انقراض العلم بانقراضهم فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ألا انبئكم بالفقيه كل الفقيه قالوا بلى يارسول الله قال من لم يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤيسهم من روح الله ولا يدع القرآن رغبة الى ما سواه ألا لا خير فى عبادة ليس فيها تفقه ولا علم ليس فيه تفهم ولا قراءة ليس فيها تدبر فهذه جملة كافية و الله ولى التوفيق

باب ادب الدين

اعلم ان الله سبحانه و تعالى انما كلف الخلق متعبداته * و الزمهم مفترضاته * وبعث اليهم رسله وشرع لهم دينه لغير حاجة دعته الى تكليفهم ولا من ضرورة قادته الى تعبدهم وانما قصد نفعهم تفضلا منه عليهم كما تفضل بما لا يحصى عدا من نعمه بل النعمة فيما تعبدهم به اعظم لان نفع ما سوى المتعبدات مختص بالدنيا العاجلة ونفع المتعبدات يشتمل على نفع الدنيا والآخرة وما جمع نفع الدنيا والآخرة كان اعظم نعمة واكثر تفضلا وجعل ما تعبدهم به مأخوذا من عقل متبوع * وشرع مسموع * فالعقل متبوع فيما لايمنع منه الشرع والشرع

مسموع فيما لا يمنع منه العقل لان الشرع لا يرد بما يمنع منه العقل والعقل لا يتبع فيما يمنع منه الشرع فلذلك توجه التكليف الى من كمل عقله فأرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون فبلغهم رسالته والزمهم حجته وبين لهم شريعته وتلا عليهم كتابه فيما احله وحرمه واباحه وحظره واستحبه وكرهه وامر به ونهى عنه وما وعد به من الثواب لمن اطاعه واوعد به من العقاب لمن عصاه فكان وعده ترغيبا * ووعيده ترهيبا * لان الرغبة تبعث على الطاعة والرهبة تكف عن المعصية والتكليف يجمع امرا بطاعة ونهيا عن معصية ولذلك كان التكليف مقرونا بالرغبة والرهبة وكان ما تخلل كتابه من قصص الانبياء السالفة واخبار القرون الخالية عظة واعتبارا تقوى معهما الرغبة * وتزداد بهما الرهبة * وكان ذلك من لطفه بنا وتفضله علينا فالحمد لله الذى نعمه لا تحصى وشكره لا يؤدى ثم جعل الى رسوله صلى الله عليه وسلم بيان ما كان مجملا وتفسير ما كان مشكلا وتحقيق ما كان محتملا ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به ومنزلة التفويض اليه قال الله تعالى وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما انزل اليهم ولعلهم يتفكرون ثم جعل الى العلماء استنباط ما نبه على معانيه واشار الى اصوله بالاجتهاد فيه الى علم المراد فيمتازوا بذلك عن غيرهم ويختصوا بثواب اجتهادهم قال الله تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم او الذين اوتوا العلم درجات و قال الله تعالى و ما يعلم تأويله الا الله و الراسخون فى العلم فصار الكتاب اصلا و السنة فرعا و استنباط العلماء ايضاحا و كشفا وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال القرآن اصل علم الشريعة نصه و دليله و الحكمة بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم والامة المجتمعة حجة على من شذ عنها وكان من رأفته بخلقه وتفضله على عباده ان اقدرهم على ما كلفهم و رفع الحرج عنهم فيما تعبدهم ليكونوا مع ما قد اعده لهم ناهضين بفعل الطاعات و مجانبة المعاصى قال الله تعالى لا يكلف الله نفسا الا وسعها و قال وما جعل عليكم فى الدين من حرج و جعل ما كلفهم ثلاثة اقسام قسما امرهم باعتقاده و قسما امرهم بفعله و قسما امرهم بالكف عنه ليكون اختلاف جهات التكليف ابعث على قبوله واعون على فعله

حكمة منه ولطفا وجعل ما امرهم باعتقاده قسمين قسما اثباتا وقسما نفيا فاما الاثبات فاثبات توحيده وصفاته واثبات بعثة رسله وتصديق محمد صلى الله عليه وسلم فيما جاء به واما النفى فنفى الصاحبة والولد والحاجة والقبائح اجمع وهذان القسمان اول ما كلفه العاقل وجعل ما امرهم بفعله ثلاثة اقسام قسما على ابدانهم كالصلاة والصيام وقسما فى اموالهم كالزكاة والكفارة وقسما على اموالهم وابدانهم كالحج والجهاد ليسهل عليهم فعله ويخف عنهم اداؤه نظرا منه تعالى لهم وتفضلا منه عليهم وجعل ما امرهم بالكف عنه ثلاثة اقسام قسما لاحياء نفوسهم وصلاح ابدانهم كنهيه عن القتل واكل الخبائث والسموم وشرب الخمور المؤدية الى فساد العقل وزواله وقسما لائتلافهم واصلاح ذات بينهم كنهيه عن الغضب والغلبة والظلم والسرف المفضى الى القطيعة والبغضاء وقسما لحفظ انسابهم وتعظيم محارمهم كنهيه عن الزنا ونكاح ذوات المحارم فكانت نعمته فيما حظره علينا كنعمته فيما اباحه لنا وتفضله فيما كفنا عنه كتفضله فيما امرنا به فهل يجد العاقل فى رويته مساغا ان يقصر فيما امر به وهو نعمة عليه او يرى فسحة فى ارتكاب ما نهى عنه وهو تفضل منه عليه وهل يكون من انعم عليه بنعمة فاهملها مع شدة فاقته اليها الا مذموما فى العقل مع ما جاء من وعيد الشرع ثم من لطفه بخلقه وتفضله على عباده ان جعل لهم من جنس كل فريضة نفلا وجعل لها من الثواب قسطا وندبهم اليه ندبا وجعل لهم بالحسنة عشرا ليضاعف ثواب فاعله ويضع العقاب عن تاركه ومن لطيف حكمته ان جعل لكل عبادة حالتين حالة كمال وحالة جواز رفقا منه بخلقه لما سبق فى علمه ان فيهم العجل المبادر والبطئ المتثاقل ومن لا صبر له على اداء الاكمل ليكون ما اخل به من هيئات عبادته غير قادح فى فرض ولا مانع من اجر فكان ذلك من نعمه علينا وحسن نظره الينا وكان اول ما فرض بعد تصديق نبيه صلى الله عليه وسلم عبادات الابدان وقدمها على ما يتعلق بالاموال لان النفوس على الاموال اشح * وبما يتعلق بالابدان اسمح * وذلك الصلاة والصيام فقدم الصلاة على الصيام لان الصلاة اسهل فعلا وايسر عملا وجعلها مشتملة على خضوع له وابتهال اليه فالخضوع

له رهبة منه والابتهال اليه رغبة فيه ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم اذا قام احدكم الى صلاته فانما يناجى ربه فلينظر بما يناجيه و روى عن على بن ابى طالب رضى الله عنه انه كان كلما دخل عليه وقت صلاة اصفر لونه مرة و احمر اخرى فقيل له فى ذلك فقال اتتنى الامانة التى عرضت على السموات و الارض و الجبال فابين ان يحملنها و اشفقن منها و حملتها انا فلا ادرى أؤسئ فيها ام احسن ثم جعل لها شروطا لازمة من رفع حدث وازالة نجس ليستديم النظافة للقاء ربه و الطهارة لآداء فرضه ثم ضمنها تلاوة كتابه المنزل ليتدبر ما فيه * من اوامره و نواهيه * و يعتبر اعجاز الفاظه ومعانيه * ثم علقها باوقات راتبة وازمان مترادفة ليكون ترادف ازمانها و تتابع اوقاتها سببا لاستدامة الخضوع له و الابتهال اليه فلا تنقطع الرهبة منه ولا الرغبة فيه و اذا لم تنقطع الرغبة و الرهبة استدام صلاح الخلق و بحسب قوة الرغبة والرهبة يكون استيفاؤها على الكمال او التقصير فيها حال الجواز و قد روى عن النبى صلى الله عليه و سلم الصلاة مكيال فمن وفى وفى له ومن طفف فقد علمتم ما قال الله فى المطففين و روى عن النبى صلى الله عليه و سلم انه قال من هانت عليه صلاته كانت على الله تعالى عز وجل اهون و انشدت لبعض الفصحاء فى ذلك

* اقبل على صلواتك الخمس * كم مصبح وعساه لا يمسى *
* واستقبل اليوم الجديد بتوبة * تمحو ذنوب صبيحة الامس *
* فليفعلن بوجهك الغض البلى * فعل الظلام بصورة الشمس *

ثم فرض الله تعالى الصيام و قدمه على زكاة الاموال لتعلق الصيام بالابدان وكان فى ايجابه حثا على رحمة الفقراء و اطعامهم و سد جوعاتهم لما عاينوه من شدة المجاعة فى صومهم وقد قيل ليوسف على نبينا و عليه السلام أتجوع و انت على خزائن الارض فقال اخاف ان اشبع فانسى الجائع ثم لما فى الصوم من قهر النفس و اذلالها وكسر الشهوة المستولية عليها و اشعار النفس ما هى عليه من الحاجة الى يسير الطعام و الشراب و المحتاج الى الشئ ذليل به و بهذا احتج الله تعالى على من اتخذ عيسى على نبينا و عليه السلام و امه الاهين

من دونه فقال ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل و امه صديقة كانا يأكلان الطعام فجعل احتياجهما الى الطعام نقصا فيهما عن ان يكونا الاهين و قد وصف الحسن البصرى رحمه الله تعالى نقص الانسان بالطعام و الشراب فقال مسكين ابن آدم محتوم الاجل * مكتوم الامل * مستور العلل * يتكلم بلحم * و ينظر بشحم * و يسمع بعظم * اسير جوعه صريع شبعه تؤذيه البقة * وتنتنه العرق * و تقتله الشرقه * لا يملك لنفسه ضرا و لا نفعا و لا موتا و لا حياة و لا نشورا فانظر الى لطفه بنا * فيما اوجبه من الصيام علينا كيف ايقظ العقول له و قد كانت عنه غافلة او متغافلة و نفع النفوس به و لم تكن منتفعة و لا نافعة ثم فرض زكوات الاموال و قدمها على فرض الحج لان فى الحج مع انفاق المال سفرا شاقا فكانت النفس الى الزكاة اسرع اجابة منها الى الحج فكان فى ايجابها مواساة للفقراء و معونة لذوى الحاجات تكفهم عن البغضاء و تمنعهم من التقاطع وتبعثهم على التواصل لان الآمل وصول و الراجى هائب و اذا زال الامل وانقطع الرجاء و اشتدت الحاجة وقعت البغضاء واشتد الحسد فحدث التقاطع بين ارباب الاموال و الفقراء * و وقعت العداوة بين ذوى الحاجات و الاغنياء * حتى تفضى الى التغالب على الاموال و التغرير بالنفوس هذا مع ما فى اداء الزكاة من تمرين النفس على السماحة المحمودة و مجانبة الشح المذموم لان السماحة تبعث على اداء الحقوق والشح يصد عنها وما يبعث على اداء الحقوق فاجدر به حمدا وما صد عنها فاخلق به ذما وقد روى ابو هريرة رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال شر ما اعطى العبد شح هالع * وجبن خالع * فسبحان من دبرنا بلطيف حكمته * واخفى عن فطنتنا جزيل نعمته * حتى استوجب من الشكر باخفائها اعظم مما استوجبه بابدائها ثم فرض الحج فكان آخر فروضه لانه يجمع عملا على بدن وحقا فى مال فجعل فرضه بعد استقرار فروض الابدان وفروض الاموال ليكون استئناسهم بكل واحد من النوعين ذريعة الى تسهيل ما جمع بين النوعين فكان فى ايجابه تذكير ليوم الحشر بمفارقة المال والاهل وخضوع العزيز و الذليل فى الوقوف بين يديه واجتماع المطيع والعاصى فى الرهبة منه والرغبة اليه واقلاع اهل

المعاصى

المعاصى عما اجترحوه وندم المذنبين على ما اسلفوه فقل من حج الا واحدث توبة من ذنب واقلاعا من معصية ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم من علامة الحجة المبرورة ان يكون صاحبها بعدها خيرا منه قبلها وهذا صحيح لان الندم على الذنوب مانع من الاقدام عليها والتوبة مكفرة لما سلف منها فذا كف عما كان يقدم عليه انبأ عن صحة توبته وصحة التوبة تقتضى قبول حجته ثم نبه بما يعانى فيه من مشاق السفر المؤدى اليه على موضع النعمة برفاهة الاقامة وانسة الاوطان ليحنوا على من سلب هذه النعمة من ابناء السبيل ثم اعلم بمشاهدة حرمه الذى انشأ منه دينه وبعث فيه رسوله ثم بمشاهدة دار الهجرة التى اعز الله بها اهل طاعته واذل بنصرة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام اهل معصيته حتى خضع له عظماء المتجبرين * وتذلل له زعماء المتكبرين * انه لم ينتشر عن ذلك المكان المنقطع ولا قوى بعد الضعف البين حتى طبق الارض شرقا وغربا الا بمعجزة ظاهرة ونصر عزيز فاعتبر الهمك الله الشكر ووفقك للتقوى انعامه عليك فيما كلفك واحسانه اليك فيما تعبدك فقد وكلتك الى فطنتك واحلتك على بصيرتك بعد ان كنت لك رائدا صدوقا * وناصحا شفوقا * هل تحسن نهوضا بشكره اذا فعلت ما امرك وتقبلت ما كلفك كلا انه لا يوليك نعمة توجب الشكر الا وصلها قبل شكر ما سلف بنعمة توجب الشكر فى المؤتنف وقال الحسن بن على نعم الله اكثر من ان تشكر الا ما اعان عليه وذنوب ابن آدم اكثر من ان تغفر الا ما عفى عنه وانشدت لمنصور بن اسمعيل الفقيه المصرى رحمه الله تعالى

* شكر الاله نعمة * موجبة لشكره *
* فكيف شكرى بره * وشكره من بره *

واذا كنت عن شكر نعمه عاجزا فكيف بك اذا قصرت فيما امرك او فرطت فيما كلفك ونفعه اعود عليك لو فعلته هل تكون لسوابغ نعمه الا كفورا * وببداية العقول الا مزجورا * وقد قال الله تعالى يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها قال مجاهد اى يعرفون ما عدد الله عليهم من نعمه وينكرونها بقولهم انهم ورثوها عن آبائهم واكتسبوها بافعالهم وروى عن النبى صلى الله

عليه وسلم انه قال يقول الله يا ابن آدم ما انصفتني أتحبب اليك بالنعم وتتمقت الىّ بالمعاصي خيري اليك نازل وشرك الىّ صاعد كم من ملك كريم يصعد الىّ منك بعمل قبيح وقال بعض صلحاء السلف قد اصبح بنا من نعم الله تعالى ما لا نحصيه * مع كثرة ما نعصيه * فلا ندري ايهما نشكر * أجميل ما ينشر * ام قبيح ما يستر * فحق على من عرف موضع النعمة ان يقابلها ممتثلا لما كلف منها وقبولها يكون بآدائها * ثم يشكر الله تعالى على ما انعم من ابتدائها * فان بنا من الحاجة الى نعمه اكثر مما كلفنا من شكر نعمه فان نحن ادينا حق النعمة في التكليف تفضل بابتداء النعمة من غير جهة التكليف فلزمت النعمتان ومن لزمته النعمتان فقد اوتي حظ الدنيا والآخرة وهذا هو السعيد بالاطلاق وان قصرنا في آداء ما كلفنا من شكره قصر عنا ما لا تكليف فيه من نعمه فنفرت النعمتان ومن نفرت عنه النعمتان فقد سلب حظ الدنيا والآخرة فلم يكن له في الحياة حظ ولا في الموت راحة وهذا هو الشقي بالاستحقاق وليس يختار الشقوة على السعادة ذو لب صحيح ولا عقل سليم وقد قال الله تعالى ليس بامانيكم ولا اماني اهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به وروى الاعمش عن سليم قال قال ابو بكر الصديق رضى الله عنه يا رسول الله ما اشد هذه الآية من يعمل سوءا يجز به فقال يا ابا بكر ان المصيبة في الدنيا جزاء واختلف المفسرون في تأويل قوله تعالى سنعذبهم مرتين فقال بعضهم احد العذابين الفضيحة في الدنيا والثاني عذاب القبر وقال عبد الرحمن بن يزيد احد العذابين مصائبهم في الدنيا في اموالهم واولادهم والثاني عذاب الآخرة في النار وليس وان نال اهل المعاصي لذة من عيش او ادركوا امنية من دنيا كانت عليهم نعمة بل قد يكون ذلك استدراجا ونقمة وروى ابن لهيعة عن عقبة بن مسلم بن عامر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رأيت الله تعالى يعطي العباد ما يشاؤن على معاصيهم اياه فانما ذلك استدراج منه لهم ثم تلا فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل شئ حتى اذا فرحوا بما اوتوا اخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون فاما المحرمات التي يمنع الشرع منها واستقر التكليف عقلا او شرعا بالنهي عنها فتنقسم قسمين منها ما تكون النفوس داعية اليها والشهوات باعثة عليها كالسفاح وشرب الخمر فقد زجر الله عنها

لقوة الباعث عليها وشدة الميل اليها بنوعين من الزجر احدهما حد عاجل يرتدع به الجرئ والثانى وعيد آجل يزدجر به التقى ومنها ما تكون النفوس نافرة منها والشهوات مصروفة عنها كاكل الخبائث والمستقذرات وشرب السموم المتلفات فاقتصر الله فى الزجر عنها بالوعيد وحده دون الحد لان النفوس مسعدة فى الزجر عنها ومصروفة عن ركوب المحظور منها ثم اكد الله زواجره بانكار المنكرين لها فاوجب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ليكون الامر بالمعروف تاكيدا لاوامره والنهى عن المنكر تأييدا لزواجره لان النفوس الاشرة قد الهتها الصبوة عن اتباع الاوامر * واذهلتها الشهوة عن تذكار الزواجر * وكان انكار المجانسين ازجر لها وتوبيخ المخالطين ابلغ فيها ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم ما اقر قوم المنكر بين اظهرهم الا عمهم الله بعذاب محتضر واذا كان ذلك فلا يخلو حال فاعلى المنكر من احد الامرين احدهما ان يكونوا آحادا متفرقين * وافرادا متبددين * لم يتحزبوا فيه ولم يتظافروا عليه وهم رعية مقهورون * واشذاذ مستضعفون * فلا خلاف بين الناس ان امرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر مع المكنة وظهور القدرة واجب على من شاهد ذلك من فاعليه * او سمعه من قائليه * وانما اختلفوا فى وجوب ذلك على منكريه هل وجب عليهم بالعقل او بالشرع فذهب بعض المتكلمين الى وجوب ذلك بالعقل لانه لما وجب بالعقل وجب ان يمتنع من القبيح ووجب ايضا بالعقل ان يمنع غيره منه لان ذلك ادعى الى مجانبته * وابلغ فى مفارقته * وقد روى عبدالله بن المبارك رحمه الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان قوما ركبوا سفينة فاقتسموا فاخذ كل واحد منهم موضعا فنقر رجل منهم موضعه بفاس فقالوا ما تصنع فقال هو مكانى اضع فيه ما شئت فلم يأخذوا على يديه فهلك وهلكوا وذهب آخرون الى وجوب ذلك بالشرع دون العقل لان العقل لو اوجب النهى عن المنكر ومنع غيره من القبيح لوجب مثله على الله تعالى ولما جاز ورود الشرع باقرار اهل الذمة على الكفر وترك النكير عليهم لان واجبات العقول لا يجوز ابطالها بالشرع وفى ورود الشرع بذلك دليل على ان العقل غير موجب لانكاره فاما اذا كان فى ترك انكاره مضرة لاحقة بمنكره

وجب انكاره بالعقل على القولين معا واما ان لحق المنكر مضرة من انكاره ولم تلحقه من كفه واقراره لم يجب عليه الانكار بالعقل ولا بالشرع اما العقل فلانه يمنع من اجتلاب المضار التي لا يوازيها نفع واما الشرع فقد روى ابو سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال انكر المنكر بيدك فان لم تستطع فبلسانك فان لم تستطع فبقلبك و ذلك اضعف الايمان فان اراد الاقدام على الانكار مع لحوق المضرة به نظر فان لم يكن اظهار النكير مما يتعلق باعزاز دين الله و لا اظهار كلمة الحق لم يجب عليه النكير اذا خشى بغالب الظن تلفا او ضررا و لم يخش منه النكير ايضا و ان كان في اظهار النكير اعزاز دين الله تعالى و اظهار كلمة الحق حسن منه النكير مع خشية الاضرار و التلف و ان لم يجب عليه اذا كان الغرض قد يحصل له بالنكير و ان انتصر او قتل و على هذا الوجه قال النبي صلى الله عليه و سلم ان من افضل الاعمال كلمة حق عند سلطان جائر فاما اذا كان يقتل قبل حصول الغرض قبح في العقل ان يتعرض لانكاره وكذلك لو كان الانكار يزيد المنهى اغراء بفعل المنكر و لجاجا في الاكثار منه قبح في العقل انكاره ﴿و الحال الثانية﴾ ان يكون فعل المنكر من جماعة قد تظافروا عليه و عصبة قد تحزبت ودعت اليه وقد اختلف الناس في وجوب انكاره على مذاهب شتى فقالت طائفة من اصحاب الحديث و اهل الآثار لا يجب انكاره و الاولى بالانسان ان يكون كافا ممسكا و ملازما لبيته وادعا غير منكر و لا مستفز و قالت طائفة اخرى ممن يقول بظهور المنتظر لا يجب انكاره و لا التعرض لازالته الا ان يظهر المنتظر فيتولى انكاره بنفسه و يكونوا اعوانه و قالت طائفة اخرى منهم الاصم لا يجوز للناس انكاره الا ان يجتمعوا على امام عدل فيجب عليهم الانكار معه وقال جمهور المتكلمين انكار ذلك واجب والدفع عنه لازم على شروطه في وجود اعوان يصلحون له فاما مع فقد الاعوان فعلى الانسان الكف لان الواحد قد يقتل قبل بلوغ الغرض وذلك قبيح في العقل ان يتعرض له فهذا ما اكد الله تعالى به اوامره و ايد به زواجره من الامر بالمعروف و النهى عن المنكر و ما يختلف من احوال الآمرين به و الناهين عنه ثم ليس يخلو حال الناس فيما امروا به و نهوا عنه من فعل الطاعات و اجتناب المعاصى من اربعة احوال

فمنهم من يستجيب الى فعل الطاعات و يكف عن ارتكاب المعاصى وهذا اكمل احوال اهل الدين و افضل صفات المتقين فهذا يستحق جزاء العاملين و ثواب المطيعين روى محمد بن عبد الملك المدائنى عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الذنب لاينسى و البر لا يبلى والديان لا يموت فكن كما شئت و كما تدين تدان وقد قيل كل يحصد ما يزرع * و يجزى بما يصنع * بل قالوا زرع يومك حصاد غدك و منهم من يمتنع من فعل الطاعات و يقدم على ارتكاب المعاصى و هى اخبث احوال المكلفين فهذا يستحق عذاب اللاهى عن فعل ما امر به من طاعته و عذاب المجترى على ما اقدم عليه من معاصيه و قد قال ابن شبرمة عجبت لمن يحتمى من الطيبات مخافة الداء كيف لا يحتمى من المعاصى مخافة النار فاخذ ذلك بعض الشعراء فقال

* جسمك قد افنيته بالحمى * دهرا من البارد و الحار *
* وكان اولى بك ان تحتمى * من المعاصى حذر النار *

و قال ابن صباوة انا نظرنا فوجدنا الصبر على طاعة الله تعالى اهون من الصبر على عذاب الله تعالى وقال آخر اصبروا عباد الله على عمل لا غنى بكم عن ثوابه * و اصبروا عن عمل لا صبر لكم على عقابه * و قيل للفضيل بن عياض رضى الله عنه رضى الله عنك فقال كيف يرضى عنى ولم ارضه و منهم من يستجيب الى فعل الطاعات و يقدم على ارتكاب المعاصى فهذا يستحق عذاب المجترى لانه تورط بغلبة الشهوة على الاقدام على المعصية و ان سلم من التقصير فى فعل الطاعة و قد روى عن النبى صلى الله عليه و سلم انه قال اقلعوا عن المعاصى قبل ان يأخذكم الله هتا بتا الهت الكسر و البت القطع و لذلك قال بعض العلماء افضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه * ولم تترك الشبهة يقينه * وقال حماد بن زيد عجبت لمن يحتمى من الاطعمة لمضراتها * كيف لا يحتمى من الذنوب لمعراتها * و قال بعض الصلحاء اهل الذنوب * مرضى القلوب * وقيل للفضيل بن عياض رحمه الله ما اعجب الاشياء فقال قلب عرف الله عز و جل ثم عصاه و قال بعض الالباء يدل بالطاعة العاصى و ينسى عظيم المعاصى و قال رجل لابن عباس رضى الله عنه ايما احب اليك رجل قليل الذنوب قليل العمل او رجل كثير

الذنوب كثير العمل فقال ابن عباس رضى الله عنه لا اعدل بالسلامة شيئا و قيل لبعض الزهاد ما تقول فى صلاة الليل فقال خف الله بالنهار و نم بالليل و سمع بعض الزهاد رجلا يقول لقوم اهلككم النوم فقال بل اهلكتكم اليقظة و قيل لابى هريرة رضى الله عنه ما التقوى فقال أجزت فى ارض فيها شوك فقال نعم فقال كيف كنت تصنع فقال كنت اتوقى قال فتوق الخطايا و قال عبدالله بن المبارك

* أيضمن لى فتى ترك المعاصى * و ارهنه الكفالة بالخلاص *
* اطاع الله قوم و استراحوا * ولم يتجرعوا غصص المعاصى *

و منهم من يمتنع من فعل الطاعات و يكف عن ارتكاب المعاصى فهذا يستحق عذاب اللاهى عن دينه المنذر بقلة يقينه وروى ابو ادريس الخولانى عن ابى ذر الغفارى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال كانت صحف موسى على نبينا و عليه السلام كلها عبرا عجبت لمن ايقن بالنار ثم يضحك و عجبت لمن ايقن بالقدر ثم يتعب و عجبت لمن رأى الدنيا و تقلبها باهلها ثم ثم يطمئن اليها و عجبت لمن ايقن بالموت ثم يفرح و عجبت لمن ايقن بالحساب غدا ثم لا يعمل و روى عن النبى صلى الله عليه و سلم انه قال اجتهدوا فى العمل فان قصر بكم ضعف فكفوا عن المعاصى و هذا واضح المعنى لان الكف عن المعاصى ترك وهو اسهل * و عمل الطاعات فعل و هو اثقل * و لذلك لم يبح الله تعالى ارتكاب المعصية بعذر و لا بغير عذر لانه ترك و الترك لا يعجز المعذور عنه و انما اباح ترك الاعمال بالاعذار لان العمل قد يعجز المعذور عنه و قال بكر بن عبدالله رحم الله امرءا كان قويا فاعمل قوته فى طاعة الله تعالى او كان ضعيفا فكف عن معصية الله تعالى و قال عبد الاعلى بن عبدالله الشامى رحمه الله تعالى

* العمر ينقص و الذنوب تزيد * و تقال عثرات الفتى فيعود *
* هل يستطيع جحود ذنب واحد * رجل جوارحه عليه شهود *
* والمرء يسأل عن سنيه فيشتهى * تقليلها و عن الممات يحيد *

واعلم ان لاعمال الطاعات ومجانبة المعاصى آفتين احداهما تكسب الوزر والاخرى

توهن الاجر فاما المكسبة للوزر فاعجاب بما سلف من عمله و قدم من طاعته لان الاعجاب به يفضى الى حالتين مذمومتين احداهما ان المعجب بعمله ممتن به والممتن على الله تعالى جاحد لنعمه قال ابن عباس رضى الله عنهما اوحى الله تعالى الى نبى من انبيائه اما زهدك فى الدنيا فقد استعجلت به الراحة واما انقطاعك الى فهو عز لك فهذان لك و بقيت انا و الثانية ان المعجب بعمله مدل به و المدل بعمله مجترى والمجترى على الله عاص وقال مورق العجلى خير من المعجب بالطاعة ان لا يأتى بطاعة وقال بعض السلف ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدل على ربه و باك نادم على ذنبه خير من ضاحك معترف بلهوه و اما الموهنة للاجر فالثقة بما اسلف والركون الى قدم لان الثقة تؤول الى امرين شينين احدهما يحدث اتكالا على ما مضى وتقصيرا فيما يستقبل ومن قصر و اتكل لم يرج اجرا ولم يؤد شكرا و الثانى ان الواثق آمن والآمن من الله تعالى غير خائف و من لم يخف الله تعالى هانت عليه اوامره وسهلت عليه زواجره و قال الفضيل بن عياض رهبة المرء من الله تعالى على قدر علمه بالله تعالى وقال مورق العجلى لان ابيت نائما واصبح نادما احب الى من ان ابيت قائما واصبح ناعما وقال الحكماء ما بينك وبين ان لا يكون فيك خير الا ان ترى ان فيك خيرا وقيل لرابعة العدوية رحمها الله هل عملت عملا قط ترين انه يقبل منك قالت ان كان شئ فخوفى ان يرد على عملى وقال ابن السماك رحمة الله عليه انا لله فيما مضى ما اعظم فيه الخطر * وانا لله فيما بقى ما اقل منه الحذر * وحكى ان بعض الزهاد وقف على جمع فنادى باعلى صوته يا معشر الاغنياء لكم اقول استكثروا من الحسنات فان ذنوبكم كثيرة ويا معشر الفقراء لكم اقول اقلوا من الذنوب فان حسناتكم قليلة فينبغى احسن الله اليك بالتوفيق ان لا تضيع صحة جسمك وفراغ وقتك بالتقصير فى طاعة ربك والثقة بسالف عملك فاجعل الاجتهاد غنيمة صحتك والعمل فرصة فراغك فليس كل الزمان مستعد ولا ما فات مستدرك وللفراغ زيغ او ندم وللخلوة ميل او اسف وقال عمر بن الخطاب الراحة للرجال غفلة وللنساء غلمة وقال بزرجمهر ان يكن الشغل مجهدة فالفراغ مفسدة وقال بعض الحكماء اياكم والخلوات فانها تفسد العقول و تعقد المحلول وقال بعض البلغاء لا تمضى

يومك فى غير منفعة ولا تضع مالك فى غير صنعة فالعمر اقصر من ان ينفد فى غير المنافع * والمال اقل من ان يصرف فى غير الصنائع * والعاقل اجل من ان يفنى ايامه فيما لايعود عليه نفعه وخيره * وينفق امواله فيما لايحصل له ثوابه واجره * وابلغ من ذلك قول عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام البر ثلاثة المنطق والنظر والصمت فمن كان منطقه فى غير ذكر فقد لغا ومن كان نظره فى غير اعتبار فقد سها ومن كان صمته فى غير فكر فقد لها واعلم ان للانسان فيما كلف من عباداته ثلاث احوال احداها ان يستوفيها من غير تقصير فيها ولا زيادة عليها والثانية ان يقصر فيها والثالثة ان يزيد عليها فاما الحال الاولى فهى ان يأتى بها على حال الكمال من غير زيادة فيها ولا زيادة تطوع على راتبها فهى اوسط الاحوال واعدلها لانه لم يكن منه تقصير فيذم ولا تكثير فيعجز وقد روى سعيد بن ابى سعيد رضى الله عنه عن ابى هريرة رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال سددوا وقاربوا ويسروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشئ من الدلجة وقال الشاعر

* عليك بأوساط الامور فانها * نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا *

واما الحال الثانية وهو ان يقصر فيها فلا يخلو حال تقصيره من اربعة احوال احداهن ان يكون لعذر اعجزه عنه او مرض اضعفه عن اداء ما كلف به فهذا يخرج عن حكم المقصرين ويلحق باحوال العاملين لاستقرار الشرع على سقوط ما دخل تحت العجز وقد جاء الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ما من عامل كان يعمل عملا فيقطعه عنه مرض الا وكل الله تعالى به من يكتب له ثواب عمله والحال الثانية ان يكون تقصيره فيه اغترارا بالمسامحة فيه ورجاء العفو عنه فهذا مخدوع العقل مغرور بالجهل فقد جعل الظن ذخرا والرجاء عدة فهو كمن قطع سفرا بغير زاد ظنا بانه سيجده فى المفاوز الجدبة فيفضى به الظن الى الهلكة وهلا كان الحذر اغلب عليه وقد ندب الله تعالى اليه وحكى ان اسرائيل بن محمد القاضى قال لقينى مجنون كان فى الخرابات فقال يا اسرائيل خف الله خوفا يشغلك عن الرجاء فان الرجاء يشغلك عن الخوف وفر الى الله ولا تفر منه وقيل لمحمد بن واسع رحمه الله ألا تبكى فقال تلك حلية الآمنين

وحكى ان ابا حازم الاعرج اخبر سليمان بن عبد الملك بوعيد الله للمذنبين فقال سليمان اين رحمة الله قال قريب من المحسنين وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ما انتفعت و لا اتعظت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل كتاب كتبه الى علىّ بن ابى طالب كرم الله وجهه اما بعد فان الانسان ليسره درك ما لم يكن ليفوته و يسوءه فوت ما لم يكن ليدركه فلا تكن بما نلته من دنياك فرحا * ولا لما فاتك منها ترحا * ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل * ويؤخر التوبة بطول الامل * فكأن قد والسلام وقال محمود الوراق رحمه الله

* اخاف على المحسن المتقى * وارجو لذى الهفوات المسى *
* فذلك خوفى على محسن * فكيف على الظالم المعتدى *
* على ان ذا الزيغ قد يستفيق * و يستأنف الزيغ قلب التقى *

والحال الثالثة ان يكون تقصيره فيه ليستوفى ما اخل به من بعد فيبدأ بالسيئة فى التقصير قبل الحسنة فى الاستيفاء اغترارا بالامل فى امهاله * ورجاء لتلافى ما اسلف من تقصيره واخلاله * فلا ينتهى به الامل الى غايه * ولا يفضى به الى نهايه * لان الامل هو فى ثانى حال * كهو فى اول حال * فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من يؤمل ان يعيش غدا * فانه يؤمل ان يعيش ابدا * ولعمرى ان هذا صحيح لان لكل يوم غد فاذا يفضى به الامل الى الفوت من غير درك ويؤديه الرجاء الى الاهمال من غير تلاف فيصير الامل خيبة والرجاء اياسا وقد روى عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده ان النبى صلى الله عليه وسلم قال اول صلاح هذه الامة بالزهد و اليقين وفسادها بالبخل و الامل وقال الحسن البصرى رحمه الله ما اطال عبد الامل * الا اساء العمل * وقال رجل لبعض الزهاد بالبصرة ألك حاجة ببغداد قال ما احب ان ابسط املى الى ان تذهب الى بغداد وتجئ وقال بعض الحكماء الجاهل يعتمد على امله * والعاقل يعتمد على عمله * وقال بعض البلغاء الامل كالسراب غر من رآه * وخاب من رجاه * وقال محمد بن يزدان دخلت على المأمون وكنت يومئذ وزيره فرأيته قائما وبيده رقعة فقال يا محمد أقرأت ما فيها فقلت هى فى يد امير المؤمنين فرمى بها الىّ فاذا فيها مكتوب

* انك فى دار لهـا مدة * يقبل فيهـا عمل العامل *
* أما ترى الموت محيطا بها * يقطع فيهـا امل الآمل *
* تعجل بالذنب لمـا تشتهى * و تأمل التوبة من قابل *
* و الموت يأتى بعد ذا بغتة * ماذاك فعل الحازم العاقل *

فلما قرأتها قال المأمون رحمه الله تعالى هذا من احكم شعر قرأته و قال ابو حازم الاعرج نحن لا نريد ان نموت حتى نتوب ونحن لا نتوب حتى نموت و قال بعض البلغاء زائد الاهمال * رائد الاموال * و الحال الرابعة ان يكون تقصيره فيه استثقالا للاستيفاء وزهدا فى التمام واقتصارا على ما سنح وقلة اكتراث فيما بقى فهذا على ثلاثة اضرب * احدها * ان يكون ما اخل به وقصر فيه غير قادح فى فرض ولا مانع من عبادة كمن اقتصر فى العبادة على فعل واجباتها وعمل مفترضاتها و اخل بمسنوناتها وهيآتها فهذا مسئ فيما ترك اساءة من لا يستحق وعيدا ولا يستوجب عتابا لان اداء الواجب يسقط عنه العقاب * واخلاله بالمسنون يمنع من اكمال الثواب * وقد قال بعض الحكماء من تهاون بالدين هان * ومن غالب الحق لان * وقال الشاعر

* و يصون توبته ويترك غير ذلك لا يصونه *
* واحق ما صان الفتى * و رعا امانته ودينه *

* والضرب الثانى * ان يكون ما اخل به عن مفروض عبادته لكن لا يقدح ترك ما بقى فيما مضى كمن اكمل عبادات واخل بغيرها فهذا اسوأ حالا ممن تقدمه لما استحقه من الوعيد واستوجبه من العتاب * والضرب الثالث * ان يكون ما اخل به من مفروض عبادته وهو قادح فيما عمل منها كالعبادة التى يرتبط بعضها ببعض فيكون المقصر فى بعضها تاركا لجميعها فلا يحتسب له ما عمل لاخلاله بما بقى فهذا اسوأ احوال المقصرين وحاله لاحقة باحوال التاركين بل قد تكلف ما لا يسقط فرضا ولا يؤدى حقا فقد ساوى التاركين فى استحقاق الوعيد وزاد عليهم فى تكلف ما لا يفيد فصار من الاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ثم لعله لا يفطن لشانه * ولا يشعر بخسرانه * وقد خسر الدنيا والآخرة و يفطن لليسير من ماله ان وهى واختل و انشدنى بعض اهل العلم

* أبنىّ ان من الرجال بهيمة * فى صورة الرجل السميع المبصر *
* فطن بكل مصيبة فى ماله * و اذا يصاب بدينه لم يشعر *

﴿ واما الحال الثالثة ﴾ وهو ان يزيد فيما كلف فهذا على ثلاثة اقسام احدها ان تكون الزيادة رياء للناظرين وتصنعا للمخلوقين حتى يستعطف به القلوب النافرة ويخدع به العقول الواهية فيتبهرج بالصلحاء وليس منهم ويتدلس فى الاخيار وهو ضدهم وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم للمرائى بعمله مثلا فقال المتشبع بما لا يملك كلابس ثوب زور يريد بالمتشبع بما لايملك المتزين بما ليس فيه وقوله كلابس ثوب زور وهو الذى يلبس ثياب الصلحاء فهو برياءه محروم الاجر مذموم الذكر لانه لم يقصد وجه الله تعالى فيؤجر عليه ولا يخفى رياؤه على الناس فيحمد به قال الله تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه احدا قال جميع اهل التأويل معنى قوله ولا يشرك بعبادة ربه احدا اى لايرائى بعمله احدا فجعل الرياء شركا لانه جعل ما يقصد به وجه الله تعالى مقصودا به غيرالله تعالى وقال الحسن البصرى رحمه الله تعالى فى قوله تعالى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها قال لا تجهر بها رياء * ولا تخافت بها حياء * وكان سفيان بن عيينة رحمه الله يتأول قوله تعالى ان الله يأمر بالعدل و الاحسان و ايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء و المنكر و البغى ان العدل استواء السريرة والعلانية فى العمل لله تعالى والاحسان ان تكون سريرته احسن من علانيته والفحشاء و المنكر ان تكون علانيته احسن من سريرته وكان غيره يقول العدل شهادة ان لا اله الا الله و الاحسان الصبر على امره و نهيه وطاعة الله فى سره و جهره و ايتاء ذى القربى صلة الارحام وينهى عن الفحشاء يعنى الزنا و المنكر القبائح و البغى الكبر و الظلم و ليس يخرج الرياء بالاعمال من هذا التأويل ايضا لانه من جملة القبائح وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال أخوف ما اخاف على امتى الرياء الظاهر و الشهوة الخفية و روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اشد الناس عذابا يوم القيامة من يرى ان فيه خيرا ولا خير فيه و قال على بن ابى طالب كرم الله وجهه لا تعمل شيئا من الخير رياء و لا تتركه

حياء و قال بعض العلماء كل حسنة لم يرد بها وجه الله تعالى فعلتها قبح الرياء *
و ثمرتها سوء الجزاء و قد يفضى الرياء بصاحبه الى استهزاء الناس به كما حكى ان
طاهر بن الحسين قال لابى عبد الله المروزى منذ كم صرت الى العراق يا اباعبدالله
قال دخلت العراق منذ عشرين سنة و انا منذ ثلاثين سنة صائم فقال يا ابا عبدالله
سألتك عن مسألة فاجبت عن مسألتين و حكى الاصمعى رحمه الله ان اعرابيا صلى
فاطال و الى جانبه قوم فقالوا ما احسن صلاتك فقال و انا مع ذلك صائم

* صلى فأعجبنى وصام فرابنى * نحى القلوص من المصلى الصائم *

فانظر الى هذا الرياء مع قبحه ما ادله على سخف عقل صاحبه وربما ساعد الناس
مع ظهور ريائه على الاستهزاء بنفسه كالذى حكى ان زاهدا نظر الى رجل فى وجهه
سجادة كبيرة و اقفا على باب السلطان فقال مثل هذا الدرهم بين عينيك و انت
واقف ههنا فقال انه ضرب على غير السكة وهذا من اجوبة الخلاعة التى يدفع
بها تهجين المذمة و لقد استحسن الناس من الاشعث بن قيس قوله و قد خفف
صلاته مرة فقال بعض اهل المسجد خففت صلاتك جدا فقال انه لم يخالطها
رياء فتخلص من تنقيصهم بنفى الرياء عن نفسه و رفع التصنع فى صلاته و قد كان
الانكار لولا ذلك متوجها عليه و اللوم لاحقا به و مر ابو امامة ببعض المساجد
فاذا رجل يصلى وهو يبكى فقال له انت انت لو كان هذا فى بيتك فلم ير ذلك
منه حسنا لانه اتهمه بالرياء و لعله كان بريئا منه فكيف بمن صار الرياء اغلب
صفاته * واشهر سماته * مع انه آثم فيما عمل * اثم من هبوب النسيم بما حمل *
ولذلك قال عبد الله بن المبارك افضل الزهد اخفاء الزهد وربما احس ذو الفضل
من نفسه ميلا الى المراآة فبعثه الفضل على هتك ما نازعته النفس من المراآة
فكان ذلك ابلغ فى فضله كالذى حكى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه
احس على المنبر بريح خرجت منه فقال ايها الناس انى قد مثلت بين ان اخافكم
فى الله تعالى وبين ان اخاف الله فيكم فكان ان اخاف الله فيكم احب الى ألا و انى
قد فسوت وها انا نازل اعيد الوضوء فكان ذلك منه زجرا لنفسه لتكف
عن نزاعها الى مثله وقال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القرظى عظنى
فقال لا ارضى نفسى لك واعظا لانى اجلس بين الغنى و الفقير فاميل على الفقير

واوسع

واوسع للثنى ولان طاعة الله تعالى فى العمل لوجهه لا لغيره وحكى ان قوما ارادوا سفرا فحادوا عن الطريق فانتهوا الى راهب فقالوا قد ضللنا فكيف الطريق فقال ههنا واومأ بيده الى السماء ﴿ والقسم الثالث ﴾ ان يفعل الزيادة اقتداء بغيره وهذا قد تثمره مجالسة الاخيار الافاضل * وتحدثه مكاثرة الاتقياء الاماثل * ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم المرء على دين خليله فلينظر احدكم من يخالل فاذا كاثرهم المجالس * وطاولهم المؤانس * احب ان يقتدى بهم فى افعالهم * ويتأسى بهم فى اعمالهم * ولا يرضى لنفسه ان يقصر عنهم ولا ان يكون فى الخير دونهم فتبعثه المنافسة على مساواتهم وربما دعته الحمية الى الزيادة عليهم والمكاثرة لهم فيصيروا سببا لسعادته * وباعثا على استزادته * والعرب تقول لولا اللوام * هلك الانام * اى لولا ان الناس يرى بعضهم بعضا فيقتدى بهم فى الخير لهلكوا ولذلك قال بعض البلغاء من خير الاختيار * صحبة الاخيار * ومن شر الاختيار مودة الاشرار * وهذا صحيح لان للمصاحبة تأثيرا فى اكتساب الاخلاق فتصلح اخلاق المرء بمصاحبة اهل الصلاح وتفسد بمصاحبة اهل الفساد ولذلك قال الشاعر

* رأيت صلاح المرء يصلح اهله * ويعديهم عند الفساد اذا فسد *
* يعظم فى الدنيا بفضل صلاحه * ويحفظ بعد الموت فى الاهل والولد *

وانشدنى بعض اهل الادب لابى بكر الخوارزمى

* لا تصحب الكسلان فى حالاته * كم صالح بفساد آخر يفسد *
* عدوى البليد الى الجليد سريعة * والجمر يوضع فى الرماد فيخمد *

﴿ والقسم الثالث ﴾ ان يفعل الزيادة ابتداء من نفسه التماسا لثوابها ورغبة فى الزلفة بها فهذا من نتائج النفس الزاكية * ودواعى الرغبة الوافية * الدالين على خلوص الدين * وصحة اليقين * وذلك افضل احوال العاملين * واعلى منازل العابدين * وقد قيل الناس فى الخير اربعة منهم من يفعله ابتداء * ومنهم من يفعله اقتداء * ومنهم من يتركه استحسانا * ومنهم من يتركه حرمانا * فمن فعله ابتداء فهو كريم * ومن فعله اقتداء فهو حكيم * ومن تركه استحسانا فهو ردى * ومن تركه حرمانا فهو شقى * ثم لما

يفعله من الزيادة حالتان ﴿ احداهما ﴾ ان يكون مقتصدا فيها و قادرا على الدوام عليها فهي افضل الحالتين * واعلى المنزلتين * عليها القرض اخيار السلف * و تبعهم فيها فضلاء الخلف * وقد روت عائشة رضى الله عنها ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ايها الناس افعلوا من الاعمال ما تطيقون فان الله لا يمل من الثواب حتى تملوا من العمل وخير الاعمال ما ديم عليه والعرب تقول القصد والدوام وانت السابق الجواد ولان من كان صحيح الرغبة فى ثواب الله تعالى لم يكن له مسرة الا فى طاعته و قال عبد الله بن المبارك قلت لراهب متى عيدكم قال كل يوم لا اعصى الله فيه فهو يوم عيد انظر الى هذا القول منه و ان لم يكن من مقاصد الطاعة ما ابلغه فى حب الطاعه * واحثه على بذل الاستطاعه * و خرج بعض الزهاد فى يوم عيد فى هيئة رثة فقيل لم تخرج فى مثل هذا اليوم فى مثل هذه الهيئة و الناس متزينون فقال ما يتزين لله تعالى بمثل طاعته ﴿ و الحالة الثانية ﴾ ان يستكثر منها استكثار من لا ينهض بدوامها ولا يقدر على اتصالها فهذا ربما كان بالمقصر اشبه لان الاستكثار من الزيادة اما ان يمنع من اداء اللازم فلا يكون الا تقصيرا لانه تطوع بزيادة احدثت نقصا وبنفل منع فرضا واما ان يعجز عن استدامة الزيادة ويمنع من ملازمة الاستكثار من غير اخلال بلازم ولا تقصير فى فرض فهى اذا قصيرة المدى قليلة اللبث وتقليل العمل فى طويل الزمان افضل عند الله عز وجل من تكثير العمل فى قصير الزمان لان المستكثر من العمل فى الزمان القصير قد يعمل زمانا و يترك زمانا فربما صار فى زمان تركه لاهيا او ساهيا والمقلل فى الزمان الطويل مستيقظ الافكار * مستديم التذكار * وقد روى ابو صالح عن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان الاسلام شرة وللشرة فترة فمن سدد و قارب فارجوه * و من اشير اليه بالاصابع فلا تعدوه * فجعل الاسلام شرة وهى الايغال فى الاكثار * وجعل للشرة فترة و هى الاهمال بعد الاستكثار * فلم يخل بما اثبت من ان تكون هذه الزيادة تقصيرا او اخلالا ولا خير فى واحد منهما ﴿ واعلم ﴾ جعل الله العلم حاكما لك وعليك * والحق قائدا لك واليك * ان الدنيا اذا وصلت

فتبعات موبقة * واذا فارقت ففجعات محرقة * وليس لوصلها دوام ولا من فراقها بد فرض نفسك على قطيعتها لتسلم من تبعاتها * وعلى فراقها لتأمن فجعاتها * فقد قيل المرء معترض * من عمره المنقرض * مع ان العمر وان طال قصير * والفراغ وان تم يسير * وانشدت لعلي بن محمد رحمه الله تعالى

* اذا كملت للمرء ستون حجة * فلم يحظ من ستين الا بسدسها *
* ألم تر ان النصف بالليل حاصل * وتذهب اوقات المقيل بخمسها *
* فتأخذ اوقات الهموم بحصة * واوقات اوجاع تميت بمسها *
* فحاصل ما يبقى له سدس عمره * اذا صدقته النفس عن علم حدسها *

ورياضة نفسك لذلك تترتب على احوال ثلاث وكل حالة منها تتشعب وهي لتسهيل ما يليها سبب ﴿ فالحالة الاولى ﴾ ان تصرف حب الدنيا عن قلبك فانها تلهيك عن آخرتك ولا تجعل سعيك لها فتمنعك حظك منها وتوق الركون اليها ولا تكون آمنا لها فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من اشرب قلبه حب الدنيا وركن اليها التاط منها بشغل لا يفرغ عناه * وامل لا يبلغ منتهاه * وحرص لا يدرك مداه * وقال عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام الدنيا لابليس مزرعة واهلها له حراث وقال علي بن ابي طالب مثل الدنيا مثل الحية لين مسها قاتل سمها فاعرض عما اعجبك منها لقلة ما يصحبك منها وضع عنك همومها لما ايقنت من فراقها وكن احذر ما تكون لها وانت آنس ما تكون بها فان صاحبها كلما اطمأن منها الى سرور اشخصه عنها مكروه وان سكن منها الى ايناس ازاله عنها ايحاش وقال بعض البلغاء الدنيا لا تصفو لشارب * ولا تبقى لصاحب * ولا تخلو من فتنة * ولا تخلي من محنة * فاعرض عنها قبل ان تعرض عنك واستبدل بها قبل ان تستبدل بك فان نعيمها يتنقل * واحوالها تتبدل * ولذاتها تفنى * وتبعاتها تبقى * وقال بعض الحكماء انظر الى الدنيا نظر الزاهد المفارق لها ولا تتأملها تأمل العاشق الوامق بها وقال بعض الشعراء

* ألا انما الدنيا كاحلام نائم * وما خير عيش لا يكون بدائم *
* تأمل اذا ما نلت بالامس لذة * فافنيتها هل انت الا كحالم *
* فكم غافل عنه وليس بغافل * وكم نائم عنه وليس بنائم *

و روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من هوان الدنيا على الله الا يعصى الا فيها ولا ينال ما عنده الا بتركها وروى سفيان ان الخضر قال لموسى عليهما السلام يا موسى اعرض عن الدنيا و انبذها وراءك فانها ليست لك بدار * ولا فيها محل قرار * وانما جعلت الدنيا للعباد * ليتزودوا منها للمعاد * وقال عيسى بن مريم عليه السلام الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها وقال على كرم الله وجهه يصف الدنيا اولها عناء * وآخرها فناء * حلالها حساب * وحرامها عقاب * من صح فيها امن ومن مرض فيها ندم ومن استغنى فيها فتن * ومن افتقر فيها حزن * ومن ساعاها فاتته * ومن قعد عنها اتته * ومن نظر اليها اعمته * ومن نظر بها بصرته * وقال بعض البلغاء ان الدنيا تقبل اقبال الطالب * وتدبر ادبار الهارب * وتصل وصال الملول * وتفارق فراق العجول * فخيرها يسير * وعيشها قصير * واقبالها خديعة * وادبارها فجيعة * ولذاتها فانية * وتبعاتها باقية * فاغتنم غفوة الزمان * وانتهز فرصة الامكان * وخذ من نفسك لنفسك وتزود من يومك لغدك وقال وهب بن منبه مثل الدنيا والآخرة مثل ضرتين ان ارضيت احداهما اسخط الاخرى وقال عبد الحميد الدنيا منازل * فراحل ونازل * وقال بعض الحكماء الدنيا اما نقمة نازله * واما نعمة زائله * وقيل فى منثور الحكم من الدنيا على الدنيا دليل وقال الشاعر

* تمتع من الايام ان كنت حازما * فانك منها بين ناه و آمر *
* اذا ابقت الدنيا على المرء دينه * فما فاته منها فليس بضائر *
* فلن تعدل الدنيا جناح بعوضة * ولا وزن ذر من جناح لطائر *
* فما رضى الدنيا ثوابا لمؤمن * ولا رضى الدنيا جزاء لكافر *

و روى عن النبى صلى الله عليه و سلم انه قال الدنيا يومان يوم فرح ويوم هم و كلاهما زائل عنك فدعوا ما يزول و اتعبوا نفوسكم فى العمل لما لا يزول و قال عيسى بن مريم عليه السلام لا تنازعوا اهل الدنيا فى دنياهم فينازعوكم فى دينكم فلا دنياهم اصبتم و لا دينكم ابقيتم وقال على بن ابى طالب لا تكن ممن يقول فى الدنيا بقول الزاهدين * و يعمل فيها عمل الراغبين * فان اعطى

منها لم يشبع * وان منع منهـا لم يقنع * يعجز عن شكر ما اوتى و يبتغى الزيادة فيمـا بقى وينهى النـاس ولا ينتهى و يأمر بمـا لا يأتى يحب الصالحين ولا يعمـل بعملهم ويبغض الظالمين وهو منهم و قال الحسن البصرى الدنيـا كلها غم فما كان منها من سرور فهو ربح و قال بعض العلماء ان الدنيا كثيرة التغير * سريعة التنكير * شديدة المكر * دائمة الغدر * فاقطع اسباب الهوى عن قلبك و اجعل ابعد املك بقية يومك و كن كأنك ترى ثواب اعمـالك و قال بعض الحكماء الدنيا اما مصيبة موجعة * و اما منية مفجعة * و قال الشاعر

* خـل دنيـاك انهـا * يعقب الخير شرهـا *
* هى ام تعـق من * نسلهـا من يبرهـا *
* كل نفس فانهـا * تبتغى ما يسرهـا *
* و المنـايا تسـوقهـا * و الامانى تغرهـــا *
* فاذا استحلت الجنى * اعقب الحلو مرهـا *
* يستوى فى ضريحه * عبد ارض و حرهـا *

فاذا رضت نفسك من هذه الحـالة بما وصفت اعتضت منها بثلاث خـلال * احداهن * ان تكفى اشفـاق المحب و حذر الوامق فليس لمشفق ثقة ولا لحـاذر راحة * و الثانية * ان تأمن الاغترار بملاهيهـا فتسلم من عادية دواهيها فان اللاهى بها مغرور * و المغرور فيها مذعور * * و الثالثة * ان تستريح من تعب السعى لها ووصب الكد فيها فان من احب شيئا طلبه ومن طلب شيئا كد له و المكدود فيها شقى ان ظفر ومحروم ان خاب وروى عن النبى صلى الله عليه و سلم انه قال لكعب يا كعب النـاس غاديان فغاد بنفسه فمعتقها * ومو بق نفسه فموثقها * وقال عيسى بن مريم عليهما السلام تعملون للدنيا وانتم ترزقون فيها بغير عمل ولا تعملون للآخرة وانتم لا ترزقون فيهـا الا بعمل وقال بعض البلغاء من نكد الدنيا ان لا تبقى على حاله * ولا تخلو من استحـاله * تصلح جانبا بافسـاد جانب * وتسر صـاحبا بمساءة صاحب * فالركون اليها خطر * والثقة بها غرر * وقال بعض الحكماء الدنيا مرتجعة الهبة والدهر

حسود لا يأتى على شئ الا غيره ولمن عاش حاجة لا تنقضى ولما بلغ مردك من الدنيا افضل ما سمت اليه نفسه نبذها وقال هذا سرور * لولا انه غرور * ونعيم * لولا انه عديم * وملك * لولا انه هلك * وغناء * لولا انه فناء * وجسيم * لولا انه ذميم * ومحمود * لولا انه مفقود * وغنى * لولا انه منى * وارتفاع * لولا انه اتضاع * وعلاء * لولا انه بلاء * وحسن * لولا انه حزن * وهو يوم او وثق له بغد وقال بعض الحكماء قد ملك الدنيا غير واحد * من راغب وزاهد * فلا الراغب فيها استبقت * ولا عن الزاهد فيها كفت * وقال ابو العتاهية

* هى الدار دار الاذى والقذى * ودار الفناء ودار الغير *
* فلو نلتها بحذا فيرها * لمت ولم تقض منها الوطر *
* أيا من يؤمل طول الخلو * د وطول الخلود عليه ضرر *
* اذا ما كبرت وبان الشبا * ب فلا خير فى العيش بعد الكبر *

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اللهم انى اعوذ بك من علم لا ينفع * ونفس لا تشبع * وقلب لا يخشع * وعين لا تدمع * هل يتوقع احدكم الا غنى مطغيا * اوفقرا منسيا * او مرضا مفسدا * او هرما مقيدا * والدجال فهو شر غائب ينتظر * او الساعة والساعة ادهى وامر * وحكى ان الله تعالى اوحى الى عيسى بن مريم عليه السلام ان هب لى من قلبك الخشوع * ومن بدنك الخضوع * ومن عينك الدموع * فانى قريب * وقال عيسى بن مريم عليه السلام اوحى الله الى الدنيا من خدمنى فاخدميه * ومن خدمك فاستخدميه * وقال بعض البلغاء زد من طول املك * فى قصير عملك * فان الدنيا ظل الغمام * وحلم النيام * فمن عرفها ثم طلبها فقد اخطأ الطريق * وحرم التوفيق * وقال بعض الحكماء لا يؤمننك اقبال الدنيا عليك من ادبارها عنك * ولا من دولة لك من ادالة منك * وقال آخر ما مضى من الدنيا كما لم يكن وما بقى منها كما قد مضى وقيل لزاهد قد خلعت الدنيا فكيف سخت نفسك عنها فقال ايقنت انى اخرج منها كارها فرأيت ان اخرج منها طائعا وقيل لحرقة بنت النعمان مالك تبكين فقالت رأيت لاهلى غضارة ولن تمتلئ دار فرحا * الا امتلأت ترحا * وقال ابن السماك من

جرعته الدنيا حلاوتها بميله اليها جرعته الآخرة مرارتها لتجافيه عنها و قال صاحب كليلة و دمنة طالب الدنيا كشارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا و كان عمر بن عبد العزيز يتمثل بهذه الابيات

* نهارك يا مغرور سهو و غفلة * و ليلك نوم والاسى لك لازم *
* تسر بما يفنى و تفرح بالمنى * كما سر باللذات فى النوم حالم *
* و شغلك فيما سوف تكره غبه * كذلك فى الدنيا تعيش البهائم *

و سمع رجل رجلا يقول لصاحبه لا اراك الله مكروها فقال كانك دعوت على صاحبك بالموت ان صاحبك ما صاحب الدنيا فلا بد ان يرى مكروها و قال ابو العتاهية

* ان الزمان ولو يلين لاهله لمخاشن *
* خطواته المتحركا * ت كأنهن سواكن *

﴿ و الحال الثانية ﴾ من احوال رياضتك لها ان تصدق نفسك فيما منحتك من رغائبها * و انالتك من غرائبها * فتعلم ان العطية فيها مرتجعة و المنحة فيها مستردة بعد ان تبقى عليك ما احتقبت من اوزار وصولها اليك و خسران خروجها عنك فقد روى عن النبي صلى الله عليه و سلم انه قال لا تزول قدما ابن آدم حتى يسأل عن ثلاث شبابه فيما ابلاه وعمره فيما افناه و ماله من اين اكتسبه وفيم انفقه و روى عن عيسى بن مريم عليه السلام انه قال فى المال ثلاث خصال قالوا و ما هن يا روح الله قال يكسبه من غير حله قالوا فان كسبه من حله قال يضعه فى غير حقه قالوا فان وضعه فى حقه قال يشغله عن عبادة ربه و دخل ابو حازم على بشر بن مروان فقال يا ابا حازم ما المخرج مما نحن فيه قال تنظر ما عندك فلا تضعه الا فى حقه و ما ليس عندك فلا تأخذه الا بحقه قال و من يطيق هذا يا ابا حازم قال فمن اجل ذلك ملئت جهنم من الجنة والناس اجمعين وعيرت اليهود عيسى بن مريم عليه السلام بالفقر فقال من الغنى دهيتم و دخل قوم منزل عابد فلم يجدوا شيئا يقعدون عليه فقال لو كانت الدنيا دار مقام لاتخذنا لها اثاثا وقيل لبعض الزهاد ألا توصى قال بماذا اوصى والله ما لنا شئ ولا لنا عند احد شئ و لا لاحد عندنا شئ انظر الى هذه الراحة كيف تجلها و الى السلامة كيف

صار اليهـا و لذلك قيل الفقر ملك ليس فيه محـاسبة و قيل لعيسى بن مريم عليهما السلام ألا تتزوج فقال انما نحب التكاثر فى دار البقاء وقيل لو دعوت الله تعـالى ان يرزقك حمارا فقال انا اكرم على الله من ان يجعلنى خادم حمار وقيل لابى حازم رضى الله عنه ما مالك قال شيئان الرضى عن الله والغنى عن الناس وقيل له انك لمسكين فقال كيف اكون مسكينا ومولاى له ما فى السموات وما فى الارض وما بينهما وما تحت الثرى وقال بعض الحكماء رب مغبوط بمسرة هى داؤه * ومرحوم من سقم هو شفاؤه * وقال بعض الادباء الناس اشتات ولكل جمع شتات وقال بعض البلغاء الزهد بصحة اليقين * وصحة اليقين بنور الدين * فمن صح يقينه زهد فى الثراء * ومن قوى دينه ايقن بالجزاء * فلا تغرنك صحة نفسك * وسلامة امسك * فمدة العمر قليله * وصحة النفس مستحيله * وقال بعض الشعراء

* رب مغروس يعاش به * عدمته عين مغترسه *

* وكذاك الدهر مأتمه * اقرب الاشياء من عرسه *

فاذا رضت نفسك من هذه الحـال بما وصفت اعتضت منهـا ثلاث خلال * احداهن * نصح نفسك وقد استسلمت اليك * والنظر لها وقد اعتمدت عليك * فان غاش نفسه مغبون * والمنحرف عنها مأفون * * والثانية * الزهد فيما ليس لك لتكفى تكلف طلبه وتسلم من تبعات كسبه * والثالثة * انتهاز الفرصة فى مالك ان تضعه فى حقه * وان تؤتيه لمستحقه * ليكون لك ذخرا * ولا يكون عليك وزرا * فقد روى ان رجلا قال يا رسول الله انى اكره الموت قال ألك مال قال نعم قال قدم مالك فان قلب المؤمن عند ماله وقالت عائشة رضى الله عنها ذبحنا شاة فتصدقنا بها فقلت يا رسول الله ما بقى الا كتفها قال كلها بقى الا كتفها وحكى ان عبد الله بن عبيد الله ابن عتبة بن مسعود باع دارا بثمانين الف درهم فقيل له اتخذ لولدك من هذا المال ذخرا فقال انا اجعل هذا المال ذخرا لى عند الله عز وجل واجعل الله ذخرا لولدى وتصدق بها وعوتب سهل بن عبد الله المروزى فى كثرة الصدقة فقال لو ان رجلا اراد ان ينتقل من دار الى دار أكان يبقى فى الاولى

شيئا وقال سليمان بن عبد الملك لابى حازم ما لنا نكره الموت قال لانكم اخربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم فكرهتم ان تنتقلوا من العمران الى الخراب وقيل لعبد الله ابن عمر ترك زيد بن خارجة مائة الف درهم فقال لكنها لا تتركه وقال الحسن البصرى رحمه الله ما انعم الله على عبد نعمة الا وعليه فيها تبعة الا سليمان بن داود عليه السلام فان الله تعالى قال له هذا عطاؤنا فامنن او امسك بغير حساب وقال ابو حازم ان عوفينا من شرما اعطينا لم يضرنا فقد ما زوى عنا وقال بعض السلف قدموا كلا ليكون لكم ولا تخلفوا كلا فيكون عليكم وقال ابراهيم نعم القوم السؤال يدقون ابوابكم يقولون أتوجهون للآخرة شيئا وقال سعيد بن المسيب مر بى صلة بن اشيم فما تمالكت ان نهضت اليه فقلت يا ابا الصهباء ادع لى فقال رغبك الله فيما يبقى وزهدك فيما يفنى ووهب لك اليقين الذى لا تسكن النفس الا اليه * ولا يعول فى الدين الا عليه * ولما ثقل عبد الملك بن مروان رأى غسالا يلوى بيده ثوبا فقال وددت انى كنت غسالا لا اعيش الا بما اكتسبه يوما فيوما فبلغ ذلك ابا حازم فقال الحمد لله الذى جعلهم يتمنون عند الموت ما نحن فيه ولا نتمنى نحن عنده ما هم فيه وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك يا ابن آدم من مالك الا ما اكلت فافنيت * او لبست فابليت * او اعطيت فامضيت * وقال خالد بن صفوان بت ليلتى اتمنى فكسبت البحر الاخضر والذهب الاحمر فاذا يكفينى من ذلك رغيفان وكوزان وطمران وقال مورق العجلى يا ابن آدم تؤتى كل يوم برزقك وانت تحزن وينقص عمرك وانت لا تحزن تطلب ما يطغيك وعندك ما يكفيك وقال ابو حازم انما بيننا وبين الملوك يوم واحد اما امس فقد مضى فلا يجدون لذته وانا وهم من غد على وجل وانما هو اليوم فما عسى ان يكون وقال بعض السلف تعزعن الشئ اذا منعته لقلة ما يصحبك اذا اعطيته وقال بعض الحكماء من ترك نصيبه من الدنيا استوفى حظه من الآخرة وقال آخر ترك التلبس بالدنيا قبل التشبث بها اهون من رفضها بعد ملابستها وقال آخر ليكن طلبك للدنيا اضطرارا * وتذكرك فى الامور اعتبارا * وسعيك لمعادك ابتدارا * وقال آخر الزاهد لا يطلب المفقود حتى يفقد الموجود وقال آخر من آمن

بالآخرة لم يحرص على الدنيا ومن ايقن بالمجازاة لم يؤثر على الحسنى وقال آخر من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر وقال ابو العتاهية

* ارى الدنيا لمن هى فى يديه * عذابا كلما كثرت لديه *
* تهين المكرمين لها بصغر * وتكرم كل من هانت عليه *
* اذا استغنيت عن شئ فدعه * وخذ ما انت محتاج اليه *

وحكى الاصمعى رحمه الله قال دخلت على الرشيد رحمة الله عليه يوما وهو ينظر فى كتاب ودموعه تسيل على خده فلما ابصرنى قال أرأيت ما كان منى قلت نعم يا امير المؤمنين فقال اما انه لو كان لامر الدنيا ما كان هذا ثم رمى الى بالقرطاس فاذا فيه شعر ابى العتاهية رحمه الله تعالى

* هل انت معتبر بمن خربت * منه غداة قضى دساكره *
* وبمن اذل الدهر مصرعه * فتبرأت منه عساكره *
* وبمن خلت منه اسرته * وتعطلت منه منابره *
* اين الملوك و اين عزهم * صاروا مصيرا انت صائره *
* يا مؤثر الدنيا للذته * والمستعد لمن يفاخره *
* نل ما بدا لك ان تنال من الدنيا فان الموت آخره *

فقال الرشيد رحمة الله عليه والله لكأنى اخاطب بهذا الشعر دون الناس فلم يلبث بعد ذلك الا يسيرا حتى مات رحمه الله ثم الحالة الثالثة من احوال رياضتك لها ان تكشف لنفسك حال اجلك * وتصرفها عن غرور املك * حتى لا يطيل لك الامل اجلا قصيرا * ولا ينسيك موتا ولا نشورا * وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال فى بعض خطبه ايها الناس ان الايام تطوى والاعمار تفنى والابدان تبلى وان الليل والنهار يتراكضان كتراكض البريد * يقربان كل بعيد * ويخلقان كل جديد * وفى ذلك عباد الله ما الهى عن الشهوات * ورغب فى الباقيات الصالحات * وقال مسعر كم من مستقبل يوما وليس يستكمله ومنتظر غدا وليس من اجله ولو رأيتم الاجل ومسيره * لابغضتم الامل وغروره * وقال رجل من الانصار للنبى صلى الله عليه وسلم من اكيس الناس قال اكثرهم ذكرا للموت واشدهم استعدادا له اولئك الاكياس ذهبوا بشرف

الدنيا

الدنيا وكرامة الآخرة وقال عيسى بن مريم عليه السلام كما تنامون كذلك تموتون * وكما تستيقظون كذلك تبعثون * وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه ايها الناس اتقوا الله الذى ان قلتم سمع وان اضمرتم علم وبادروا الموت الذى ان هربتم ادرككم * وان اقمتم اخذكم * وقال العلاء بن المسيب ليس قبل الموت شئ الا والموت اشد منه وليس بعد الموت شئ الا الموت ايسر منه وقال بعض الحكماء ان للباقى بالماضى معتبرا * وللآخر بالاول مزدجرا * والسعيد لايركن الى الخدع * ولايغتر بالطمع * وقال بعض الصلحاء ان بقاءك الى فناء * وفناءك الى بقاء * فخذ من فنائك الذى لا يبقى * لبقائك الذى لايفنى * وقال بعض العلماء اى عيش يطيب * وليس للموت طبيب * وقال بعض البلغاء كل امرئ يجرى من عمره الى غاية تنتهى اليها مدة اجله * وتنطوى عليها صحيفة عمله * فخذ من نفسك لنفسك * وقس يومك بامسك * وكف عن سيئاتك * وزد فى حسناتك * قبل ان تستوفى مدة الاجل * وتقصر عن الزيادة فى السعى والعمل * وقيل فى منثور الحكم من لم يتعرض للنوائب تعرضت له وقال ابو العتاهية

* ما للمقابر لا تجيب اذا دعاهن الكئيب *
* حفر مسقفة عليهن الجنادل والكثيب *
* فيهن ولدان واطفال وشبان وشيب *
* كم من حبيب لم تكن * نفسى بفرقته تطيب *
* غادرته فى بعضهن مجندلا وهو الحبيب *
* وسلوت عنه وانما * عهدى برؤيته قريب *

ووعظ النبى صلى الله عليه وسلم رجلا فقال اقلل من الدنيا تعش حرا واقلل من الذنوب يهن عليك الموت وانظر حيث تضع ولدك فان العرق دساس وقال الرشيد لابن السماك رحمهما الله تعالى عظنى واوجز فقال اعلم انك اول خليفة يموت وعزى اعرابى رجلا عن ابن صغير له فقال الحمد لله الذى نجاه مما هوهنا من الكدر * وخلصه مما بين يديه من الخطر * وقال بعض السلف من عمل للآخرة احرزها والدنيا ومن آثر الدنيا حرمها والآخرة وقال بعض الصلحاء

استغنم تنفس الاجل * وامكان العمل * واقطع ذكر المعاذير والعلل * فانك فى اجل محدود * ونفس معدود * وعمر غير ممدود * وقال بعض الحكماء الطبيب معذور * اذا لم يقدر على دفع المحذور * وقال بعض البلغاء اعمل عمل المرتحل فان حادى الموت يحدوك * ليوم ليس يعدوك * وروى عن على ابن ابى طالب رضى الله عنه انه قال بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

* غرّ جهولا امله * يموت من جا اجله *
* ومن دنا من حتفه * لم تغن عنه حيله *
* وما بقاء آخر * قد غاب عنه اوله *
* والمرء لا يصحبه * فى القبر الا عمله *

﴿ وقال ابو العتاهية ﴾

* لا تأمن الموت فى لحظ ولانفس * وان تمنعت بالحجاب والحرس *
* واعلم بان سهام الموت قاصدة * لكل مدرع منها ومترس *
* ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها * ان السفينة لاتجرى على اليبس *

فاذا رضت نفسك من هذه الحالة بما وصفت اعتضت منها ثلاث خلال ﴿ احداهن ﴾ ان تكفى تسويف امل يرديك * وتسويل محال يؤذيك * فان تسويف الامل غرار * وتسويل المحال ضرار * ﴿ والثانية ﴾ ان تستيقظ لعمل آخرتك وتغتنم بقية اجلك بخير عملك فان من قصر امله * واستقل اجله * حسن عمله * ﴿ والثالثة ﴾ ان يهون عليك نزول ما ليس عنه محيص ويسهل عليك حلول ما ليس الى دفعه سبيل فان من تحقق امرا توطأ لحلوله * فهان عليه عند نزوله * وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لابى ذر نبه بالتفكر قلبك * وجاف عن النوم جنبك * واتق الله ربك * وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لابى ذر رضى الله عنه عظنى فقال ارض بالقوت وخف من الفوت * واجعل صومك الدنيا وفطرك الموت * وقال عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه ما رأيت يقينا لا شك فيه * اشبه بشك لا يقين فيه * من يقين نحن فيه * فلئن كنا مقرين انا لحمق ولئن كنا جاحدين انا لهلكى وقال الحسن البصرى رحمة الله عليه نهارك ضيفك فاحسن اليه فانك ان احسنت اليه ارتحل

بحمدك وان اسأت اليه ارتحل بذمك وكذلك ليلك وقال الجاحظ فى كتاب البيان وجد مكتوبا فى حجر يا ابن آدم لو رأيت يسير ما بقى من اجلك * لزهدت فى طويل ما ترجو من املك * ولرغبت فى الزيادة من عملك * ولقصرت من حرصك وحيلك * وانما يلقاك غدا ندمك * لو قد زلت بك قدمك * واسلمك اهلك وحشمك * وتبرأ منك القريب * وانصرف عنك الحبيب * ولما حضر بشر ابن منصور الموت فرح فقيل له أتفرح بالموت فقال أتجعلون قدومى على خالق ارجوه كمقامى مع مخلوق اخافه وقيل لابى بكر الصديق رضى الله عنه فى مرضه الذى مات فيه لو ارسلت الى الطبيب فقال قد رآنى قالوا فما قال لك قال قال انى فعال لما اريد وقيل للربيع بن خيثم وقد اعتل ندعو لك بالطبيب قال قد اردت ذلك فذكرت عادا وثمود واصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا وعلمت انه كان فيهم الداء والمداوى فهلكوا جميعا وسئل انو شروان متى يكون عيش الدنيا ألذّ قال اذا كان الذى ينبغى ان يعمله فى حياته معمولا وقال بعض الحكماء من ذكر المنية نسى الامنية وقال بعض الادباء عن الموت تسل * وهو كريشة تسل * وقال بعض البلغاء الامل * حجاب الاجل * وانشد بعض اهل الادب ما ذكر انه لعلى رضى الله عنه

* ولو انا اذا متنا تركنا * لكان الموت راحة كل حىّ *
* ولكنا اذا متنا بعثنا * ونسأل بعد ذا عن كل شىّ *

﴿ وقال بعض الشعراء ﴾

* ألا انما الدنيا مقيل لراكب * قضى وطرا من منزل ثم هجرا *
* وراح ولا يدرى على ما قدومه * ألا كل ما قدمت تلقى موفرا *

وروى سعيد بن مسعود رضى الله عنه ان ابا الدرداء رضى الله عنه قال يا رسول الله اوصنى فقال صلى الله عليه وسلم أكسب طيبا واعمل صالحا واسأل الله تعالى رزق يوم بيوم واعدد نفسك من الموتى وكتب الربيع بن خيثم الى اخ له قدم جهازك وافرغ من زادك وكن وصى نفسك والسلام وقال بعض السلف اصاب الدنيا من حذرها واصابت الدنيا من امنها ومر محمد بن واسع رحمة الله عليه بقوم فقيل هؤلاء زهاد فقال ما قدر الدنيا حتى يحمد

من زهد فيها وقال بعض الحكماء السعيد من اعتبر بامسه * واستظهر لنفسه* والشقى من جمع لغيره وبخل على نفسه * وقال بعض البلغاء لا تبت عن غير وصية وان كنت من جسمك فى صحة * ومن عمرك فى فسحة * فان الدهر خائن * وكل ما هو كائن كائن * وقال بعض الشعراء

* من كان يعلم ان الموت مدركه * والقبر مسكنه والبعث مخرجه *
* وانه بين جنات ستبهجه * يوم القيامة او نار ستنضجه *
* فكل شئ سوى التقوى به سمج * وما اقام عليه منه اسمجه *
* ترى الذى اتخذ الدنيا له وطنا * لم يدر ان المنايا سوف تزعجه *

وروى جعفر بن محمد عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال فى بعض خطبه ايها الناس ان لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم وان لكم معالم فانتهوا الى معالمكم وان المؤمن بين مخافتين اجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه واجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه فليتزود العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الحياة قبل الموت فان الدنيا خلقت لكم وانتم خلقتم للآخرة فو الذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا دار * الا الجنة او النار * وقال الحسن البصرى رحمة الله عليه امس اجل * واليوم عمل * وغدا امل * فاخذ ابو العتاهية هذا المعنى فنظمه شعرا

* ليس فيما مضى ولا فى الذى يأ * تيك من لذة لمستحليها *
* انما انت طول عمرك ما عمرت فى الساعة التى انت فيها *
* علل النفس بالكفاف والا * طلبت منك فوق ما يكفيها *

وقيل لزاهد ما لك تمشى على العصا ولست بكبير ولا مريض فقال انى اعلم انى مسافر وانها دار بلغة وان العصا من آلة السفر فاخذه بعض الشعراء فقال

* حملت العصا لا الضعف اوجب حملها * علىّ ولا انى تحنيت من كبر *
* ولكننى ألزمت نفسى حملها * لاعلمها انى مقيم على سفر *

وقال بعض المتصوفة الدنيا ساعة * فاجعلها طاعة * وقال ذو القرنين عليه السلام رتعنا فى الدنيا جاهلين * وعشنا فيها غافلين * واخرجنا منها

كارهين * وقال عبد الحميد المرء اسير عمر يسير وقيل فى بعض المواعظ عجبا لمن يخاف العقاب كيف لا يكف عن المعاصى وعجبا لمن يرجو الثواب كيف لا يعمل وقال بعض الحكماء المسئ ميت وان كان فى دار الحياة والمحسن حى وان كان فى دار الاموات وكل بالاثر يومه او غده وقال بعض السلف الله المستعان على ألسنة تصف وقلوب تعرف واعمال تخالف وقال آخر الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما وقال آخر اعملوا لآخرتكم فى هذه الايام التى تسير * كأنها تطير * وقال آخر الموت قصاراك * فخذ من دنياك لاخراك * وقال آخر عباد الله الحذر الحذر * فوالله لقد ستر * حتى كأنه قد غفر * ولقد امهل * حتى كأنه قد اهمل * وقال آخر الايام صحائف اعمالكم * فخلدوها اجمل افعالكم * وقيل فى منثور الحكم اقبل نصح المشيب وان عجل وقيل ما طلعت شمس * الا وعظت بامس * وقال محمد بن بشير رحمه الله

* مضى امسك الادنى شهيدا معدلا * ويومك هذا بالفعال شهيد *

* فان تك بالامس اقترفت اساءة * فثن باحسان وانت حميد *

* ولا ترج فعل الخير منك الى غد * لعل غدا يأتى وانت فقيد *

وروى ابو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ما رأيت مثل الجنة نام طالبها * وما رأيت مثل النار نام هاربها * وقال عيسى بن مريم عليهما السلام ألا ان اولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين نظروا الى باطن الدنيا حين نظر الناس الى ظاهرها * والى آجل الدنيا حين نظر الناس الى عاجلها * فاماتوا منها ما خشوا ان يميت قلوبهم وتركوا منها ما علموا انه سيتركهم وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه الناس طالبان يطلبان فطالب يطلب الدنيا فارفضوها فى نحره فانه ربما ادرك الذى يطلبه منها فهلك بما اصاب منها وطالب يطلب الآخرة فاذا رأيتم طالبا يطلب الآخرة فنافسوه فيها ودخل ابو الدرداء رضى الله عنه الشام فقال يا اهل الشام اسمعوا قول اخ ناصح فاجتمعوا عليه فقال ما لى اراكم تبنون ما لا تسكنون * وتجمعون ما لا تأكلون * ان الذين كانوا قبلكم بنوا مشيدا * واملوا بعيدا * وجمعوا كثيرا فاصبح املهم غرورا * وجمعهم بورا * ومساكنهم قبورا * وقال ابو حازم ان الدنيا غرت اقواما فعملوا

فيها بغير الحق فعاجلهم الموت فخلفوا مالهم لمن لا يحمدهم وصاروا لمن لا يعذرهم وقد خلفنا بعدهم فينبغى ان ننظر للذى كرهناه منهم فنجتنبه والذى غبطناهم به فنستعمله ومر بعض الزهاد بباب ملك فقال باب جديد * وموت عتيد * وسفر بعيد * ومر بعض الزهاد برجل قد اجتمع عليه الناس فقال ما هذا قالوا مسكين سرق منه رجل جبة ومر به آخر فاعطاه جبة فقال صدق الله ان سعيكم لشتى وقال بعض الحكماء ما انصف من نفسه من ايقن بالحشر والحساب * وزهد فى الاجر والثواب * وقال آخر بطول الامل تقسو القلوب * وباخلاص النية تقل الذنوب * وقال آخر اياك والمنى فانها من بضائع النوكى وتثبط عن الآخرة والاولى وقال آخر قصر املك فان العمر قصير * واحسن سيرتك فالبر يسير * وقال عبد الله بن المعتز رحمه الله

* نسير الى الآجال فى كل ساعة * واياما تطوى وهن رواحل *
* ولم نر مثل الموت حقا كأنه * اذا ما تخطته الامانى باطل *
* وما اقبح التفريط فى زمن الصبا * فكيف به والشيب فى الرأس نازل *
* ترحل عن الدنيا بزاد من التقى * فعمرك ايام تعد قلائل *

وكان عبد الملك بن مروان يتمثل بهذين البيتين

* فاعمل على مهل فانك ميت * واكدح لنفسك ايها الانسان *
* فكأن ما قد كان لم يك اذ مضى * وكأن ما هو كائن قد كان *

ونظر سليمان بن عبد الملك فى المرآة فقال انا الملك الشاب فقالت له جارية له

* انت نعم المتاع لو كنت تبقى * غير ان لا بقاء للانسان *
* ليس فيما بدا لنا منك عيب * كان فى الناس غير انك فانى *

وروى عبد العزيز بن عبد الصمد عن ابان عن انس قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته الجدعاء فقال ايها الناس كأن الموت فيها على غيرنا كتب وكأن الحق فيها على غيرنا وجب وكأن الذين نشيع من الاموات سفر عما قليل الينا راجعون نبوئهم اجداثهم ونأكل تراثهم كأنا مخلدون بعدهم قد نسينا كل واعظة وامنا كل جائحة طوبى لمن شغله عيبه عن عيب غيره وانفق من مال كسبه من غير معصية ورحم اهل الذين والمسكنة

وخالط

وخالط اهل الفقه والحكمة طوبى لمن ادب نفسه وحسنت خليقته وصلحت سريرته طوبى لمن عمل بعلم وانفق من فضل واسك من قوله ووسعته السنة ولم يعدها الى بدعة وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال زوروا القبور تذكروا بها الآخرة وغسلوا الموتى فانها معالجة الاجساد الخاوية وموعظة بليغة وحفر الربيع بن خيثم فى داره قبرا فكان اذا وجد فى قلبه قسوة جاء فاضطجع فى القبر فمكث ما شاء الله ثم يقول رب ارجعون لعلى اعمل صالحا فيما تركت ثم يرد على نفسه فيقول قد ارجعتك فجدى فمكث كذلك ما شاء الله وقال ابو محرز الطفاوى كفتك القبور مواعظ الامم السالفة وقيل لبعض الزهاد ما ابلغ العظات قال النظر الى محلة الاموات فاخذه ابو العتاهية فقال

* وعظتك اجداث صمت * ونعتك ازمنة خفت *
* وتكلمت عن اوجه * تبلى وعن صور سبت *
* وارتك قبرك فى الحيا * ة وانت حى لم تمت *
* يا شامتا بمنيتى * ان المنية لم تفت *
* فلربما انقلب الشما * ت فحل بالقوم الشمت *

ووجد على قبر مكتوبا قهرنا من قهرنا فصرنا للناظرين عبرة وعلى آخر من امل البقاء وقد رأى مصارعنا فهو مغرور وقيل فى منثور الحكم ما اكثر من يعرف الحق ولا يطيعه وقال بعض الحكماء من لم يمت لم يفت وقال بعض الصلحاء لنا من كل ميت عظة بحاله وعبرة بماله وقال بعض العلماء من لم يتعظ بموت ولد لم يتعظ بقول احد وقال بعض البلغاء ما نقصت ساعة من امسك الا ببضعة من نفسك فاخذه ابو العتاهية فقال

* ان مع الدهر فاعلمن غدا * فانظر بما ينقضى مجىء غده *
* ما ارتد طرف امرئ بلذته * الا وشئ يموت من جسده *

ولما مات الاسكندر قال بعض الحكماء كان الملك امس انطق منه اليوم وهو اليوم اوعظ منه امس فاخذ ابو العتاهية هذا المعنى فقال

* كفا حزنا بدفنك ثم انى * نفضت تراب قبرك عن يديا *
* وكانت فى حياتك لى عظات * وانت اليوم اوعظ منك حيا *

وقال بعض الحكماء لو كان للخطايا ريح لافتضح الناس ولم يتجالسوا فاخذ هذا المعنى ابو العتاهية فقال

* احسن الله بنا * ان الخطايا لا تفوح *
* فاذا المستور منا * بين ثوبيه فضوح *

وهذا جميعه مأخوذ من قول النبى صلى الله عليه وسلم لو تكاشفتم ما تدافنتم
وكتب رجل الى ابى العتاهية رحمه الله

* يا ابا اسحاق انى * واثق منك بودك *
* فاعنى بابى انـ * ـت على عيبى برشدك *

﴿ فاجابه بقوله ﴾

* اطلع الله بجهدك * راغبا او دون جهدك *
* اعط مولاك الذى * تطلب من طاعة عبدك *

وقال بعض الحكماء من سره بنوه ساءته نفسه فاخذ هذا المعنى ابو العتاهية فقال

* ابن ذى الابن كلما زاد منه * مشرع زاد فى فناء ابيه *
* ما بقاء الاب الملح عليه * بدبيب البلا شباب بنيه *

وفى معناه ما حكى عن ذر بن حبيش انه عاش مائة وعشرين سنة فلما حضرته الوفاة انشد يقول

* اذا الرجال ولدت اولادها * وارتعشت من كبر اجسادها *
* وجعلت اسقامها تعتادها * تلك زروع قد دنا حصادها *

﴿ وكتب رجل الى صالح بن عبد القدوس ﴾

* الموت باب وكل الناس داخله * فليت شعرى بعد الباب ما الدار *

﴿ فاجابه بقوله ﴾

* الدار جنات عدن ان عملت بما * يرضى الاله وان خالفت فالنار *
* هما محلان ما للناس غيرهما * فانظر لنفسك ماذا انت مختار *

﴿ باب ادب الدنيا ﴾

اعلم ان الله تعالى لنافذ قدرته * وبالغ حكمته * خلق الخلق بتدبيره * وفطرهم

بتقديره

بتقديره*فكان من لطيف ما دبره * وبديع ما قدره * انه خلقهم محتاجين * وفطرهم عاجزين *ليكون بالغنى منفردا وبالقدرة مختصا حتى يشعرنا بقدرته انه خالق * ويعلمنا بغناه انه رازق * فنذعن بطاعته رغبة ورهبة ونقر بنقائصنا عجزا وحاجة ثم جعل الانسان اكثر حاجة من جميع الحيوان لان من الحيوان ما يستقل بنفسه عن جنسه والانسان مطبوع على الافتقار الى جنسه واستعانته صفة لازمة لطبعه وخلقة قائمة فى جوهره ولذلك قال الله سبحانه وتعالى وخلق الانسان ضعيفا يعنى عن الصبر عما هو اليه مفتقر واحتمال ما هو عنه عاجز ولما كان الانسان اكثر حاجة من جميع الحيوان كان اظهر عجزا لان الحاجة الى الشئ افتقار اليه والمفتقر الى الشئ عاجز به وقال بعض الحكماء المتقدمين استغناؤك عن الشئ خير من استغنائك به وانما خص الله تعالى الانسان بكثرة الحاجة وظهور العجز نعمة عليه ولطفا به ليكون ذل الحاجة ومهانة العجز يمنعانه من طغيان الغنى وبغى القدرة لان الطغيان مركوز فى طبعه اذا استغنى والبغى مستول عليه اذا قدر وقد انبأ الله تعالى بذلك عنه فقال كلا ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى ثم ليكون اقوى الامور شاهدا على نقصه واوضحها دليلا على عجزه وانشدنى بعض اهل الادب لابن الرومى رحمه الله

* أعيرتنى بالنقص والنقص شامل * ومن ذا الذى يعطى الكمال فيكمل *
* واشهد انى ناقص غير اننى * اذا قيس بى قوم كثير تقللوا *
* تفاضل هذا الخلق بالفضل والحجا * ففى ايما هذين انت مفضل *
* ولو منح الله الكمال ابن آدم * لخلده والله ما شاء يفعل *

ولما خلق الله الانسان ماس الحاجة ظاهر العجز جعل لنيل حاجته اسبابا ولدفع عجزه حيلة دله عليها بالعقل وارشده اليها بالفطنة قال الله تعالى والذى قدر فهدى قال مجاهد قدر احوال خلقه فهدى الى سبيل الخير والشر وقال ابن مسعود فى قوله تعالى وهديناه النجدين يعنى الطريقين طريق الخير وطريق الشر ثم لما كان العقل دالا على اسباب ما تدعو اليه الحاجة جعل الله تعالى الادراك والظفر موقوفا على ما قسم وقدر كيلا يعتمدوا فى الارزاق على عقولهم وفى العجز على فطنهم لتدوم له الرغبة والرهبة ويظهر منه الغنى والقدرة وربما عزب

هـذا المعنى على من ساء ظنه بخالقه حتى صار سببا لضلاله كما قال الشاعر

* سبحان من انزل الايام منزلها * وصير الناس مرفوضا ومرموقا *
* فعاقل فطن اعيت مذاهبه * وجاهل خرق تلقاه مرزوقا *
* هذا الذى ترك الالباب حائرة * وصير العاقل النحرير زنديقا *

ولو حسن ظن العاقل فى صحة نظره لعلم من علل المصالح ما صار به صديقا لا زنديقا لان من علل المصالح ما هو ظاهر ومنها ما هو غامض ومنها ما هو مغيب حكمة استأثر بها ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم حسن الظن بالله من عبادة الله ثم ان الله تعالى جعل اسباب حاجاته وحيل عجزه فى الدنيا التى جعلها دار تكليف وعمل كما جعل الآخرة دار قرار وجزاء فلزم لذلك ان يصرف الانسان الى دنياه حظا من عنايته، لانه لا غنى به عن التزود منها لآخرته ولا له بد من سد الخلة فيها عند حاجته وليس فى هذا القول نقض لما ذكرنا قبل من ترك فضولها وزجر النفس عن الرغبة فيها بل الراغب فيها ملوم * وطالب فضولها مذموم * والرغبة انما تختص بما جاوز قدر الحاجة والفضول انما ينطلق على ما زاد على قدر الكفاية وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب قال اهل التأويل فاذا فرغت من امور دنياك فانصب فى عبادة ربك وليس هذا القول منه ترغيبا لنبيه صلى الله عليه وسلم فيها ولكن ندبه الى اخذ البلغة منها وعلى هذا المعنى قال صلى الله عليه وسلم ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا ولكن خيركم من اخذ من هذه وهذه وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال نعم المطية الدنيا فارتحلوها تبلغكم الآخرة وذم رجل الدنيا عند على بن ابى طالب كرم الله وجهه فقال رضى الله عنه الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار نجاة لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها وحكى مقاتل ان ابراهيم الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام قال يارب حتى متى اتردد فى طلب الدنيا فقيل له امسك عن هذا فليس طلب المعاش من طلب الدنيا وقال سفيان الثورى رحمة الله عليه مكتوب فى التوراة اذا كان فى البيت بر فتعبد واذا لم يكن فاطلب يا ابن آدم حرك يدك يسبب لك رزقك وقال بعض الحكماء ليس من الرغبة اكتساب ما يصون العرض فيها وقال بعض

الادباء

الادباء ليس من الحرص اجتلاب ما يقوت البدن وقال محمود الوراق

* لا تتبع الدنيا وايامها * ذما وان دارت بك الدائره *
* من شرف الدنيا ومن فضلها * ان بها تستدرك الآخره *

فاذا قد لزم بما بيناه النظر فى امور الدنيا فواجب سبر احوالها والكشف عن جهة انتظامها واختلالها لنعلم اسباب صلاحها وفسادها ومواد عمرانها وخرابها لتنفى عن اهلها شبه الحيره * وتنجلى لهم اسباب الخيره * فيقصدوا الامور من ابوابها * ويعتمدوا صلاح قواعدها واسبابها * واعلم ان صلاح الدنيا معتبر من وجهين اولهما ما ينتظم به امور جملتها والثانى ما يصلح به حال كل واحد من اهلها فهما شيئان لا صلاح لاحدهما الا بصاحبه لان من صلحت حاله مع فساد الدنيا واختلال امورها لن يعدم ان يتعدى اليه فسادها * ويقدح فيه اختلالها * لان منها ما يستمد * ولها يستعد * ومن فسدت حاله مع صلاح الدنيا وانتظام امورها لم يجد لصلاحها لذة ولا لاستقامتها اثرا لان الانسان دنياه نفسه فليس يرى الصلاح الا اذا صلحت له ولا يجد الفساد الا اذا فسدت عليه لان نفسه اخص وحاله امس فصار نظره الى ما يخصه مصروفا * وفكره على ما يمسه موقوفا * واعلم ان الدنيا لم تكن قط لجميع اهلها مسعدة ولا عن كافة ذويها معرضة لان اعراضها عن جميعهم عطب واسعادها لكافتهم فساد لائتلافهم بالاختلاف والتباين * واتفاقهم بالمساعدة والتعاون * فاذا تساوى جميعهم لم يجد احدهم الى الاستعانة بغيره سبيلا وبهم من الحاجة والعجز ما وصفنا فيذهبوا ضيعة ويهلكوا عجزا واذا تباينوا واختلفوا صاروا مؤتلفين بالمعونة متواصلين بالحاجة لان ذا الحاجة وصول * والمحتاج اليه موصول * وقد قال الله تعالى ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم قال الحسن مختلفين فى الرزق فهذا غنى وهذا فقير ولذلك خلقهم يعنى للاختلاف بالغنى والفقر وقال الله تعالى والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق غير ان الدنيا اذا صلحت كان اسعادها موفورا * واعراضها ميسورا * الا انها اذا منحت هنت واودعت * واذا استردت رفقت وابقت * واذا فسدت الدنيا كان

اسعادها مكرا * واعراضها غدرا * لانها اذا منحت كدت واتعبت * واذا استردت استأصلت واجحفت * ومع هذا فصلاح الدنيا مصلح لسائر اهلها لوفور اماناتهم وظهور دياناتهم وفسادها مفسد لسائر اهلها لقلة اماناتهم وضعف دياناتهم وقد وجد ذلك فى مشاهد الحال تجربة وعرفا * كما يقتضيه دليل الحال تعليلا وكشفا * فلا شئ انفع من صلاحها * كما لا شئ اضر من فسادها * لان ما تقوى به ديانات الناس وتتوفر اماناتهم فلا شئ احق به نفعا كما ان ما به تضعف دياناتهم وتذهب اماناتهم فلا شئ اجدر به ضررا وانشدت لابى بكر ابن دريد

* الناس مثل زمانهم * قد الحذاء على مثاله *
* ورجال دهرك مثل دهرك فى تقلبه وحاله *
* وكذا اذا فسد الزما * ن جرى الفساد على رجاله *

واذ قد بلغ بنا القول الى ذلك فسنبدأ بذكر ما يصلح الدنيا ثم نتلوه بوصف ما يصلح به حال الانسان فيها اعلم ان ما به تصلح الدنيا حتى تصير احوالها منتظمة * وامورها ملتئمة * ستة اشياء هى قواعدها وان تفرعت وهى ﴿ دين متبع ﴾ و ﴿ سلطان قاهر ﴾ و ﴿ عدل شامل ﴾ و ﴿ امن عام ﴾ و ﴿ خصب دائم ﴾ و ﴿ امل فسيح ﴾ فاما ﴿ القاعدة الاولى ﴾ فهى الدين المتبع فلانه يصرف النفوس عن شهواتها * ويعطف القلوب عن اراداتها * حتى يصير قاهرا للسرائر * زاجرا للضمائر * رقيبا على النفوس فى خلواتها * نصوحا لها فى ملماتها * وهذه الامور لا يوصل بغير الدين اليها * ولا يصلح الناس الا عليها * فكان الدين اقوى قاعدة فى صلاح الدنيا واستقامتها * واجدى الامور نفعا فى انتظامها وسلامتها * ولذلك لم يخل الله تعالى خلقه مذ فطرهم عقلاء من تكليف شرعى واعتقاد دينى ينقادون لحكمه فلا تختلف بهم الآراء * ويستسلمون لامره فلا تتصرف بهم الاهواء * وانما اختلف العلماء رضى الله عنهم فى العقل والشرع هل جاءا مجيئا واحدا ام سبق العقل ثم تبعه الشرع فقالت طائفة جاء العقل والشرع معا مجيئا واحدا لم يسبق احدهما صاحبه وقالت طائفة اخرى سبق العقل ثم تبعه الشرع لان بكمال العقل يستدل

على

على صحة الشرع وقد قال الله تعالى أيحسب الانسان ان يترك سدى وذلك لا يوجد منه الا عند كمال عقله فثبت ان الدين من اقوى القواعد فى صلاح الدنيا وهو الفرد الاوحد فى صلاح الآخرة وما كان به صلاح الدنيا والآخرة فحقيق بالعقل ان يكون به متمسكا وعليه محافظا وقال بعض الحكماء الادب ادبان ادب شريعة وادب سياسة فادب الشريعة ما ادى الفرض وادب السياسة ما عمر الارض وكلاهما يرجع الى العدل الذى به سلامة السلطان * وعمارة البلدان * لان من ترك الفرض فقد ظلم نفسه ومن خرب الارض فقد ظلم غيره وقال سعيد ابن حميد ما صحة ابدا بنافعة حتى يصح الدين والخلق واما ﴿ القاعدة الثانية ﴾ فهى سلطان قاهر تتألف من رهبته الاهواء المختلفة وتجتمع لهيبته القلوب المتفرقة وتنكف بسطوته الايدى المتغالبة وتمتنع من خوفه النفوس العادية لان فى طباع الناس من حب المغالبة على ما آثروه والقهر لمن عاندوه ما لا ينكفون عنه الا بمانع قوى ورادع ملى وقد افصح المتنبى بذلك فى قوله

* لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى * حتى يراق على جوانبه الدم *

* والظلم من شيم النفوس فان تجد * ذا عفة فلعلة لا يظلم *

وهذه العلة المانعة من الظلم لا تخلو من احد اربعة اشياء اما عقل زاجر او دين حاجر او سلطان رادع او عجز صاد فاذا تأملتها لم تجد خامسا يقترن بها ورهبة السلطان ابلغها لان العقل والدين ربما كانا مضعوفين او بدواعى الهوى مغلوبين فتكون رهبة السلطان اشد زجرا واقوى ردعا وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال السلطان ظل الله فى الارض يأوى اليه كل مظلوم وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله ليزع بالسلطان اكثر مما يزع بالقرآن وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان لله حراسا فى السماء وحراسا فى الارض فحراسه فى السماء الملائكة وحراسه فى الارض الذين يقبضون ارزاقهم يذبون عن الناس وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الامام الجائر خير من الفتنة وكل لا خير فيه وفى بعض الشر خير وقال ابو هريرة

رضى الله عنه سبت العجم بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهى عن ذلك وقال لا تسبوها فانها عمرت بلاد الله تعالى فعاش فيها عباد الله تعالى و قال بعض البلغاء السلطان فى نفسه امام متبوع * وفى سيرته دين مشروع * فان ظلم لم يعدل احد فى حكم * وان عدل لم يجسر احد على ظلم * وقال بعض الادباء ان اقرب الدعوات من الاجابة دعوة السلطان الصالح * واولى الحسنات بالاجر والثواب امره ونهيه فى وجوه المصالح * فهذه آثار السلطان فى احوال الدنيا وما ينتظم به امورها ثم لما فى السلطان من حراسة الدين والدنيا والذب عنهما ودفع الاهواء منه وحراسة التبديل فيه وزجر من شذ عنه بارتداد * او بغى فيه بعناد * اوسعى فيه بفساد * وهذه امور ان لم تنحسم عن الدين بسلطان قوى ورعاية وافية اسرع فيه تبديل ذوى الاهواء وتحريف ذوى الآراء فليس دين زال سلطانه الا بدلت احكامه * وطمست اعلامه * وكان لكل زعيم فيه بدعة ولكل عصر فيه وهاية اثر كما ان السلطان ان لم يكن على دين تجتمع به القلوب حتى يرى اهله الطاعة فيه فرضا والتناصر عليه حتما لم يكن للسلطان لبث ولا لايامه صفو وكان سلطان قهر * ومفسدة دهر * ومن هذين الوجهين وجب اقامة امام يكون سلطان الوقت وزعيم الامة ليكون الدين محروسا بسلطانه والسلطان جاريا على سنن الدين واحكامه قال عبد الله بن المعتز الملك بالدين يبقى والدين بالملك يقوى واختلف الناس هل وجب بالعقل او بالشرع فقالت طائفة وجب بالعقل لانه معلوم من حال العقلاء على اختلافهم الفزع الى زعيم مندوب للنظر فى مصالحهم وذهب آخرون الى وجوبه بالشرع لان المقصود بالامام القيام بامور شرعية كاقامة الحدود واستيفاء الحقوق وقد كان يجوز الاستغناء عنها بان لا يراد التعبد بها فبأن يجوز الاستغناء عما يراد الا لها اولى وعلى هذا اختلفوا فى وجوب بعثة الانبياء فمن قال بوجوب ذلك بالعقل قال بوجوب بعثة الانبياء ومن قال بوجوب ذلك بالشرع منع من وجوب بعثة الانبياء لانه لما كان المقصود ببعثتهم تعريف المصالح الشرعية وكان يجوز من المكلفين ان لا تكون هذه الامور مصلحة لهم لم يجب بعثة الانبياء اليهم فاما اقامة امامين او ثلاثة فى عصر واحد وبلد واحد فلا يجوز اجماعا فاما فى بلدان شتى وامصار

متباعدة فقد ذهبت طائفة شاذة الى جواز ذلك لان الامام مندوب للمصالح واذا كان اثنين فى بلدين او ناحيتين كان كل واحد منهما اقوم بما فى يديه واضبط لما يليه ولانه لما جاز بعثة نبيين فى عصر واحد ولم يؤد ذلك الى ابطال النبوة كانت الامامة اولى ولا يؤدى ذلك الى ابطال الامامة وذهب الجمهور الى ان اقامة امامين فى عصر واحد لا يجوز شرعا لما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اذا بويع اميران فاقتلوا احدهما وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اذا وليتم ابا بكر تجدوه قويا فى دين الله عز وجل ضعيفا فى بدنه واذا وليتم عمر تجدوه قويا فى دين الله عز وجل قويا فى بدنه وان وليتم عليا تجدوه هاديا مهديا فبين بظاهر هذا الكلام ان اقامة جميعهم فى عصر واحد لا يصح ولو صح لاشار اليه ولنبه عليه والذى يلزم سلطان الامة من امورها سبعة اشياء ﴿ احدها ﴾ حفظ الدين من تبديل فيه والحث على العمل به من غير اهمال له ﴿ والثانى ﴾ حراسة البيضة والذب عن الامة من عدو فى الدين او باغى نفس اومال ﴿ والثالث ﴾ عمارة البلدان باعتماد مصالحها وتهذيب سبلها ومسالكها ﴿ والرابع ﴾ تقدير ما يتولاه من الاموال بسنن الدين من غير تحريف فى اخذها واعطائها ﴿ والخامس ﴾ معاناة المظالم والاحكام بالتسوية بين اهلها واعتماد النصفة فى فصلها ﴿ والسادس ﴾ اقامة الحدود على مستحقها من غير تجاوز فيها ولا تقصير عنها ﴿ والسابع ﴾ اختيار خلفائه فى الامور ان يكونوا من اهل الكفاية فيها والامانة عليها فاذا فعل من افضى اليه سلطان الامة ما ذكرنا من هذه الاشياء السبعة كان مؤديا لحق الله تعالى فيهم مستوجبا لطاعتهم ومناصحتهم مستحقا لصدق ميلهم ومحبتهم وان قصر عنها ولم يقم بحقها وواجبها كان بها مؤاخذا ثم هو من الرعية على استبطان معصية ومقت يتربصون الفرص لاظهارهما ويتوقعون الدوائر لاعلانهما وقد قال الله تعالى قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم او من تحت ارجلكم او يلبسكم شيعا وفى قوله تعالى عذابا من فوقكم او من تحت ارجلكم تأويلان احدهما ان العذاب الذى هو من فوقهم امراء السوء والذى من تحت ارجلهم عبيد السوء وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما والثانى

ان العذاب الذى هو من فوقهم الرجم والذى من تحت ارجلهم الخسف وهذا قول مجاهد وسعيد بن جبير وفى قوله تعالى او يلبسكم شيعا تأويلان احدهما انه الاهواء المختلفة وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما والثانى انه الفتن والاختلاط وهذا قول مجاهد وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ما من امير على عشرة الا وهو يجئ يوم القيامة مغلولة يداه الى عنقه حتى يكون عمله هو الذى يطلقه او يوبقه وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال خير ائمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وشر ائمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم وهذا صحيح لانه اذا كان ذا خير احبهم واحبوه واذا كان ذا شر ابغضهم وابغضوه وقد كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى سعد بن ابى وقاص رضى الله عنه ان الله تعالى اذا احب عبدا حببه الى خلقه فاعرف منزلتك من الله تعالى بمنزلتك من الناس واعلم ان ما لك عند الله مثل ما لله عندك فكان هذا موضحا لمعنى ما ذكرنا واصل هذا ان خشية الله تبعث على طاعته فى خلقه وطاعته فى خلقه تبعث على محبته فلذلك كانت محبتهم دليلا على خيره وخشيته وبغضهم دليلا على شره وقلة مراقبته وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لبعض خلفائه اوصيك ان تخشى الله فى الناس ولا تخشى الناس فى الله وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه انى اخاف الله فيما تقلدت فقال له لست اخاف عليك ان تخاف الله وانما اخاف عليك ان لا تخاف الله وهذا واضح لان الخائف من الله تعالى مأمون كالذى روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قال لابى مريم السلولى وكان الذى قتل اخاه زيدا والله انى لا احبك حتى تحب الارض الدم قال أفيمنعنى ذلك حقا قال لا قال فلا ضير انما يأسى على الحب النساء وروى عبد الرحمن بن محمد قال اصدق طلحة بن عبد الله ام كلثوم بنت ابى بكر مائة الف درهم وهو اول من اصدق هذا القدر فمر بالمال على عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال ما هذا قالوا صداق ام كلثوم ابنة ابى بكر فقال ادخلوه بيت المال فاخبر بذلك طلحة وقيل له كلمه فى ذلك فقال ما انا بفاعل لئن كان عمر يرى له فيه حقا لا يرده لكلامى وان كان لا يرى فيه حقا ليردنه قال فلما اصبح عمر امر بالمال فدفع الى ام كلثوم وحكى ان الرشيد حبس ابى العتاهية

فكتب

فكتب على حائط الحبس

* أما والله ان الظلم شؤم * وما زال المسئ هو الظلوم *
* الى ديان يوم الدين نمضى * وعند الله تجتمع الخصوم *
* ستعلم فى المعاد ان التقينا * غدا عند المليك من الظلوم *

فاخبر الرشيد بذلك فبكى بكاء شديدا ودعى بابى العتاهية فاستحله ووهب له الف دينار واطلقه واما ﴿ القاعدة الثالثة ﴾ فهى عدل شامل يدعو الى الالفة ويبعث على الطاعة وتتعمر به البلاد وتنمى به الاموال ويكثر معه النسل ويأمن به السلطان فقد قال المرزبان لعمر حين رآه وقد نام متبذلا عدلت فامنت فنمت وليس شئ اسرع فى خراب الارض ولا افسد لضمائر الخلق من الجور لانه ليس يقف على حد ولا ينتهى الى غاية ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال بئس الزاد الى المعاد * العدوان على العباد * وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث منجيات وثلاث مهلكات فاما المنجيات فالعدل فى الغضب والرضى وخشية الله فى السر والعلانية والقصد فى الغناء والفقر واما المهلكات فشح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه وحكى ان الاسكندر قال لحكماء الهند وقد رأى قلة الشرائع بها لما صارت سنن بلادكم قليلة قالوا لاعطائنا الحق من انفسنا ولعدل ملوكنا فينا فقال لهم ايما افضل العدل او الشجاعة قالوا اذا استعمل العدل اغنى عن الشجاعة وقال بعض الحكماء بالعدل والانصاف تكون مدة الائتلاف وقال بعض البلغاء ان العدل ميزان الله الذى وضعه للخلق * ونصبه للحق * فلا تخالفه فى ميزانه * ولا تعارضه فى سلطانه * واستعن على العدل بخلتين قلة الطمع وكثرة الورع فاذا كان العدل من احدى قواعد الدنيا التى لا انتظام لها الا به ولا صلاح فيها الا معه وجب ان نبدأ بعدل الانسان فى نفسه ثم بعدله فى غيره فاما عدله فى نفسه فيكون بحملها على المصالح * وكفها عن القبائح * ثم بالوقوف فى احوالها على اعدل الامرين من تجاوز او تقصير فان التجاوز فيها جور والتقصير فيها ظلم ومن ظلم نفسه فهو لغيره اظلم ومن جار عليها فهو على غيره اجور وقد قال بعض الحكماء من توانى فى نفسه ضاع واما عدله

فى غيره فقد ينقسم حال الانسان مع غيره على ثلاثة اقسام ◆ فالقسم الاول عدل الانسان فيمن دونه كالسلطان فى رعيته والرئيس مع صحابته فعدله فيهم يكون باربعة اشياء باتباع الميسور وحذف المعسور وترك التسلط بالقوة وابتغاء الحق فى الميسور فان اتباع الميسور ادوم * وحذف المعسور اسلم * وترك التسلط اعطف على المحبة وابتغاء الحق ابعث على النصرة وهذه امور ان لم تسلم للزعيم المدبر كان الفساد بنظره اكثر * والاختلاف بتدبيره اظهر * روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اشد الناس عذابا يوم القيامة من اشركه الله فى سلطانه فجار فى حكمه وقال بعض الحكماء الملك يبقى على الكفر ولا يبقى على الظلم وقال بعض الادباء ليس للجائر جار * ولا تعمر له دار * وقال بعض البلغاء اقرب الاشياء صرعة الظلوم وانفذ السهام دعوة المظلوم وقال بعض حكماء الملوك العجب من ملك استفسد رعيته وهو يعلم ان عزه بطاعتهم وقال ازدشير ابن بابك اذا رغب الملك عن العدل رغبت الرعية عن طاعته وعوتب انوشروان على ترك عقاب المذنبين فقال هم المرضى ونحن الاطباء فاذا لم نداوهم بالعفو فمن لهم ◆ والقسم الثانى عدل الانسان مع من فوقه كالرعية مع سلطانها والصحابة مع رئيسها فقد يكون بثلاثة اشياء باخلاص الطاعة وبذل النصرة وصدق الولاء فان اخلاص الطاعة اجمع للشمل وبذل النصرة ادفع للوهن وصدق الولاء انفى لسوء الظن وهذه امور ان لم تجتمع فى المرء تسلط عليه من كان يدفع عنه واضطر الى اتقاء من يتقى به كما قال البحترى

* متى احوجت ذا كرم تخطا * اليك ببعض اخلاق اللئام *

وفى استمرار هذا حل نظام جامع وفساد صلاح شامل وقال ابرويس اطع من فوقك يطعك من دونك وقال بعض الحكماء الظلم مسلبة النعم * والبغى مجلبة النقم * وقال بعض الحكماء ان الله تعالى لا يرضى عن خلقه الا بتأدية حقه وحقه وشكر النعمة * ونصح الامة * وحسن الصنيعة * ولزوم الشريعة ◆ والقسم الثالث عدل الانسان مع اكفائه ويكون بثلاثة اشياء بترك الاستطالة ومجانبة الادلال وكف الاذى لان ترك الاستطالة آلف * ومجانبة الادلال اعطف * وكف الاذى انصف * وهذه امور ان لم تخلص فى الاكفاء

اسرع فيهم تقاطع الاعداء ففسدوا وافسدوا وقد روى عمر بن عبد العزيز عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا انبئكم بشرار الناس قالوا بلى يا رسول الله قال من اكل وحده ومنع رفده وجلد عبده (وفى نسخة بدل هذا من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره) ثم قال ألا انبئكم بشر من ذلك قالوا بلى يا رسول الله قال من يبغض الناس و يبغضونه وروى ان عيسى بن مريم عليهما السلام قام خطيبا فى بنى اسرائيل فقال يا بنى اسرائيل لا تكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها ولا تمنعوها اهلها فتظلموهم ولا تكافئوا ظالما فيبطل فضلكم يا بنى اسرائيل الامور ثلاثة امر تبين رشده فاتبعوه * وامر تبين غيه فاجتنبوه * وامر اختلفتم فيه فردوه الى الله تعالى وهذا الحديث جامع لآداب العدل فى الاحوال كلها وقال بعض الحكماء كل عقل لا يدارى به الكل فليس بعقل تام وقال بعض الشعراء

* ما دمت حيا فدار الناس كلهم * فانما انت فى دار المدارات *
* من يدر دارى ومن لم يدر سوف يرى * عما قليل نديما للندامات *

وقد يتعلق بهذه الطبقات امور خاصة يكون عدلهم فيها بالتوسط فى حالتى التقصير و السرف لان العدل مأخوذ من الاعتدال فما جاوز الاعتدال فهو خروج عن العدل وقد قالت الحكماء الفضائل هيات متوسطة بين خلتين ناقصتين وافعال الخير تتوسط بين رذيلتين ❁ فالحكمة ❁ واسطة بين الشر والجهالة ❁ والشجاعة ❁ واسطة بين التقحم والجبن ❁ والعفة ❁ واسطة بين الشره وضعف الشهوة ❁ والسكينة ❁ واسطة بين السخط وضعف الغضب ❁ والغيرة ❁ واسطة بين الحسد وسوء العادة ❁ والظرف ❁ واسطة بين الخلاعة والعرامة ❁ والتواضع ❁ واسطة بين الكبر ودناءة النفس ❁ والسخاء ❁ واسطة بين التبذير والتقتير ❁ والحلم ❁ واسطة بين افراط الغضب وعدمه ❁ والمودة ❁ واسطة بين الخلابة وحسن الخلق ❁ والحياء ❁ واسطة بين القحة والحقد ❁ والوقار ❁ واسطة بين الهزء والسخافة واذا كان ما خرج عن الاعتدال الى ما ليس باعتدال خروجا عن العدل الى ما ليس بعدل فالاولى اجتنابه والوقوف مع الاوسط اقتداء

بالحديث وقال بعض البلغاء البلد السوء يجمع السفل ويورث العلل والولد السوء يشين السلف ويهدم الشرف والجار السوء يفشي السر ويهتك الستر فجعل هذه الاشياء بخروجها عن الاولى الى ما ليس باولى خروجا عن العدل الى ما ليس بعدل ولست تجد فسادا الا وسبب نتيجة الخروج فيه من حال العدل الى ما ليس بعدل من حالتى الزيادة والنقصان فاذا لا شئ انفع من العدل كما لا شئ اضر مما ليس بعدل واما ﴿ القاعدة الرابعة ﴾ فهى امر عام تطمئن اليه النفوس وتنتشر فيه الهمم ويسكن اليه البرئ ويأنس به الضعيف فليس لخائف راحة ولا لحاذر طمأنينة وقد قال بعض الحكماء الامن اهنأ عيش * والعدل اقوى جيش * لان الخوف يقبض الناس عن مصالحهم ويحجزهم عن تصرفهم ويكفهم عن اسباب المواد التى بها قوام اودهم وانتظام جملتهم لان الامن من نتائج العدل والجور من نتائج ما ليس بعدل وقد يكون الجور تارة بمقاصد الآدميين الخارجة عن العدل وتارة تكون باسباب حادثة من غير مقاصد الآدميين فلا تكون خارجة عن حال العدل فمن اجل ذلك لم يكن ما سبق من حال العدل مقنعا عن ان يكون الامن فى انتظام الدنيا قاعدة كالعدل فاذا كان ذلك كذلك فالامن المطلق ما عم والخوف قد يتنوع تارة ويعم فتنوعه بان يكون تارة على النفس وتارة على الاهل وتارة على المال وعمومه ان يستوجب جميع الاحوال ولكل واحد من انواعه حظ من الوهن ونصيب من الحزن وقد يختلف باختلاف اسبابه ويتفاضل بتباين جهاته ويكون بحسب اختلاف الرغبة فيما خيف عليه فمن اجل ذلك لم يجز ان يصف حال كل واحد من انواعه بمقدار من الوهن ونصيب من الحزن لا سيما والخائف على الشئ مختص الهم به منصرف الفكر عن غيره فهو يظن اذ لا خوف له الا اياه * فيغفل عن قدر النعمة بالامن فيما سواه * فصار كالمريض الذى هو بمرضه متشاغل * وعما سواه غافل * ولعل ما صرف عنه اعظم مما ابتلى به وانما يوكل بالادنى وان جل ما يعنى وحكى ان رجلا قال واعرابى حاضر ما اشد وجع الضرس فقال الاعرابى كل داء اشد داء وكذلك من عمه الامن كمن استولت عليه العافية

فهو

فهو لا يعرف قدر النعمة بامنه حتى يخاف كما لا يعرف المعافى قدر النعمة حتى يصاب وقال بعض الحكماء انما يعرف قدر النعمة بمقاساة ضدها فاخذ ذلك ابو تمام الطائى فقال

* والحادثات وان اصابك بؤسها * فهو الذى انباك كيف نعيمها *

فالاولى بالعاقل ان يتذكر عند مرضه وخوفه قدر النعمة فيما سوى ذلك من عافيته وامنه وما انصرف عنه مما هو اشد من مرضه وخوفه فيستدل بالشكوى شكرا * وبالجزع صبرا * فيكون فرحا مسرورا حكى ان يعقوب قال ليوسف عليهما السلام حين لقيه اى شئ كان خبرك بعدى قال لا تسأل عما فعله بى اخوتى سلنى عما صنعه بى ربى وقال الشاعر

* لا تنس فى الصحة ايام السقم * فان عقبى تارك الحزم ندم *

واما ﴿ القاعدة الخامسة ﴾ فهى خصب دار تتسع النفوس به فى الاحوال * وتشترك فيه ذو الاكثار والاقلال * فيقل فى الناس الحسد وينتفى عنهم تباغض العدم وتتسع النفوس فى التوسع وتكثر المواساة والتواصل وذلك من اقوى الدواعى لصلاح الدنيا وانتظام احوالها ولان الخصب يؤول الى الغنى والغنى يورث الامانة والسخاء وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى ابى موسى الاشعرى لا تستقضين الا ذا حسب ومال فان ذا الحسب يخاف العواقب وذا المال لا يرغب فى مال غيره وقال بعض السلف انى وجدت خير الدنيا والآخرة فى التقى والغنى وشر الدنيا والآخرة فى الفجور والفقر وقال بعض الشعراء

* ولم ار بعد الدين خيرا من الغنى * ولم ار بعد الكفر شرا من الفقر *

وبحسب الغنى يكون اقلال البخيل واعطاؤه * واكثار الجواد وسخاؤه * كما قال دعبل

* لان كنت لا تولى ندى دون امرة * فلست بمول نائلا آخر الدهر *
* واى اناء لم يفض عند ملئه * واى بخيل لم ينل ساعة الوفر *

واذا كان الخصب يحدث من اسباب الصلاح ما وصفت كان الجدب يحدث من اسباب الفساد ما ضادها وكما ان صلاح الخصب عام فكذلك فساد الجدب عام وما عم به الصلاح ان وجد * وما عم به الفساد ان فقد * فاحرى ان يكون

من قواعد الصلاح ودواعى الاستقامة والخصب يكون من وجهين خصب فى المكاسب وخصب فى المواد فاما خصب المكاسب فقد يتفرع من خصب المواد وهو من نتائج الامن المقترن بها واما خصب المواد فقد يتفرع عن اسباب الهية وهو من نتائج العدل المقترن بها واما ﴿ القاعدة السادسة ﴾ فهى امل فسيح يبعث على اقتناء ما يقصر العمر عن استيعابه * ويبعث على اقتناء ما ليس يؤمل فى دركه بحياة اربابه * ولولا ان الثانى يرتفق بما انشأه الاول حتى يصير به مستغنيا لافتقر اهل كل عصر الى انشاء ما يحتاجون اليه من منازل السكنى واراضى الحرث وفى ذلك من الاعواز وتعذر الامكان ما لا خفاء به فلذلك ما ارفق الله تعالى خلقه باتساع الآمال الا حتى عمر به الدنيا فعم صلاحها وصارت تنتقل بعمرانها الى قرن بعد قرن فيتم الثانى ما ابقاه الاول من عمارتها ويرمم الثالث ما احدثه الثانى من شعثها لتكون احوالها على الاعصار ملتئمه * وامورها على ممر الدهور منتظمه * ولو قصرت الآمال ما تجاوز الواحد حاجة يومه ولا تعدى ضرورة وقته ولكانت تنتقل الى من بعده خرابا لا يجد فيها بلغة ولا يدرك منها حاجة ثم تنتقل الى من بعد باسوأ من ذلك حالا حتى لا ينمى بها نبت ولا يمكن فيها لبث وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الامل رحمة من الله لامتى ولولاه لما غرس غارس شجرا ولا ارضعت ام ولدا وقال الشاعر

* وللنفوس وان كانت على وجل * من المنية آمال تقويها *
* فالمرء يبسطها والدهر يقبضها * والنفس تنشرها والموت يطويها *

واما حال الامل فى امر الآخرة فهو من اقوى الاسباب فى الغفلة عنها وقلة الاستعداد لها وقد افصح لبيد مع اعرابية بما تبين به حال الامل فى الامرين فقال

* واكذب النفس اذا حدثتها * ان صدق النفس يزرى بالامل *
* غير ان لا تكذبنها بالتقى * واجزها بالبر لله الاجل *

وفرق ما بين الآمال والاماني ان الآمال ما تقيدت باسباب والامانى ما تجردت عنها فهذه القواعد الست التى تصلح بها احوال الدنيا وتنتظم امور جملتها

فان كملت فيها كمل صلاحها وبعيد ان يكون امر الدنيا تاما كاملا * وان يكون صلاحها عاما شاملا * لانها موضوعة على التغيير و الفناء * منشاة على التصرم والانقضاء * وسمع بعض الحكماء رجلا يقول قلب الله الدنيا قال فاذا تستوى لانها مقلوبة وقال بعض الشعراء

* ومن عادة الايام ان خطوبها * اذا سر منها جانب ساء جانب *
* وما اعرف الايام الا ذميمة * ولا الدهر الا وهو للثار طالب *

وبحسب ما اختل من قواعدها يكون اختلالها ﴿ فصل ﴾ واما ما يصلح به حال الانسان فيها فثلاثة اشياء هى قواعد امره ونظام حاله وهى نفس مطيعة الى رشدها منتهية عن غيها والفة جامعة تنعطف القلوب عليها ويندفع المكروه بها ومادة كافية تسكن نفس الانسان اليها ويستقيم اوده بها فاما القاعدة الاولى التى هى ﴿ نفس مطيعة ﴾ فلانها اذا اطاعته ملكها واذا عصته ملكته ولم يملكها ومن لم يملك نفسه فهو بان لا يملك غيرها احرى ومن عصته نفسه كان بمعصية غيرها اولى وقال بعض الحكماء لا ينبغى للعاقل ان يطلب طاعة غيره ونفسه ممتنعة عليه وقد قال الشاعر

* أتطمع ان يطيعك قلب سعدى * وتزعم ان قلبك قد عصاك *

وطاعة نفسه تكون من وجهين احدهما نصح والثانى انقياد فاما النصح فهو ان ينظر الى الامور بحقائقها فيرى الرشد رشدا ويستحسنه ويرى الغى غيا ويستقبحه وهذا يكون من صدق النفس اذا سلمت من دواعى الهوى ولذلك قيل من تفكر ابصر فاما الانقياد فهو ان تسرع الى الرشد اذا امرها * وتنتهى عن الغى اذا زجرها * وهذا يكون من قبول النفس اذا كفيت منازعة الشهوات قال الله تعالى ويريد الذين يتبعون الشهوات ان تميلوا ميلا عظيما وللنفس آداب هى تمام طاعتها وكمال مصلحتها وقد افردنا لها من هذا الكتاب بابا واقتصرنا فى هذا الموضع على ما قد اقتضاه الترتيب * واستدعاه التقريب * واما القاعدة الثانية وهى ﴿ الالفة الجامعة ﴾ فلان الانسان مقصود بالاذية محسود بالنعمة فاذا لم يكن آلفا مألوفا تخطفته ايدى حاسديه * وتحكمت فيه اهواء اعاديه * فلم تسلم له

نعمة ولم تصف له مدة فاذا كان آلفا مألوفا انتصر بالالفة على اعاديه * وامتنع من حاسديه * فسلمت نعمته منهم * وصفت مدته عنهم * وان كان صفو الزمان عسرا * وسلمه خطرا * وقد روى ابن جريج عن عطاء رحمهما الله عن جابر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال المؤمن آلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف وخير الناس انفعهم للناس وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله تعالى يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا يرضى لكم ان تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وان تعتصموا بحبله جميعا ولا تفرقوا وان تناصحوا من ولاه الله امركم ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال وكل ذلك حث منه صلى الله عليه وسلم على الالفة والعرب تقول من قل ذل وقال قيس بن عاصم

* ان القداح اذا اجتمعن فرامها * بالكسر ذو حنق وبطش ايد *
* عزت فلم تكسر وان هى بددت * فالوهن والتكسير للمتبدد *

واذا كانت الالفة بما اثبت تجمع الشمل وتمنع الذل اقتضت الحال ذكر اسبابها واسباب الالفة خمسة وهى الدين والنسب والمصاهرة والمودة والبر فاما ❊ الدين ❊ وهو الاول من اسباب الالفة فلأنه يبعث على التناصر * ويمنع من التقاطع والتدابر * وبمثل ذلك وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم اصحابه فروى سفيان عن الزهرى عن انس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى عليه وسلم لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله اخوانا لا يحل لمسلم ان يهجر اخاه فوق ثلاث وهذا وان كان اجتماعهم فى الدين يقتضيه فهو على وجه التحذير من تذكر تراث الجاهلية واحن الضلالة فقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم والعرب اشد تقاطعا وتعاديا * واكثر اخلافا وتماديا * حتى ان بنى الاب الواحد يتفرقون احزابا فتثير بينهم بالتحزب والافتراق احقاد الاعداء * واحن البعداء * وكانت الانصار اشدهم تقاطعا وتعاديا وكان بين الاوس والخزرج من الاختلاف والتباين اكثر من غيرهم الى ان اسلموا فذهبت احنهم وانقطعت عداوتهم وصاروا بالاسلام اخوانا متواصلين * وبالفة الدين اعوانا متناصرين * قال الله تعالى واذكروا اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته

اخوانا

اخوانا يعنى اعداء فى الجاهلية فالف بين قلوبكم بالاسلام وقال تعالى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا يعنى حبا وعلى حسب الألف على الدين تكون العداوة فيه اذا اختلف باهله فان الانسان قد يقطع فى الدين من كان به برا وعليه مشفقا هذا ابو عبيدة بن الجراح وقد كانت له المنزلة العالية فى الفضل والاثر المشهور فى الاسلام قتل اباه يوم بدر واتى برأسه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم طاعة لله عز وجل ولرسوله حين بقى على ضلاله وانهمك فى طغيانه فلم يعطفه عليه رحمة ولا كفه عنه شفقة وهو من ابر الابناء تغليبا للدين على النسب وطاعة الله تعالى على طاعة الاب وفيه انزل الله لا تجدوا قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آبائهم او ابناءهم او اخوانهم او عشيرتهم وقد يختلف اهل الدين على مذاهب شتى وآراء مختلفة فيحدث بين المختلفين فيه من العداوة والتباين مثل ما يحدث بين المختلفين فى الاديان وعلة ذلك ان الدين والاجتماع على العقد الواحد فيه لما كان اقوى اسباب الالفة كان الاختلاف فيه اقوى اسباب الفرقة واذا تكافأ اهل الاديان المختلفة والمذاهب المتباينة ولم يكن احد الفريقين اعلى يدا * واكثر عددا * كانت العداوة بينهم اقوى والاحن فيهم اعظم لانه ينضم الى عداوة الاختلاف تحاسد الاكفاء * وتنافس النظراء * واما ❈ النسب ❈ وهو الثانى من اسباب الالفة فلان تعاطف الارحام وحمية القرابة يبعثان على التناصر والالفة ويمنعان من التخاذل والفرقة انفة من استعلاء الاباعد على الاقارب * وتوقيا من تسلط الغرباء الاجانب * وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان الرحم اذا تماست تعاطفت ولذلك حفظت العرب انسابها لما امتنعت عن سلطان يقهرها ويكف الاذى عنها لتكون به متظافرة على من ناواها * متناصرة على من شاقها وعاداها * حتى بلغت بالفة الانساب تناصرها على القوى الايد وتحكمت به تحكم المتسلط المتشطط وقد اعذر نبى الله لوط عليه السلام نفسه حين عدم عشيرة تنصره فقال لمن بعث اليه لو ان لى بكم قوة او آوى الى ركن شديد يعنى عشيرة مانعة وروى ابو سلمة عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رحم الله لوطا لقد كان يأوى الى

ركن شديد يعنى الله عز وجل وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بعث الله تعالى من بعده نبيا الا فى ثروة من قومه وقال وهب لقد وردت الرسل على لوط وقالوا ان ركنك لشديد وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان لا يترك المرء مفرجا حتى يضمه الى قبيلة يكون فيها قال الرياشى المفرج الذى لا ينتمى الى قبيلة يكون منها وكل ذلك حث منه صلى الله عليه وسلم على الالفة وكف عن الفرقة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من كثر سواد قوم فهو منهم واذا كان النسب بهذه المنزلة من الالفة فقد تعرض له عوارض تمنع منها وتبعث على الفرقة المنافية لها فاذا قد لزم ان نصف حال الانساب * وما يعرض لها من الاسباب * فجملة الانساب انها تنقسم ثلاثة اقسام قسم والدون وقسم مولودون وقسم مناسبون ولكل قسم منهم منزلة من البر والصلة وعارض يطرأ فيبعث على العقوق والقطيعة * فاما الوالدون فهم الآباء والامهات والاجداد والجدات وهم موسومون مع سلامة احوالهم بخلقين احدهما لازم بالطبع والثانى حادث باكتساب فاما ما كان لازما بالطبع فهو الحذر والاشفاق وذلك لا ينتقل عن الوالد بحال وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الوالد مبخلة مجهلة مجبنة محزنة فاخبر ان الحذر عليه يكسب هذه الاوصاف ويحدث هذه الاخلاق وقد كره قوم طلب الولد كراهة لهذه الحالة التى لا يقدر على دفعها عن نفسه للزومها طبعا وحدوثها حتما وقيل ليحيى بن زكريا عليهما السلام ما بالك تكره الولد فقال ما لى وللولد ان عاش كدنى وان مات هدنى وقيل لعيسى بن مريم عليهما السلام ألا تتزوج فقال انما يحب التكاثر فى دار البقاء واما ما كان حادثا بالاكتساب فهى المحبة التى تنمى مع الاوقات وتتغير مع تغير الحالات وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الولد انوط يعنى ان حبه يلتصق بنياط القلب وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لكل شئ ثمرة وثمرة القلب الولد فان انصرف الوالد عن حب الولد فليس ذلك لبعض منه ولكن لسلوة حدثت من عقوق او تقصير مع بقاء الحذر والاشفاق الذى لا يزول عنه ولا ينتقل منه فقد قال محمد بن على رضى الله عنه ان الله تعالى رضى الآباء للابناء فحذرهم فتنتهم ولم يوصهم بهم ولم يرض الابناء للآباء

فاوصاهم

فاوصاهم بهم وان شر الابناء من دعاه التقصير الى العقوق وشر الآباء من دعاه البر الى الافراط والامهات اكثر اشفاقا واوفر حبا لما باشرن من الولادة وعانين من التربية فانهن ارق قلوبا وألين نفوسا وبحسب ذلك وجب ان يكون التعطف عليهن اوفر جزاء لفعلهن وكفاء لحقهن وان كان الله تعالى قد اشرك بينهما فى البر وجمع بينهما فى الوصية فقال تعالى ووصينا الانسان بوالديه حسنا وقد روى ان رجلا اتى الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ان لى اما انا مطيعها اقعدها على ظهرى ولا اصرف عنها وجهى وأرد اليها كسبى فهل جزيتها قال لا ولا بزفرة واحدة قال ولم قال لانها كانت تخدمك وهى تحب حياتك وانت تخدمها وتحب موتها وقال الحسن البصرى حق الوالد اعظم وبر الوالدة الزم وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال انهاكم عن عقوق الامهات ووأد البنات ومنع وهات وروى خالد بن معدان عن المقدام قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله يوصيكم بامهاتكم ثم يوصيكم بالاقرب فالاقرب واما المولودون فهم الاولاد واولاد الاولاد والعرب تسمى ولد الولد الصفوة وهم مختصون مع سلامة احوالهم بخلقين احدهما لازم والآخر منتقل فاما اللازم فهو الانفة للآباء من تهضم او خمول والانفة فى الابناء فى مقابلة الاشفاق فى الآباء وقد لحظ ابو تمام الطائى هذا المعنى فى شعره فقال

* فاصبحت تلقانى الزمان لاجله * باعظام مولود واشفاق والد *

فاما المنتقل فهو الادلال وهو اول حال الولد والادلال فى الابناء فى مقابلة المحبة فى الآباء لان المحبة بالآباء اخص والادلال بالابناء امس وقد روى عن عمر انه قال قلت يا رسول الله ما بالنا نرق على اولادنا ولا يرقون علينا قال لانا ولدناهم ولم يلدونا ثم الادلال فى الابناء قد ينتقل مع الكبر الى احد امرين اما البر والاعظام واما الى الجفاء والعقوق فان كان الولد رشيدا او كان الاب برا عطوفا صار الادلال برا واعظاما وقد روى الزهرى عن عامر بن شراحيل ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لجرير بن عبد الله ان حق الوالد على الولد ان يخشع له عند الغضب ويؤثره على نفسه عند النصب والسغب فان المكافى ليس بالواصل ولكن

الواصل من اذا قطعت رحمه وصلها وان كان الولد غاويا او كان الوالد جافيا صار الادلال قطيعة وعقوقا ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم رحم الله امرءا اعان ولده على بره وبشر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بمولود فقال ريحانة اشمها ثم هو عن قريب ولد بار او عدو ضار وقد قيل فى منثور الحكم العقوق ثكل من لم يثكل وقال بعض الحكماء ابنك ريحانك سبعا وخادمك سبعا ووزيرك سبعا ثم هو صديق او عدو واما المناسبون فهم من عدا الآباء والابناء ممن يرجع بتعصيب او رحم والذى يختصون به الحمية الباعثة على النصرة وهى ادنى رتبة الانفة لان الانفة تمنع من التهضم والخمول معا والحمية تمنع من التهضم وليس لها فى كراهة الخمول نصيب الا ان يقترن بها ما يبعث على الالفة وحمية المناسبين انما يدعو الى النصرة على البعداء والاجانب وهى معرضة لحسد الادانى والاقارب موكولة الى منافسة الصاحب بالصاحب فان حرست بالتواصل والتلاطف تأكدت اسبابها واقترن بحمية النسب مصافاة المودة وذلك اوكد اسباب الالفة وقد قيل لبعض قريش ايما احب اليك اخوك او صديقك قال اخى اذا كان صديقا وقال مسلمة بن عبد الملك العيش فى ثلاث سعة المنزل وكثرة الخدم وموافقة الاهل وقال بعض الحكماء البعيد قريب بمودته والقريب بعيد بعداوته وان اهملت الحال بين المتناسبين ثقة بلحمة النسب واعتمادا على حمية القرابة غلب عليها مقت الحسد ومنازعة التنافس فصارت المناسبة عداوة والقرابة بعدا وقال الكندى فى بعض رسائله الاب رب والولد كمد والاخ فخ والعم غم والخال وبال والاقارب عقارب وقال عبد الله بن المعتز

* لحومهم لحمى وهم يأكلونه * وما داهيات المرء الا اقاربه *

ومن اجل ذلك امر الله تعالى بصلة الارحام واثنى على واصلها فقال تعالى والذين يصلون ما امر الله به ان يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب قال المفسرون هى الرحم التى امر الله بوصلها ويخشون ربهم فى قطعها ويخافون سوء الحساب فى المعاقبة عليها وروى عبد الرحمن بن عوف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله عز وجل انا الرحمن وهى الرحم اشتققت لها من اسمى اسما فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته وروى عنه صلى

الله

الله عليه وسلم انه قال صلة الرحم منماة للعدد مثراة للمال محبة فى الاهل منساة فى الاجل وقال بعض الحكماء ابلوا ارحامكم بالحقوق ولا تجفوها بالعقوق وقال بعض البلغاء صلوا ارحامكم فانها لا تبلى عليها اصولكم ولا تهضم عليها فروعكم وقال بعض الادباء من لم يصلح لاهله لم يصلح لك ومن لم يذب عنهم لم يذب عنك وقال بعض الفصحاء من وصل رحمه وصله الله ورحمه ومن اجار جاره اعانه الله وجاره وقال محمد بن عبد الله الازدى

* وحسبك من ذل وسوء صنيعة * مناواة ذى القربى وان قيل قاطع *
* ولكن اواسيه وانسى ذنوبه * لترجعه يوما الى الرواجع *
* ولا يستوى فى الحكم عبدان واصل * وعبد لارحام القرابة قاطع *

واما المصاهرة وهى الثالث من اسباب الالفة فلانها استحداث مواصلة وتمازج مناسبة صدرا عن رغبة واختيار انعقدا على خير وايثار فاجتمع فيها اسباب الالفة ومواد المظاهرة قال الله تعالى ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة يعنى بالمودة المحبة وبالرحمة الحنو والشفقة وهما من اوكد اسباب الالفة وفيها تأويل آخر قاله الحسن البصرى رحمه الله ان المودة النكاح والرحمة الولد وقال تعالى والله جعل لكم من انفسكم ازواجا وجعل لكم من ازواجكم بنين وحفدة اختلف المفسرون فى الحفدة فقال عبدالله بن مسعود هما اختان الرجل على بناته وقال عبدالله بن عباس رضى الله عنهما هم ولد الرجل وولد ولده وروى عنه انهم بنوا امرأة الرجل من غيره وسموا حفدة لحفدهم فى الخدمة وسرعتهم فى العمل ومنه قولهم فى القنوت واليك نسعى ونحفد اى نسرع الى العمل بطاعتك ولم تزل العرب تجتذب البعداء وتتألف الاعداء بالمصاهرة حتى يرجع المنافر مؤانسا ويصير العدو مواليا وقد يصير للصهر بين الاثنين الفة بين القبيلتين وموالاة بين العشيرتين حكى عن خالد بن يزيد بن معاوية انه قال كان ابغض خلق الله عز وجل الىّ آل الزبير حتى تزوجت منهم ارملة فصاروا احب خلق الله عز وجل الىّ وفيها يقول

* احب بنى العوام طرا لاجلها * ومن اجلها احببت اخوالها كلبا *

* فان تسلمی نسلم وان تتنصری * يخط رجال بين اعينهم صلبا *

ولذلك قيل المرء على دين زوجته لما يستنزله الميل اليها من المتابعة ويجتذبه الحب لها من الموافقة فلا يجد الى المخالفة سبيلا ولا الى المباينة والمشاقة طريقا واذا كانت المصاهرة للنكاح بهذه المنزلة من الالفة فقد ينبغى لعقدها احد خمسة اوجه وهى المال والجمال والدين والالفة والتعفف وقد روى سعيد بن ابى سعيد عن ابى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال تنكح المرأة لاربع لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها فعليك بذات الدين تربت يداك فان كان عقد النكاح لاجل المال وكان اقوى الدواعى اليه فالمال اذا هو المنكوح فان اقترن بذلك احد الاسباب الباعثة على الائتلاف جاز ان يلبث العقد وتدوم الالفة فان تجرد عن غيره من الاسباب وعرى عما سواه من المواد فاخلق بالعقد ان ينحل وبالالفة ان تزول لا سيما اذا غلب الطمع وقل الوفاء لان المال ان وصل اليه فقد يقضى سبب الالفة به فقد قيل من ودك لشئ تولى مع انقضائه وان اعوز الوصول اليه وتعذرت القدرة عليه اعقب ذلك استهانة الآيس بعد شدة الامل فحدثت منه عداوة الخائب بعد استحكام الطمع فصارت الوصلة فرقة والالفة عداوة وقد قيل من ودك طمعا فيك ابغضك اذا ايس منك وقال عبد الحميد من عظمك لاكثارك استقلك عند اقلالك فان كان العقد رغبة فى الجمال فذلك ادوم للالفة من المال لان الجمال صفة لازمة والمال صفة زائلة ولذلك قيل حسن الصورة اول السعادة وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اعظم النساء بركة احسنهن وجها واقلهن مهرا فان سلمت الحال من الادلال المفضى الى الملال استدامت الالفة واستحكمت الوصلة وقد كانوا يكرهون الجمال البارع اما لما يحدث عنه من شدة الادلال وقد قيل من بسطه الادلال قبضه الاذلال واما لما يخاف من محنة الرغبة وبلوى المنازعة وقد حكى ان رجلا شاور حكيما فى التزوج فقال له افعل واياك والجمال البارع فانه مرعى انيق فقال الرجل وكيف ذلك قال كما قال الاول

* ولن تصادف مرعى ممرعا ابدا * الا وجدت به آثار منتجع *

واما لما يخافه اللبيب من شدة الصبوة ويتوقاه الحازم من سوء عواقب الفتنة وقد قال بعض الحكماء اياك ومخالطة النساء فان لحظ المرأة سهم ولفظها سم ورأى بعض الحكماء صيادا يكلم امرأة فقال يا صياد احذر ان تصاد وقال سليمان بن داود عليهما السلام لابنه امش وراء الاسد ولا تمش وراء المرأة وسمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه امرأة تقول هذا البيت

* ان النساء رياحين خلقن لكم * وكلكم يشتهى شم الرياحين *

فقال رضى الله عنه

* ان النساء شياطين خلقن لنا * نعوذ بالله من شر الشياطين *

وان كان العقد رغبة فى الدين فهو اوثق العقود حالا وادومها الفة واحمدها بدأ وعاقبة لان طالب الدين متبع له ومن اتبع الدين انقاد له فاستقامت له حاله وامن زلله ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم فاظفر (لعل هذه رواية اخرى فان التى تقدمت فعليك) بذات الدين تربت يداك وفيه تأويلان احدهما تربت يداك ان لم تظفر بذات الدين والثانى انها كلمة تذكر للمبالغة ولا يراد بها سوء كقولهم ما اشجعه قاتله الله وان كان العقد رغبة فى الالفة فهذا يكون على احد وجهين اما ان يقصد به المكاثرة باجتماع الفريقين والمظافرة بتناصر الفئتين واما ان يقصد به تألف اعداء متسلطين استكفاء لعاديتهم وتسكينا لصولتهم وهذان الوجهان قد يكونان فى الاماثل واهل المنازل وداعى الوجه الاول هو الرغبة وداعى الوجه الثانى هو الرهبة وهما سببان فى غير المتناكحين فان استدام السبب دامت الالفة وان زال السبب بزوال الرغبة والرهبة خيف زوال الالفة الا ان ينضم اليها احد الاسباب الباعثة عليها والمقربة لها وان كان العقد رغبة فى التعفف فهو الوجه الحقيق المبتغى بعقد النكاح وما سوى ذلك فاسباب معلقة عليه ومضافة اليه وروى انه لما نزل قوله تعالى يا ايها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها قال النبى صلى الله عليه وسلم خلق الرجل من التراب فهمه فى التراب وخلقت المرأة من الرجل فهمها فى الرجل وروى عطية بن بشر عن عكاف بن رفاعة الهلالى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال له يا عكاف

ألك زوجة قال لا قال فانت اذا من اخوان الشياطين ان كنت من رهبان النصارى فالحق بهم وان كنت منا فمن سنتنا النكاح فكان هذا القول منه حثا على ترك الفساد وباعثا على التكاثر بالاولاد ولهذا المعنى كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول للقفال من غزوهم اذا افضيتم الى نسائكم فالكيس الكيس يعنى فى طلب الولد فلزم حينئذ فى عقد التعفف تحكم الاختيار فيه والتماس الادوم من دواعيه وهى نوعان نوع يمكن حصر شروطه ونوع لا يمكن لاختلاف اسبابه وتغاير شروطه فاما الشروط المحصورة فيه فثلاثة شروط ﴿ احدها ﴾ الدين المفضى الى الستر والعفاف والمؤدى الى القناعة والكفاف قال ابو هريرة رضى الله عنه لا يعدل مؤمن مؤمنة ان كره منها خلقا رضى منها خلقا وخطب رجل من عبدالله بن عباس رضى الله عنهما يتيمة كانت عنده فقال لا ارضاها لك قال ولم وفى دارك نشأت قال انها تتشرف قال لا ابالى فقال الآن لا ارضاك لها وفى معنى هذا قول بعض العلماء من رضى بصحبة من لا خير فيه لم يرض بصحبته من فيه خير ﴿ والشرط الثانى ﴾ العقل الباعث على حسن التقدير الآمر بصواب التدبير فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال العقل حيث كان الوف ومألوف وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال عليكم بالودود الولود ولا تنكحوا الحمقاء فان صحبتها بلاء وولدها ضياع ﴿ والشرط الثالث ﴾ الأكفاء الذين ينتفى بهم العار ويحصل بهم الاستكثار فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال تخيروا لنطفكم ولا تضعوها الا فى الاكفاء وروى ان صيفى بن اكثم قال لولده يا بنى لا يحملنكم جمال النساء عن صراحة النسب فان المناكح اللئيمة مدرجة للشرف وقال ابو الاسود الدبلى لبنيه قد احسنت اليكم صغارا وكبارا وقبل ان تولدوا قالوا وكيف احسنت الينا قبل ان نولد قال اخترت لكم من الامهات من لا تسبون بها وانشد الرياشى

* فأول احسانى اليكم تخيرى * لماجدة الاعراق باد عفافها *

وقد تنضم الى هذه الشروط من صفات الذات واحوال النفس ما يلزم التحرز منه لبعد الخير عنه وقلة الرشد فيه فان كوامن الاخلاق بادية فى الصور والاشكال كالذى روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لزيد بن حارثة

أتزوجت

أتزوجت يا زيد قال لا قال تزوج تستعفف مع عفتك ولا تتزوج من النساء خمسا قال وما هن يا رسول الله قال لا تتزوج شهبرة ولا لهبرة ولا نهبرة ولا هيذرة ولا لفوتا فقال يا رسول الله انى لا اعرف مما قلت شيئا قال اما الشهبرة فالزرقاء البذية واما اللهبرة فالطويلة المهزولة واما النهبرة فالعجوز المدبرة واما الهيذرة فالقصيرة الدميمة واما اللفوت فذات الولد من غيرك وقال شيخ من بنى سليم لابنه يا بنى اياك والرقوب الغضوب القطوب الرقوب التى تراقبه ان يموت فتأخذ ماله واوصى بعض الاعراب ابنه فى التزوج فقال اياك والحنانة والمنانة والانانة فالحنانة التى تحن لزوج كان لها والمنانة التى تمن على زوجها بمالها والانانة التى تئن كسلا وتمارضا وقال اوفى بن دلهم النساء اربع فمنهن مقمع لها سنها اجمع ومنهن ممنع تضر ولا تنفع ومنهن مصدع تفرق ولا تجمع ومنهن غيث وقع ببلد فامرع وقال الشاعر

* اری صاحب النسوان يحسب انها * سوء وبون بينهن بعيد *
* فمنهن جنات يفيء ظلالها * ومنهن نيران لهن وقود *

﴿ وانشد ابو العيناء عن ابى زيد ﴾

* ان النساء كاشجار نبتن معا * منهن مر وبعض المر مأكول *
* ان النساء ولو صورن من ذهب * فيهن من هفوات الجهل تخييل *
* ان النساء متى ينهين عن خلق * فانه واجب لا بد مفعول *
* وما وعدنك من شر وفين به * وما وعدنك من خير فممطول *

فاما النوع الآخر فانه لا يمكن حصر شروطه لانه قد يختلف باختلاف الاحوال ويتنقل بتنقل الانسان والازمان فانه لا يستغنى به عن موافقة النفس ومتابعة الشهوة ليكون ادوم لحال الالفة وامد لاسباب الوصلة فان الرأى المعلول لا يبقى على حاله والميل المدخول لا يدوم على دخله فلا بد ان ينتقل الى احدى حالتين اما الى الزيادة والكمال واما الى النقصان والزوال حكى ان رجلا قال لعلى كرم الله وجهه انى احبك واحب معاوية فقال رضى الله عنه اما الآن فانت اعور فاما ان تبرأ واما ان تعمى فاذا كان كذلك فلا بد من كشف السبب الباعث على هذا النوع فانه لا يخلو من ثلاثة احوال ﴿ احدها ﴾ ان يكون

لطلب الولد والاحمد فيه التماس الحداثة والبكارة لانها اخص بالولادة وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال عليكم بالابكار فانهن اعذب افواها وانتق ارحاما و ارضى باليسير ومعنى قوله انتق ارحاما اى اكثر اولادا وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه عليكم بالابكار فانهن اكثر حبا واقل خبا وهذه الحال هى اولى الاحوال الثلاث لان النكاح موضوع لها والشرع وارد بها وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال سوداء ولود خير من حسناء عاقر والعرب تقول من لا يلد لا ولد وقد كانوا يختارون لمثل هذه الحال انكاح البعداء الاجانب ويرون ان ذلك انجب للولد وابهى للخلقة و يجتنبون انكاح الاهل والاقارب ويرونه مضرا بخلق الولد بعيدا من نجابته روى عن النبى صلى الله عليه انه قال اغربوا لا تضووا وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قال يا بنى السائب قد اضويتم فانكحوا فى الغرائب وقال الشاعر

* تجاوزت بنت العم وهى حبيبة * مخافة ان يضوى علىّ سليلى *

وكانت حكماء المتقدمين يرون ان انجب الاولاد خلقا وخلقا من كانت سن امه بين العشرين والثلاثين وسن ابيه ما بين الثلاثين والخمسين والعرب تقول ان ولد الغيرى لا ينجب وان انجب النساء الفروك لان الرجل يغلبها على الشبه لزهدها فى الرجال وقالوا ان الرجل اذا اكره المرأة وهى مذعورة ثم اذكرت انجبت ﴿ والحالة الثانية ﴾ ان يكون المقصود به القيام بما يتولاه النساء من تدبير المنازل فهذا وان كان مختصا بمعاناة النساء فليس بلازم حالتى الزوجات لانه قد يجوز ان يعانيه غيرهن من النساء ولذلك قيل المرأة ريحانة وليست بقهرمانة وليس فى هذا القصد تأثير فى دين ولا قدح فى مروءة والاحمد فى مثل هذا التماس ذوى الاسنان والحنكة فمن قد خبرن تدبير المنازل وعرفن عادات الرجال فانهن اقوم بهذه الحال ﴿ والحالة الثالثة ﴾ ان يكون المقصود به الاستمتاع وهى اذم الاحوال الثلاث واوهنها للمروءة لانه يتماد فيه لاخلاقه البهيمية ويتابع شهوته الذميمة وقد قال الحارث بن النضر الازدى شر النكاح نكاح الغلمة الا ان يفعل ذلك لكسر الشهوة وقهرها بالاضعاف لها عند الغلبة او تسكين النفس عند المنازعة حتى لا تطمح له عين لريبة ولا تنازعه نفس الى فجور ولا

يلحقه

يلحقه فى ذلك ذم ولا يناله وصم وهو بالحمد اجدر وبالثناء احق ولو تنزه فى مثل هذه الحال عن استبدال الحرائر الى الاماء كان اكمل لمروءته وابلغ فى صيانته وهذه الحال تقف على شهوات النفوس لا يمكن ان يرجع فيها اولى الامور وهى اخطر الاحوال بالمنكوحة لان للشهوات غايات متناهية يزول بزوالها ما كان متعلقا بها فتصير الشهوة فى الابتداء كراهية فى الانتهاء ولذلك كرهت العرب البنات ووأدتهن اشفاقا عليهم وحمية لهن من ان يتبذلهن اللئام بهذه الحال وكان من تحوب من قتل البنات لرقة ومحبة كان موتهن احب اليه وآثر عنده ولما خطب الى عقيل بن علقمة ابنته الجرباء قال انى وان سيق الىّ المهر الف وعبدان وذود عشر احب اصهارى الىّ القبر وقال عبد الله بن طاهر

* لكل ابى بنت يراعى شؤونها * ثلاثة اصهار اذا حمد الصهر *
* فبعل يراعيها وخدر يكنها * وقبر يواريها وافضلها القبر *

﴿ فصل ﴾ واما المواخاة بالمودة وهى الرابع من اسباب الالفة لانها تكسب بصادق الميل اخلاصا ومصافاة ويحدث بخلوص المصافاة وفاء ومحاماة وهذا اعلى مراتب الالفة ولذلك آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين اصحابه لتزيد الفتهم ويقوى تظافرهم وتناصرهم وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال عليكم باخوان الصفاء فانهم زينة فى الرخاء وعصمة فى البلاء وروى ابو الزبير عن سهل بن سعد ان النبى صلى الله عليه وسلم قال المرء كثير باخيه ولا خير فى صحبة من لا يرى لك من الحق مثل ما ترى له وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لقاء الاخوان جلاء الاحزان وقال خالد بن صفوان ان اعجز الناس من قصر فى طلب الاخوان واعجز منه من ضيع من ظفر به منهم وقال على كرم الله وجهه لابنه الحسن يا بنى الغريب من ليس له حبيب وقال ابن المعتز من اتخذ اخوانا كانوا له اعوانا وقال بعض الادباء افضل الذخائر اخ وفىّ وقال بعض البلغاء صديق مساعد عضد وساعد وقال بعض الشعراء

* هموم رجال فى امور كثيرة * وهمى من الدنيا صديق مساعد *
* نكون كروح بين جسمين قسمت * فجسماهما جسمان والروح واحد *

وقيل انما سمى الصديق صديقا لصدقه والعدو عدوا لعدوه عليك وقال

ثعلب انما سمى الخليل خليلا لان محبته تتخلل القلب فلا تدع فيه خللا الا ملأته
وانشد الرياشي قول بشار

* قد تخللت مسلك الروح منى * وبه سمى الخليل خليلا *

والمواخاة فى الناس قد تكون على وجهين احدهما اخوة مكتسبة بالاتفاق الجارى مجرى الاضطرار والثانية مكتسبة بالقصد والاختيار فاما المكتسبة بالاتفاق فهى اوكد حالا لانها تنعقد عن اسباب تعود اليها والمكتسبة بالقصد تعقد لها اسباب تنقاد اليها وما كان جاريا بالطبع فهو الزم مما هو حادث بالقصد ونحن نبدأ بالوجه الاول المكتسب بالاتفاق ثم نعقبه بالوجه الثانى المكتسب بالقصد اما المكتسب بالاتفاق فله اسباب نبتدئ بها ثم ننتقل فى غاية احواله المحدودة الى سبع مراتب ربما استكملتهن وربما وقفت على بعضهن ولكل مرتبة من ذلك حكم خاص وسبب موجب قال الشاعر

* ما هوى الا له سبب * يبتدى منه وينشعب *

فاول اسباب الاخاء التجانس فى حال يجتمعان فيها ويأتلفان بها فان قوى التجانس قوى الائتلاف به وان ضعف كان ضعيفا ما لم تحدث علة اخرى يقوى بها الائتلاف وانما كان ذلك كذلك لان الائتلاف بالتشاكل والتشاكل بالتجانس فاذا عدم التجانس من وجه انتفى التشاكل من وجه ومع انتفاء التشاكل يعدم الائتلاف فثبت ان التجانس وان تنوع اصل الاخاء وقاعدة الائتلاف وقد روى يحيى ابن سعيد عن عمر عن عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف وهذا واضح وهى بالتجانس متعارفة وبفقده متناكرة وقيل فى منثور الحكم الاضداد لا تتفق والاشكال لا تفترق وقال بعض الحكماء بحسن تشاكل الاخوان يلبث التواصل ولبعضهم

* فلا تحتقر نفسى وانت خليلها * فكل امرئ يصبو الى من يشاكل *

﴿ وقال آخر ﴾

* فقلت اخى قالوا اخ من قرابة * فقلت لهم ان الشكول اقارب *
* نسيبي فى رأيي وعزمى وهمتى * وان فرقتنا فى الاصول المناسب *

ثم يحدث بالتجانس المواصلة بين المتجانسين وهى المرتبة الثانية من مراتب الاخاء وسبب المواصلة بينهما وجود الاتفاق منهما فصارت المواصلة نتيجة التجانس والسبب فيه وجود الاتفاق لان عدم الاتفاق منفر وقد قال الشاعر

* الناس ان وافقتهم عذبوا * او لا فان جناهم مر *
* كم من رياض لا انيس بها * تركت لان طريقها وعر *

ثم يحدث عن المواصلة رتبة ثالثة وسببها الانبساط ثم يحدث عن المؤانسة رتبة رابعة وهى المصافاة وسببها خلوص النية ورتبة خامسة وهى المودة وسببها الثقة وهذه الرتبة هى ادنى الكمال فى احوال الاخاء وما قبلها اسباب تعود اليها فان اقترن بها المعاضدة فهى الصداقة ثم يحدث عن المودة رتبة سادسة وهى المحبة وسببها الاستحسان فان كان الاستحسان لفضائل النفس حدثت رتبة سابعة وهى الاعظام وان كان الاستحسان للصورة والحركات حدثت رتبة ثامنة وهى العشق وسببه الطمع وقد قال المأمون رحمه الله تعالى

* اول العشق مزاح وولع * ثم يزداد اذا زاد الطمع *
* كل من يهوى وان غالت به * رتبة الملك لمن يهوى تبع *

وهذه الرتبة آخر الرتب المحدودة وليس لما جاوزها رتبة مقدرة ولا حالة محدودة لانها قد تؤدى الى ممازجة النفوس وان تميزت ذواتها وتفضى الى مخالطة الارواح وان تفارقت اجسادها وهذه حالة لا يمكن حصر غايتها ولا الوقوف عند نهايتها وقد قال الكندى الصديق انسان هو انت الا انه غيرك ومثل هذا القول المروى عن ابى بكر الصديق رضى الله عنه حين اقطع طلحة بن عبيدالله ارضا وكتب له بها كتابا واشهد فيه ناسا منهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه فاتى طلحة بكتابه الى عمر ليختمه فامتنع عليه فرجع طلحة مغضبا الى ابى بكر رضى الله عنه وقال والله ما ادرى انت الخليفة ام عمر فقال بل عمر لكنه انا واما المكتسبة بالقصد فلا بد لها من داع يدعو اليها وباعث يبعث عليها وذلك من وجهين رغبة وفاقة فاما الرغبة فهى ان يظهر من الانسان فضائل تبعث على اخائه ويتوسم بجميل يدعو الى اصطفائه وهذه الحالة اقوى من التى بعدها لظهور الصفات المطلوبة من غير تكلف لطلبها وانما يخاف عليها من

الاغترار بالتصنع لها فليس كل من اظهر الخير كان من اهله ولا كل من تخلق بالحسنى كانت من طبعه والمتكلف للشئ منـاف له الا ان يدوم عليه مستحسنـا له فى العقل او متدينا به فى الشرع فيصير متطبعا به لا مطبوعا عليه لانه قد تقدم من كلام الحكماء ليس فى الطبع ان يكون ما ليس فى التطبع ثم نقول فى المتعذر ان تكون اخلاق الفاضل كاملة بالطبع وانمـا الاغلب ان يكون بعض فضائله بالطبع وبعضها بالتطبع الجـارى بالعادة مجرى الطبع حتى يصير ما تطبع به فى العادة اغلب عليه مما كان مطبوعا عليه اذ خالف العادة ولذلك قيل العادة طبع ثان وقال ابن الرومى رحمه الله

* واعلم بان الناس من طينة * يصدق فى الثلب لها الثالب *
* لولا علاج الناس اخلاقهم * اذا لفـاح الحمأ اللازب *

واما الفاقة فهى ان يفتقر الانسان لوحشة انفراده ومهانة وحدته الى اصطفاء من يأنس بمواخاته ويثق بنصرته وموالاته وقد قالت الحكماء من لم يرغب بثلاث بلى بست من لم يرغب فى الاخوان بلى بالعداوة والخذلان ومن لم يرغب فى السلامة بلى بالشدائد والامتهـان ومن لم يرغب فى المعروف بلى بالندامة والخسران ولعمرى ان اخوان الصدق من انفس الذخائر وافضل العدد لانهم سهماء النفوس واوليـاء النوائب وقد قالت الحكمـاء رب صديق اود من شقيق وقيل لمعـاوية ايمـا احب اليك قال صديق يحببنى الى النـاس وقال ابن المعتز القريب بعداوته بعيد والبعيد بمودته قريب وقال الشاعر

* لمودة ممن يحبك مخلصـا * خير من الرحم القريب الكاشح *

﴿ وقال آخر ﴾

* يخونك ذو القربى مرارا وربمـا * وفى لك عند العهد من لا تناسبه *

فاذا عزم على اصطفاء الاخوان سبر احوالهم قبل اخائهم وكشف عن اخلاقهم قبل اصطفائهم لمـا تقدم من قول الحكمـاء اسبر تخبر ولا تبعثه الوحدة على الاقدام قبل الخبرة ولا حسن الظن على الاغترار بالتصنع فان الملق مصـائد العقول والنفاق تدليس الفطن وهما سجية المتصنع وليس فيمن يكون النفـاق والملق بعض سجـاياه خير يرجى ولا صلاح يؤمل ولاجل ذلك قالت الحكمـاء

اعرف

اعرف الرجل من فعله لا من كلامه واعرف محبته من عينه لا من لسانه وقال خالد بن صفوان انما انفقت على اخوانى لانى لم استعمل معهم النفاق ولا قصرت بهم عن الاستحقاق وقال حماد عجرد

* كم من اخ لك ليس تنكره * ما دمت فى دنياك فى يسر *
* متصنع لك فى مودته * يلقاك بالترحيب والبشر *
* فاذا عدا والدهر ذو غير * دهر عليك عدا مع الدهر *
* فارفض باجمال مودة من * يقلى المقل ويعشق المثرى *
* وعليك من حالاه واحدة * فى العسر اما كنت واليسر *

على ان الانسان موسوم بسيماء من قارب ومنسوب اليه افاعيل من صاحب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء مع من احب وقال على بن ابى طالب رضى الله عنه الصاحب مناسب وقال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه ما من شئ ادل على شئ ولا الدخان على النار من الصاحب على الصاحب وقال بعض الحكماء اعرف اخاك باخيه قبلك وقال بعض الادباء يظن بالمرء ما يظن بقرينه وقال عدى بن زيد

* عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه * فكل قرين بالمقارن يقتدى *
* اذا كنت فى قوم فصاحب خيارهم * ولا تصحب الاردى فتردى مع الردى *

فلزم من هذا الوجه ايضا ان يتحرز من دخلاء السوء ويجانب اهل الريب ليكون موفور العرض سليم العيب فلا يلام بملامة غيره وهذا قبل التثبت والارتياء ومداومة الاختيار والابتلاء متعذر بل مفقود وقد ضرب ذو الرمة مثلا بالماء فيمن حسن ظاهره وخبث باطنه فقال

* ألم تر ان الماء يخبث طعمه * وان كان لون الماء ابيض صافيا *

ونظر بعض الحكماء الى رجل سوء حسن الوجه فقال اما البيت فحسن واما الساكن فردى فاخذ جحظة هذا المعنى فقال

* رب ما ابين التباين فيه * منزل عامر وعقل خراب *

﴿ وانشد فى بعض اهل العلم ﴾

* لا تركنن الى ذى منظر حسن * فرب رائقة قد ساء مخبرها *

* ما كل اصفر دينـار لصفرته * صفر العقارب ارداها وانكرها *

ثم قد تقدم من قول الحكماء من لم يقدم الامتحـان قبل الثقة و الثقة قبل الانس اثمرت مودته ندما وقال بعض البلغاء مصارمة قبل اختبار افضل من مواخاة على اغترار وقال بعض الادباء لا تثق بالصديق قبل الخبرة ولا تقع بالعدو قبل القدرة وقال بعض الشعراء

* لا تحمدن امرءا حتى تجربه * ولا تذمنـه من غير تجريب *
* فحمدك المرء ما لم تبـله خطأ * وذمه بعد حمد شر تكذيب *

و اذا قد لزم من هـذين الوجهين سبر الاخوان قبـل اخائهم وخبرة اخلاقهم قبـل اصطفائهم فالخصـال المعتبرة فى اخائهم بعد المجانسـة التى هى اصل الاتفاق اربع خصال ﴿ فالخصلة الاولى ﴾ عقل موفور يهدى الى مراشـد الامور فان الحمق لا تثبت معـه مودة ولا تدوم لصاحبه اسـتقامة وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال البـذاء لؤم وصحبة الاحمق شؤم وقال بعض الحكماء عداوة العـاقل اقل ضررا من مودة الاحمق لان الاحمق ربمـا ضر وهو يقدر ان ينفع و العـاقل لا يتجاوز الحد فى مضرته فمضرته لهـا حد يقف عليه العقل ومضرة الجاهل ليست بذات حد والمحدود اقل ضررا مما هو غير محدود وقال المنصور للمسيب بن زهير ما مادة العقل فقـال مجالسـة العقلاء وقال بعض البلغاء من الجهل صحبة ذوى الجهل ومن المحال مجادلة ذوى المحال و قال بعض الادباء من اشار عليك باصطناع جاهل او عاجز لم يخل ان يكون صديقا جاهلا او عدوا عاقلا لانه يشير بما يضرك ويحتال فيما يضع منك وقال بعض الشعراء

* اذا ما كنت متخـذا خليلا * فلا تثقن بكـل اخى اخاء *
* فان خـيرت بينهم فألصق * باهـل العقـل منهم والحيـاء *
* فان العقـل ليس له اذا ما * تفاضلت الفضـائل من كفاء *

﴿ والخصلة الثانية ﴾ الدين الواقف بصاحبه على الخيرات فان تارك الدين عدو لنفسه فكيف يرجى منه مودة غيره وقال بعض الحكماء اصطف من الاخوان ذا الدين والحسب والرأى والادب فانه ردء لك عند حاجتك و يد عنـد نائبتك

وانس عند وحشتك وزين عند عافيتك وقال حسان بن ثابت رضى الله عنه

* اخلاء الرخاء هم كثير * ولكن فى البلاء هم قليل *
* فلا يغررك خلة من تواخى * فما لك عند نائبة خليل *
* وكل اخ يقول انا وفى * ولكن ليس يفعل ما يقول *
* سوى خل له حسب ودين * فذاك لما يقول هو الفعول *

﴿ وقال آخر ﴾

* من لم يكن فى الله خلته * فخليله منه على خطر *

﴿ والخصلة الثالثة ﴾ ان يكون محمود الاخلاق مرضى الافعال مؤثرا للخير آمرا به كارها للشر ناهيا عنه فان مودة الشرير تكسب الاعداء وتفسد الاخلاق ولا خير فى مودة تجلب عداوة وتورث مذمة فان المتبوع تابع صاحبه وقال عبد الله ابن المعتز اخوان الشر كشجر النارنج يحرق بعضها بعضا وقال بعض الحكماء مخالطة الاشرار على خطر والصبر على صحبتهم كركوب البحر الذى من سلم منه ببدنه من التلف فيه لم يسلم بقلبه من الحذر منه وقال بعض البلغاء صحبة الاشرار تورث سوء الظن بالاخيار وقال بعض البلغاء من خير الاختيار صحبة الاخيار ومن شر الاختيار صحبة الاشرار وقال بعض الشعراء

* مجالسة السفيه سفاه رأى * ومن عقل مجالسة الحكيم *
* فانك والقرين معا سواء * كما قد الاديم من الاديم *

﴿ والخصلة الرابعة ﴾ ان يكون من كل واحد منهما ميل الى صاحبه ورغبة فى مواخاته فان ذلك اوكد لحال المواخاة وامد لاسباب المصافاة اذ ليس كل مطلوب اليه طالب ولا كل مرغوب اليه راغب ومن طلب مودة ممتنع عليه ورغب الى زاهد فيه كان معنى خائبا كما قال البحترى

* وطلبت منك مودة لم اعطها * ان المعنى طالب لا يظفر *

﴿ وقال العباس بن الاحنف ﴾

* فان كان لا يدنيك الا شفاعة * فلا خير فى ود يكون بشافع *
* واقسم ما ترك عتابك عن قلى * ولكن لعلمى انه غير نافع *
* وانى اذا لم الزم الصبر طائعا * فلا بد منه مكرها غير طائع *

فاذا استكملت هذه الخصال فى انسان وجب اخاؤه وتعين اصطفاؤه وبحسب وفورها فيه يجب ان يكون الميل اليه والثقة به وبحسب ما يرى من غلبة احداهما عليه يجعل مستعملا فى الخلق الغالب عليه فان الاخوان على طبقات مختلفة وانحاء متشعبة ولكل واحد منهم حال يختص بها فى المشاركة وثلمة يسدها فى الموازرة و المظافرة وليس تتفق احوال جميعهم على حد واحد لان التباين فى الناس غالب واختلافهم فى الشيم ظاهر وقال بعض الحكماء الرجال كالشجر شرابه واحد وثمره مختلف فاخذ هذا المعنى منصور بن اسماعيل فقال

* بنو آدم كالنبت * ونبت الارض الوان *
* فمنهم شجر الصندل والكافور والبان *
* ومنهم شجر افضل ما يحمل قطران *

ومن رام اخوانا تتفق احوال جميعهم رام متعذرا بل لو اتفقوا لكان ربما وقع به خلل فى نظامه اذ ليس الواحد من الاخوان يمكن الاستعانة به فى كل حال ولا المجبولون على الخلق الواحد يمكن ان يتصرفوا فى جميع الاعمال وانما بالاختلاف يكون الائتلاف وقد قال بعض الحكماء ليس بلبيب من لم يعاشر بالمعروف من لم يجد من معشرته بدا وقال المأمون الاخوان ثلاث طبقات طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه وطبقة كالدواء يحتاج اليه احيانا وطبقة كالداء لا يحتاج اليه ابدا ولعمرى ان الناس على ما وصفهم لا الاخوان منهم وليس من كان منهم كالداء من الاخوان المعدودين بل هم من الاعدآء المحذورين وانما يداجون المودة استكفافا لشرهم وتحرزا من مكاشفتهم فدخلوا فى عداد الاخوان بالمظاهرة والمساترة وفى الاعداء عند المكاشفة والمهاجرة قال بعض الحكماء مثل العدو الضاحك اليك كالحنظلة الخضرآء اوراقها القاتل مزاقها وقد قيل فى منثور الحكم لا تغترن بمقاربة العدو فانه كالماء وان اطيل اسخانه بالنار لم يمنع من اطفائها وقال يزيد ابن الحكم الثقفى

* تكاشرنى ضحكا كأنك ناصح * وعينك تبدى ان صدرك لى دوى *
* لسانك معسول و نفسك علقم * و شرك مبسوط وخيرك ملتوى *
* فليت كفافا كان خيرك كله * وشرك عنى ما ارتوى الماء مرتوى *

فاذا خرج من كان كالداء من عداد الاخوان فالاخوان هم الصنفان الآخران اللذان من كان منهم كالغذاء وكالدواء لان الغذاء اقوم للنفس وحياتها والدواء علاجها وصلاحها وافضلهما من كان كالغذاء لان الحاجة اليه اعم واذا تميز الاخوان وجب ان ينزل كل منهم حيث نزلت به احواله اليه واستقرت خصاله وخلاله عليه فمن قويت اسبابه قويت الثقة به وبحسب الثقة به يكون الركون اليه والتعويل عليه وقال الشاعر

* ما انت بالسبب الضعيف وانما * نجح الامور بقوة الاسباب *
* فاليوم حاجتنا اليك وانما * يدعى الطبيب لشدة الاوصاب *

وقد اختلفت مذاهب الناس فى اتخاذ الاخوان فمنهم من يرى ان الاستكثار منهم اولى ليكونوا اقوى منعة ويدا واوفر تحببا وتوددا واكثر تعاونا وتفقدا وقيل لبعض الحكماء ما العيش قال اقبال الزمان وعز السلطان وكثرة الاخوان وقيل حلية المرء كثرة اخوانه ومنهم من يرى ان الاقلال منهم اولى لانه اخف اثقالا وكلفا واقل تنازعا وخلفا وقال الاسكندر المستكثر من الاخوان من غير اختيار كالمستوقر من الحجارة والمقل من الاخوان المتخير لهم كالذى يتخير الجوهر وقال عمرو بن العاص من كثر اخوانه كثر غرماؤه وقال ابراهيم بن العباس مثل الاخوان كالنار قليلهما متاع وكثيرهما بوار ولقد احسن ابن الرومى فى هذا المعنى ونبه على العلة حيث يقول

* عدوك من صديقك مستفاد * فلا تستكثرن من الصحاب *
* فان الداء اكثر ما تراه * يكون من الطعام او الشراب *
* ودع عنك الكثير فكم كثير * يعاف وكم قليل مستطاب *
* فما اللجج الملاح بمرويات * وتلقى الرى فى النطف العذاب *

وقال بعض البلغاء ليكن غرضك فى اتخاذ الاخوان واصطناع النصحاء تكثير العدة لا تكثير العدة وتحصيل النفع لا تحصيل الجمع فواحد يحصل به المراد خير من الف تكثر الاعداد واذا كان التجانس والتشاكل من قواعد الاخوة واسباب المودة كان وفور العقل وظهور الفضل يقتضى من حال صاحبه قلة اخوانه لانه يروم مثله ويطلب شكله وامثاله من ذوى العقل والفضل اقل من اضداده من ذوى الحمق

والنقص لان الخيار فى كل شئ هو الاقل فلذلك قل وفور العقل والفضل وقد قال الله تعالى ان الذين ينادونك من ورآء الحجرات اكثرهم لا يعقلون فقل بهذا التعليل اخوان اهل الفضل لقلتهم وكثر اخوان ذوى النقص والجهل لكثرتهم وقد قال فى ذلك الشاعر

* لكل امرئ شكل من الناس مثله * فاكثرهم شكلا اقلهم عقلا *
* وكل اناس آلفون لشكلهم * فاكثرهم عقلا اقلهم شكلا *
* لان كثير العقل لست بواجد * له فى طريق حين يسلكه مثلا *
* وكل سفيه طائش ان فقدته * وجدت له فى كل ناحية عدلا *

واذا كان الامر على ما وصفنا فقد تنقسم احوال من دخل فى عدد الاخوان اربعة اقسام منهم من يعين ويستعين ومنهم من لا يعين ولا يستعين ومنهم من يستعين ولا يعين ومنهم من يعين ولا يستعين فاما المعين والمستعين فهو معاوض منصف يؤدى ما عليه ويستوفى ما له فهو القروض يسعف عند الحاجة ويسترد عند الاستغناء وهو مشكور فى معونته ومعذور فى استعانته فهذا اعدل الاخوان واما من لا يعين ولا يستعين فهو منازل قد منع خيره وقمع شره فهو لا صديق يرجى ولا عدو يخشى وقد قال المغيرة بن شعبة رضى الله عنه التارك للاخوان متروك واذا كان كذلك فهو كالصورة الممثلة يروقك حسنها ويخونك نفعها فلا هو مذموم لقمع شره ولا هو مشكور لمنع خيره وان كان باللوم اجدر وقد قال الشاعر

* واسوأ ايام الفتى يوم لا يرى * له احد يزرى عليه وينكر *

غير ان فساد الوقت وتغير اهله يوجب شكر من كان شره مقطوعا وان كان خيره ممنوعا كما قال المتنبى

* انا لفى زمن ترك القبيح به * من اكثر الناس احسان واجمال *

واما من يستعين ولا يعين فهو لئيم كل ومهين مستذل قد قطع عنه الرغبة وبسط فيه الرهبة فلا خيره يرجى ولا شره يؤمن وحسبك مهانة من رجل مستثقل عند اقلاله ويستقل عند استقلاله فليس لمثله فى الاخاء حظ ولا فى الوداد نصيب وهو ممن جعله المأمون من داء الاخوان لا من دوائهم ومن سمهم لا من غذائهم

وقال

وقال بعض الحكماء شر ما فى الكريم ان يمنعك خيره وخير ما فى اللئيم ان يكف عنك شره وقال ابن الرومى

* عذرنا النخل فى ابداء شوك * يرد به الانامل عن جناه *
* فما للعوسج الملعون ابدا * لنا شوكا بلا ثمر نراه *

واما من يعين ولا يستعين فهو كريم الطبع مشكور الصنع وقد حاز فضيلتى الابتداء والاكتفاء فلا يرى ثقيلا فى نائبة ولا يقعد عن نهضة فى معونة فهذا اشرف الاخوان نفسا واكرمهم طبعا فينبغى لمن اوجده ازمان مثله وقل ان يكون له مثل لانه البر الكريم والدر اليتيم ان يثنى عليه خنصره ويعض عليه ناجذه ويكون به اشد ضنا منه بنفائس امواله وسنى ذخائره لان نفع الاخوان عام ونفع المال خاص ومن كان اعم نفعا فهو بالادخار احق وقال الفرزدق

* يمضى اخوك فلا تلقى له خلفا * والمال بعد ذهاب المال مكتسب *

﴿ وقال آخر ﴾

* لكل شئ عدمته عوض * وما لفقد الصديق من عوض *

ثم لا ينبغى ان يزهد فيه لخلق او خلقين ينكرهما منه اذا رضى سائر اخلاقه وحمد اكثر شيمه لان اليسير مغفور والكمال معوز وقد قال الكندى كيف تريد من صديقك خلقا واحدا وهو ذو طبائع اربع مع ان نفس الانسان التى هى اخص النفوس به ومدبرة باختياره وارادته لا تعطيه قيادها فى كل ما يريد ولا تجيبه الى طاعته فى كل ما يحب فكيف بنفس غيره وحسبك ان يكون لك من اخيك اكثره وقد قال ابو الدرداء رضى الله عنه معاتبة الاخ خير من فقده ومن لك باخيك كله فاخذ الشعراء هذا المعنى فقال ابو العتاهية

* أاخى من لك من بنى الدنيا بكل اخيك من لك *
* فاستبق بعضك لا يملك كل من اعطيت كلك *

﴿ وقال ابو تمام الطائى ﴾

* ما غبن المغبون مثل عقله * من لك يوما باخيك كله *

وقال بعض الحكماء طلب الانصاف من قلة الانصاف وقال بعض البلغاء لا يزهدنك فى رجل حمدت سيرته وارتضيت وتيرته وعرفت فضله وبطنت عقله عيب يحيط

به كثرة فضائله او ذنب صغير تستغفر له قوة وسائله فانك لن تجد ما بقيت مهذبا لا يكون فيه عيب ولا يقع منه ذنب فاعتبر نفسك بعد ان لا تراها بعين الرضى ولا تجرى فيها على حكم الهوى فان فى اعتبارك واختبارك لها ما يؤيسك مما تطلب ويعطفك على من يذنب وقد قال الشاعر

* ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها * كفى المرء نبلا ان تعد معايبه *

وقال النابغة الذبيانى

* ولست بمستبق اخا لا تلمه * على شعث اى الرجل المهذب *

وليس ينقض هذا القول ما وصفنا من اختياره واختيار الخصال الاربع فيه لان ما اعوز فيه معفو عنه وهذا لا ينبغى ان توحشك فترة تجدها منه ولا ان تسئ الظن فى كبوة تكون منه ما لم تحقق تغيره و تتيقن تنكره وليصرف ذلك الى فترات النفوس واستراحات الخواطر فان الانسان قد يتغير عن مراعاة نفسه التى هى اخص النفوس به ولا يكون ذلك من عداوة لها ولا ملل منها وقد قيل فى منثور الحكم لا يفسدنك الظن على صديق قد اصلحك اليقين له وقال جعفر ابن محمد لابنه يا بنى من غضب من اخوانك ثلاث مرات فلم يقل فيك سوءا فاتخذه لنفسك خلا وقال الحسن بن وهب من حقوق المودة اخذ عفو الاخوان والاغضاء عن تقصير ان كان وقد روى على رضى الله عنه فى قوله تعالى فاصفح الصفح الجميل قال الرضى بغير عتاب وقال ابن الرومى

* هم الناس والدنيا ولا بد من قذى * يلم بعين او يكدر مشربا *
* ومن قلة الانصاف انك تبتغى المهذب فى الدنيا ولست المهذبا *

وقال بعض الشعراء

* تواصلنا على الايام باق * ولكن هجرنا مطر الربيع *
* يروعك صوبه لكن تراه * على علاته دانى النزوع *
* معاذ الله ان نلقى غضابا * سوى ذل المطاع على المطيع *

وانشدنى الازدى

* لا يؤيسنك من صديق نبوة * ينبو الفتى وهو الجواد الخضرم *
* فاذا نبا فاستبقه وتأنه * حتى تفئ به وطبعك اكرم *

واما الملول وهو السريع التغير الوشيك التنكر فوداده خطر واخاؤه غرر لانه لا يبقى على حالة ولا يخلو من استحالة وقد قال ابن الرومى

* اذا انت عاتبت الملول فانما * تخط على صحف من الماء احرفا *
* وهبه ارعوى بعد العتاب ألم تكن * مودته طبعا فصارت تكلفا *

وهم نوعان منهم من يكون ملاله استراحة ثم يعود الى المعهود من اخائه فهذا اسلم الملالين واقرب الرجلين يسامح فى وقت استراحته وحين فترته ليرجع الى الحسنى ويؤوب الى الاخاء وان تقدم المثل بما نظمه الشاعر حيث قال

* وقالوا يعود الماء فى النهر بعد ما * عفت منه آثار وجفت مشارعه *
* فقلت الى ان يرجع الماء عائدا * ويعشب شطاه تموت ضفادعه *

لكن لا يطرح حقه بالتوهم ولا يسقط حرمته بالظنون وقال الشاعر

* اذا ما حال عهد اخيك يوما * وحاد عن الطريق المستقيم *
* فلا تعجل بلومك واستدمه * فان اخا الحفاظ المستديم *
* فان تك زلة منه والا * فلا تبعد عن الخلق الكريم *

ومنهم من يكون ملاله تركا واطراحا ولا يراجع اخا ولا ودا ولا يتذكر حفاظا ولا عهدا كما قال اشجع بن عمر السلمى

* انى رأيت لها مواصلة * كالسم تفرغه على الشهد *
* فاذا اخذت بعهد ذمتها * لعب الصدود بذلك العهد *

وهذا اذم الرجلين حالا لان مودته من وساوس الخطرات وعوارض الشهوات وليس الا استدراك الحال معه بالاقلاع قبل المخالطة وحسن المتاركة بعد الورطة كما قال العباس بن الاحنف

* تداركت نفسى فعريتها * وبغضتها فيك آمالها *
* وما طابت النفس عن سلوة * ولكن حملت عليها لها *

وما مثل من هذه حاله الا كما قد قال ابراهيم بن هرمة

* فانك واطراحك وصل سلمى * لاحرى فى مودتها نكوب *
* كثاقبة لحلى مستعار * لاذنيها فشانهما الثقوب *
* فأدت حلى جارتها اليها * وقد بقيت باذنيها ندوب *

واذا وصفت له اخلاق من سبره وتمهدت لديه احوال من خبره واقدم على اصطفائه اخا وعلى اتخاذه خدنا لزمته حينئذ حقوقه، ووجبت عليه حرماته وقال عمر بن مسعده العبودية عبودية الاخاء لا عبودية الرق وقال بعض الحكماء من جاد لك بمودته فقد جعلك عديل نفسه فاول حقوقه اعتقاد مودته ثم ايناسه بالانبساط اليه فى غير محرم ثم نصحه فى السر والعلانية ثم تخفيف الاثقال عنه، ثم معاونته فيما ينوبه من حادثة او ينساله من نكبة فان مراقبته فى الظاهر نفاق وتركه فى الشدة لؤم وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال خير اصحابك المعين لك على دهرك وشرهم من سعى لك بسوق (كذا فى الاصل) يوم وقيل يا رسول الله اى الاصحاب خير قال الذى اذا ذكرت اعانك وواساك وخير منه من اذا نسيت ذكرك وقال على بن ابى طالب كرم الله وجهه خير اخوانك من واساك وخير منه من كفاك وكان ابو هريرة رضى الله عنه يقول اللهم انى اعوذ بك ممن لا يلتمس خالص مودتى الا بموافقة شهوتى وممن ساعدنى على سرور ساعتى ولا يفكر فى حوادث غدى وقال بعض البلغاء عقود الغادر محلولة وعهوده مدخولة وقال بعض البلغاء ما ودك من اهمل ودك ولا احبك من ابغض حبك وقال بعض الشعراء

* وكل اخ عند الهوينا ملاطف * ولكنما الاخوان عند الشدائد *

وقال صالح بن عبد القدوس شر الاخوان من كانت مودته مع الزمان اذا اقبل فاذا ادبر الزمان ادبر عنك فاخذ هذا المعنى الشاعر فقال

* شر الاخلاء من كانت مودته * مع الزمان اذا ما خاف او رغبا *
* اذا وترت امرءا فاحذر عداوته * من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا *
* ان العدو وان ابدى مسالمة * اذا رأى منك يوما فرصة وثبا *

وينبغى ان يتوقى الافراط فى محبته فان الافراط داع الى التقصير ولان تكون الحال بينهما نامية اولى من ان تكون متناهية وقد روى ابن سيرين عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال احبب حبيبك هونا ما عسى ان يكون بغيضك يوما ما وأبغض بغيضك هونا ما عسى ان يكون حبيبك يوما ما وقال عمر بن

الخطاب

الخطاب رضى الله عنه لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا وقال ابو الاسود الديلى

* وكن معدنا للخير واصفح عن الاذى * فانك راء ما عملت وسامع *
* وأحبب اذا احببت حبا مقاربا * فانك لا تدرى متى انت نازع *
* وأبغض اذا ابغضت غير مباين * فانك لا تدرى متى انت راجع *

﴿ وقال عدىّ بن زيد ﴾

* لا تأمنن من مبغض قرب داره * ولا من محب ان يمل فيبعدا *

وانما يلزم من حق الاخاء بذل المجهود فى النصح والتناهى فى رعاية ما بينهما من الحق فليس فى ذلك افراط وان تناهى ولا مجاوزة حد وان كثر واوفى فتستوى حالتاهما فى الغيب والمشهد ولان يكون مغيبهما افضل من مشهدهما اولى فان فضل المشهد على المغيب لؤم وفضل المغيب على المشهد كرم واستواؤهما حفاظ وقال بعض الشعراء

* علىّ لاخوانى رقيب من الصفا * تبيد الليالى وهو ليس يبيد *
* يذكرنيهم فى مغيبى ومشهدى * فسيان منهم غائب وشهيد *
* وانى لاستحيى اخى ان ابره * قريبا وان اجفوه وهو بعيد *

وهكذا يقصد التوسط فى زيارته وغشيانه غير متمل ولا مكثر فان تقليل الزيارة داعية الهجران وكثرتها سبب الملال وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لابى هريرة رضى الله عنه يا ابا هريرة زر غبا تزدد حبا وقال لبيد

* توقف عن زيارة كل يوم * اذا اكثرت ملّك من تزور *

﴿ وقال آخر ﴾

* اقلل زيارتك الصديق ولا تطل * هجرانه فيلج فى هجرانه *
* ان الصديق يلج فى غشيانه * لصديقه فيمل من غشيانه *
* حتى تراه بعد طول سروره * بمكانه متثاقلا بمكانه *
* واذا توانى عن صيانة نفسه * رجل تنقص واستخف بشانه *

وبحسب ذلك فليكن فى عتابه فان كثرة العتاب سبب للقطيعة واطراح جميعه

دليل على قلة الاكتراث بامر الصديق وقد قيل علة المعاداة قلة المبالاة بل تتوسط حالتا تركه وعتابه فيسامح بالمتاركة ويستصلح بالمعاتبة فان المسامحة والاستصلاح اذا اجتمعا لم يلبث معهما نفور ولم يبق معهما وجد وقد قال بعض الحكماء لا تكثرن معاتبة اخوانك فيهون عليهم سخطك وقال منصور النمري

* اقلل عتاب من استربت بوده * ليست تنال مودة بعتاب *

﴿ وقال بشار بن برد ﴾

* اذا كنت فى كل الامور معاتبا * صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه *
* وان انت لم تشرب مرارا على القذى * ظمئت واى الناس تصفو مشاربه *
* فعش واحدا او صل اخاك فانه * مقارف ذنب مرة ومجانبه *

ثم ان من حق الاخوان ان تغفر هفوتهم وتستر زلتهم لان من رام بريئا من الهفوات سليما من الزلات رام امرا معوزا واقترح وصفا معجزا وقد قالت الحكماء اى عالم لا يهفو واى صارم لا ينبو واى جواد لا يكبو وقالوا من حاول صديقا يأمن زلته ويدوم اغتباطه به كان كضال الطريق الذى لا يزداد لنفسه اتعابا الا ازداد من غايته بعدا وقيل لخالد بن صفوان اى اخوانك احب اليك قال من غفر زللى وقطع عللى وبلغنى املى وقال بعض الشعراء

* ما كدت الحص عن اخى ثقة * الا ندمت عواقب الفحص *

﴿ وانشدت عن الربيع للشافعى رضى الله عنه ﴾

* احب من الاخوان كل مواتى * وكل غضيض الطرف عن عثراتى *
* يوافقنى فى كل امر اريده * ويحفظنى حيا وبعد وفاتى *
* فمن لى بهذا ليت انى اصبته * فقاسمته ما لى من الحسنات *
* تصفحت اخوانى وكان اقلهم * على كثرة الاخوان اهل ثقاتى *

﴿ وانشد ثعلب ﴾

* اذا انت لم تستقبل الامر لم تجد * بكفيك فى ادباره متعلقا *
* اذا انت لم تترك اخاك وزلة * اذا زلها اوشكتما ان تفرقا *

وحكى الاصمعى عن بعض الاعراب انه قال تناس مساوى الاخوان يدم لك ودهم

ووصى بعض الادباء اخا له فقال كن للود حافظا وان لم تجد محافظا وللخل واصلا وان لم تجد مواصلا وقال رجل من اياد ليزيد بن المهلب

* اذا لم تجاوز عن اخ عند زلة * فلست غدا عن عثرتى متجاوزا *
* وكيف يرجيك البعيد لنفعه * اذا كان عن مولاك خيرك عاجزا *
* ظلمت اخا كلفته فوق وسعه * وهل كانت الاخلاق الا غرائزا *

وقال ابو مسعود كاتب الرضى كنا فى مجلس الرضى فشكى رجل من اخيه فانشد الرضى

* اعذر اخاك على ذنوبه * واستر وغط على عيوبه *
* واصبر على بهت السفيه وللزمان على خطوبه *
* ودع الجواب تفضلا * وكل الظلوم الى حسيبه *
* واعلم بان الحلم عند الغيظ احسن من ركوبه *

وحكى عن بنت عبد الله بن مطيع انها قالت لزوجها طلحة بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى وكان اجود قريش فى زمانه ما رأيت قوما ألأم من اخوانك قال مه ولم ذلك قالت اراهم اذا ايسرت لزموك واذا اعسرت تركوك قال هذا والله من كرمهم يأتوننا فى حال القوة بنا عليهم ويتركوننا فى حال الضعف بنا عنهم فانظر كيف تأول بكرمه هذا التأويل حتى جعل قبيح فعلهم حسنا وظاهر غدرهم وفاء وهذا محض الكرم ولباب الفضل وبمثل هذا يلزم ذوى الفضل ان يتأولوا الهفوات من اخوانهم وقد قال بعض الشعراء

* اذا ما بدت من صاحب لك زلة * فكن انت محتالا لزلته عذرا *
* احب الفتى ينفى الفواحش سمعه * كأن به عن كل فاحشة وقرا *
* سليم دواعى الصبر لا باسط اذى * ولا مانع خيرا ولا قائل هجرا *

والداعى الى هذا التأويل شيئان التغافل الحادث عن الفطنة والتألف الصادر عن الوفاء وقال بعض الحكماء وجدت اكثر امور الدنيا لا تجوز الا بالتغافل وقال اكثم بن صيفى من شدد نفر ومن تراخى تألف والشرف فى التغافل وقال شبيب ابن شيبة الاديب العاقل هو الفطن المتغافل وقال الطائى

* ليس الغبى بسيد فى قومه * لكن سيد قومه المتغابى *

﴿ وقال ابو العتاهية ﴾

* ان فى صحة الاخاء من النا * س وفى خلة الوفاء لقله *
* فالبس الناس ما استطعت على النقص والا لم تستقم لك خله *
* عش وحيدا ان كنت لا تقبل الغذ * ر وان كنت لا تجاوز زله *
* من اب واحد وام خلقنا * غير انا فى المال اولاد عله *

ومما يتبع هذا الفصل تألف الاعداء بما يثنيهم عن البغضاء ويعطفهم على المحبة وذلك قد يكون بصنوف من البر ويختلف بسبب اختلاف الاحوال فان ذلك من سمات الفضل وشروط السؤدد فانه ما احد يعدم عدوا ولا يفقد حاسدا وبحسب قدر النعمة تكثر الاعداء والحسدة كما قال البحترى

* ولن تستبين الدهر موقع نعمة * اذا انت لم تدلل عليها بحاسد *

فان اغفل تألف الاعداء مع وفور النعمة وظهور الحسدة توالى عليه من مكر حليمهم وبادرة سفيههم ما تصير به النعمة غراما والزعامة ملاما وروى ابن المسيب عن ابى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس العقل بعد الايمان بالله تعالى التودد الى الناس وقال سليمان بن داود عليهما السلام لابنه لا تستكثر ان يكون لك الف صديق فالالف قليل ولا تستقل ان يكون لك عدو واحد فالواحد كثير فنظم ابن الرومى هذا المعنى فقال

* فكثر من الاخوان ما اسطعت انهم * بطون اذا استنجدتهم وظهور *
* وليس كثيرا الف خل وصاحب * وان عدوا واحدا لكثير *

وقيل لعبد الملك بن مروان ما افدت فى ملكك هذا قال مودة الرجال وقال بعض الحكماء من علامة الاقبال اصطناع الرجال وقال بعض البلغاء من استصلح عدوه زاد فى عدده ومن استفسد صديقه نقص من عدده وقال بعض الادباء العجب ممن يطرح عاقلا كافيا لما يضمره من عداوته ويصطنع عاجزا جاهلا لما يظهره من محبته وهو قادر على استصلاح من يعاديه بحسن صنائعه واياديه وانشد عبد الله بن الزبير ثلاثة ابيات جامعة لكل ما قالته العرب وهى للافوه واسمه صلة بن عمرو حيث يقول

* بلوت الناس قرنا بعد قرن * فلم ار غير ختال وقالى *

وذقت

* وذقت مرارة الاشياء جمعا * فما طعم امر من السؤال *
* ولم ار فى الخطوب اشد هولا * واصعب من معاداة الرجال *

﴾ وقال القاضى التنوخى ﴿

* الق العدو بوجه لا قطوب به * يكاد يقطر من ماء البشاشات *
* فاحزم الناس من يلقى اعاديه * فى جسم حقد وثوب من مودات *
* الرفق يمن وخير القول اصدقه * وكثرة المزح مفتاح العداوات *

﴾ وانشدت عن الربيع للشافعى رضى الله عنه ﴿

* لما عفوت ولم احقد على احد * ارحت نفسى من هم العداوات *
* انى احيى عدوى عند رؤيته * لادفع الشر عنى بالتحيات *
* واظهر البشر للانسان ابغضه * كأنما قد حشى قلبى محبات *
* الناس داء دواء الناس قربهم * وفى اعتزالهم قطع المودات *

وليس وان كان بتألف الاعداء مأمورا والى مقاربتهم مندوبا ينبغى ان يكون لهم راكنا وبهم واثقا بل يكون منهم على حذر ومن مكرهم على تحرز فان العداوة اذا استحكمت فى الطباع صارت طبعا لا يستحيل وجبلة لا تزول وانما يستكفى بالتألف اظهارها ويستدفع به اضرارها كالنار يستدفع بالماء احراقها ويستفاد به انضاجها وان كانت محرقة بطبع لا يزول وجوهر لا يتغير وقال الشاعر

* واذا عجزت عن العدو فداره * وامزح له ان المزاح وفاق *
* فالنار بالماء الذى هو ضدها * تعطى النضاج وطبعها الاحراق *

﴾ فصل ﴿ واما البر وهو الخامس من اسباب الالفة فلأنه يوصل الى القلوب الطافا ويثنيها محبة وانعطافا ولذلك ندب الله تعالى الى التعاون به وقرنه بالتقوى له فقال وتعاونوا على البر والتقوى لان فى التقوى رضى الله تعالى وفى البر رضى الناس ومن جمع بين رضى الله تعالى ورضى الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته وروى الاعمش عن خيثمة عن ابن مسعود قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول جبلت القلوب على حب من احسن اليها وبغض من اساء اليها وحكى ان الله تعالى اوحى الى داود على نبينا وعليه السلام ذكر

عبادى احسانى اليهم ليحبونى فانهم لا يحبون الا من احسن اليهم وانشدنى ابو الحسن الهاشمى

* الناس كلهم عيا * ل الله تحت ظلاله *
* فاحبهم طرا اليه ابرهم لعياله *

والبر نوعان صلة ومعروف فاما الصلة فهى التبرع ببذل المال فى الجهات المحمودة لغير عوض مطلوب وهذا يبعث عليه سماحة النفس وسخاؤها ويمنع منه شحها واباؤها قال الله تعالى ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون وروى محمد بن ابراهيم التيمى عن عروة بن الزبير عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال السخى قريب من الله عز وجل قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار والبخيل بعيد من الله عز وجل بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار وقال صلى الله عليه وسلم لعدى بن حاتم رفع الله عن ابيك العذاب الشديد لسخائه وبلغه صلى الله عليه وسلم عن الزبير امساك فجذب عمامته اليه وقال يا زبير انا رسول الله اليك والى غيرك يقول انفق انفق عليك ولا تؤل فأول عليك وروى ابو الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من يوم غربت فيه شمسه الا وملكان يناديان اللهم أعط منفقا خلفا وممسكا تلفا وانزل فى ذلك القرآن فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى قال ابن عباس رضى الله عنهما يعنى من اعطى فيما امر واتقى فيما حظر وصدق بالحسنى يعنى بالخلف من عطائه فعند هذا قال ابن عباس رضى الله عنهما لسادات الناس فى الدنيا الاسخياء وفى الآخرة الاتقياء وقيل فى منثور الحكم الجود عن موجود وقيل فى المثل سؤدد بلا جود كملك بلا جنود وقال بعض الحكماء الجود حارس الاعراض وقال بعض الادباء من جاد ساد ومن اضعف ازداد وقال بعض الفصحاء جود الرجل يحببه الى اضداده وبخله يبغضه الى اولاده وقال بعض الفصحاء خير الاموال ما استرق حرا وخير الاعمال ما استحق شكرا وقال صالح بن عبد القدوس

* ويظهر عيب المرء فى الناس بخله * ويستره عنهم جميعا سخاؤه *
* تغط باثواب السخاء فاننى * ارى كل عيب فالسخاء غطاؤه *

وحد

وحد السخاء بذل ما يحتاج اليه عند الحاجة وان يوصل الى مستحقه بقدر الطاقة وتدبير ذلك مستصعب ولعل بعض من يحب ان ينسب الى الكرم ينكر حد السخاء ويجعل تقدير العطية فيه نوعا من البخل وان الجود بذل الموجود وهذا تكلف يفضى الى الجهل بحدود الفضائل ولو كان الجود بذل الموجود لما كان للسرف موضعا ولا للتبذير موقعا وقد ورد الكتاب بذمهما وجاءت السنة بالنهى عنهما واذا كان السخاء محدودا فمن وقف على حده سمى كريما وكان للحمد مستحقا ومن قصر عنه كان بخيلا وكان للذم مستوجبا وقد قال الله تعالى ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اقسم الله تعالى بعزته لا يجاوره بخيل وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يقول الشحيح اعذر من الظالم فقال لعن الله الشحيح ولعن الظالم وقال بعض الحكماء البخل جلباب المسكنة وقال بعض الادباء البخيل ليس له خليل وقال بعض البلغاء البخيل حارس نعمته وخازن ورثته وقال بعض الشعراء

* اذا كنت جماعا لمالك ممسكا * فانت عليه خازن وامين *
* تؤديه مذموما الى غير حامد * فيأكله عفوا وانت دفين *

وتظاهر بعض ذوى النباهة بحب الثناء مع امساك فيه فقال بعض الشعراء

* اراك تؤمل حسن الثنا * ء ولم يرزق الله ذاك البخيلا *
* وكيف يسود اخو بطنة * يمن كثيرا ويعطى قليلا *

وقد بينا حب الثناء وحب المال لان الثناء يبعث على البذل وحب المال يمنع منه فان ظهرا كان حب الثناء كاذبا وقد قال بعض الشعراء

* جمعت امرين ضاع الحزم بينهما * تيه الملوك واخلاق المماليك *
* اردت شكرا بلا بر ولا صلة * لقد سلكت طريقا غير مسلوك *
* ظننت عرضك لم يقرع بقارعة * وما اراك على حال بمتروك *
* لئن سبقت الى مال حظيت به * فما سبقت الى شئ سوى النوك *

وقد يحدث عن البخل من الاخلاق المذمومة وان كان ذريعة الى كل مذمة اربعة

اخلاق ناهيك بها ذما وهى الحرص والشره وسوء الظن ومنع الحقوق ٭ فاما الحرص فهو شدة الكدح والاسراف فى الطلب واما الشره فهو استقلال الكفاية والاستكثار لغير حاجة وهذا فرق ما بين الحرص والشره وقد روى العلاء بن جرير عن ابيه عن سالم بن مسروق قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لا يجزيه من العيش ما يكفيه لم يجد ما عاش ما يغنيه وقال بعض الحكماء الشره من غرائز اللؤم واما سوء الظن فهو عدم الثقة بمن هو لها اهل فان كان بالخالق كان شكا يؤول الى ضلال وان كان بالمخلوق كان استخانة يصير بها مختانا وخوانا لان ظن الانسان بغيره بحسب ما يراه من نفسه فان وجد فيها خيرا ظنه فى غيره وان رأى فيها سوءا اعتقده فى الناس وقد قيل فى المثل كل اناء ينضح بما فيه فان قيل قد تقدم من قول الحكماء ان الحزم سوء الظن قيل تأويله قلة الاسترسال اليهم لا اعتقاد السوء فيهم واما منع الحقوق فان نفس البخيل لا تسمح بفراق محبوبها ولا تنقاد الى ترك مطلوبها فلا تذعن لحق ولا تجيب الى انصاف واذا آل البخيل الى ما وصفنا من هذه الاخلاق المذمومة والشيم اللئيمة لم يبق معه خير مرجو ولا صلاح مأمول وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال للانصار من سيدكم قالوا الجر بن قيس على بخل فيه فقال صلى الله عليه وسلم واى داء ادوأ من البخل قالوا وكيف ذلك يا رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم ان قوما نزلوا بساحل البحر فكرهوا لبخلهم نزول الاضياف بهم فقالوا ليبعد الرجال منا عن النساء حتى يعتذر الرجال الى الاضياف ببعد النساء وتعتذر النساء ببعد الرجال ففعلوا وطال ذلك بهم فاشتغل الرجال بالرجال والنساء بالنساء واما السرف والتبذير فان من زاد على حد السخاء فهو مسرف ومبذر وهو بالذم جدير وقد قال الله تعالى ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ما عال من اقتصد وقد قال المأمون رحمه الله لا خير فى السرف ولا سرف فى الخير وقال بعض الحكماء صديق الرجل قصده وسرفه عدوه وقال بعض البلغاء لا كثير مع اسراف ولا قليل مع احتراف واعلم ان السرف والتبذير قد يفترق معناهما فالسرف هو الجهل بمقادير الحقوق والتبذير هو الجهل بمواقع الحقوق وكلاهما

مذموم

مذموم وذم التبذير اعظم لان المسرف يخطئ فى الزيادة والمبذر يخطئ فى الجهل ومن جهل مواقع الحقوق ومقاديرها بماله واخطأها فهو كمن جهلها بفعاله فتعداها وكما انه بتبذيره قد يضع الشئ فى غير موضعه فهكذا قد يعدل به عن موضعه لان المال اقل من ان يوضع فى كل موضع من حق وغير حق وقد قال معاوية رضى الله عنه كل سرف فبازائه حق مضيع وقال بعض الحكماء الخطأ فى اعطاء ما لا ينبغى ومنع ما ينبغى واحد وقال سفيان الثورى رضى الله عنه الحلال لا يحتمل السرف وليس يتم السخاء ببذل ما فى يده حتى تسخو نفسه عما بيد غيره فلا يميل الى طلب ولا يكف عن بذل وقد حكى ان الله تعالى اوحى الى ابراهيم الخليل على نبينا وعليه السلام أتدرى لما اتخذتك خليلا قال لا يا رب قال لانى رأيتك تحب ان تعطى ولا تحب ان تأخذ وروى سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه قال اتى رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله مرنى بعمل يحبنى الله عليه ويحبنى الناس فقال ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما فى ايدى الناس يحبك الناس وقال ايوب السختيانى لا ينبل الرجل حتى يكون فيه خصلتان العفة عن اموال الناس والتجاوز عنهم وقيل لسفيان ما الزهد فى الدنيا قال الزهد فى الناس وكتب كسرى الى ابنه هرمز يا بنى استقل الكثير مما تعطى واستكثر القليل مما تأخذ فان قرة عيون الكرام فى الاعطاء وسرور اللئام فى الاخذ ولا تعد الشحيح امينا ولا الكذاب حرا فانه لا عفة مع الشح ولا مروءة مع الكذب وقال بعض الحكماء السخاء سخاءان اشرفهما سخاؤك عما بيد غيرك وقال بعض البلغاء السخاء ان تكون بمالك متبرعا وعن مال غيرك متورعا وقال بعض الصلحاء الجود غاية الزهد والزهد غاية الجود وقال بعض الشعراء

* اذا لم تكن نفس الشريف شريفة * وان كان ذا قدر فليس له شرف *

والبذل على وجهين احدهما ما ابتدأ به الانسان من غير سؤال والثانى ما كان عن طلب وسؤال فاما المبتدئ به فهو اطبعهما سخاء واشرفهما عطاء وسئل على كرم الله وجهه عن السخاء فقال ما كان منه ابتداء فاما ما كان عن مسألة فحياء وقال بعض الحكماء اجل النوال ما وصل قبل السؤال وقال بعض الشعراء

* وفتى خلا من ماله * ومن المروءة غير خالى *

* اعطاك قبل سؤاله * وكفاك مكروه السؤال *

وهذا النوع من البذل قد يكون لتسعة اسباب ﴿ فالسبب الاول ﴾ ان يرى خلة يقدر على سدها وفاقة يتمكن من ازالتها فلا يدعه الكرم والتدين الا ان يكون زعيم صلاحها وكفيل نجاحها رغبة فى الاجر ان تدين وفى الشكر ان تكرم وقال ابو العتاهية

* ما الناس الا آلة معتمله * للخير والشر جميعا فعله *

﴿ والسبب الثانى ﴾ ان يرى فى ماله فضلا عن حاجته وفى يده زيادة عن كفايته فيرى انتهاز الفرصة بها فيضعها حيث تكون له ذخرا معدا وغنما مستجدا وقد قال الحسن البصرى رحمه الله ما انصفك من كلفك اجلاله ومنعك ماله وقيل لهند بنت الحسن من اعظم الناس فى عينك قالت من كان لى اليه حاجة وقال الشاعر

* وما ضاع مال ورث الحمد اهله * ولكن اموال البخيل تضيع *

﴿ والسبب الثالث ﴾ ان يكون لتعريض يتنبه عليه لفطنته واشارة يستدل عليها بكرمه فلا يدعه الكرم ان يغفل ولا الحياء ان يكف وقد حكى ان رجلا ساير بعض الولاة فقال ما اهزل برذونك فقال يده مع ايدينا فوصله اكتفاء بهذا التعريض الذى بلغ ما لا يبلغه صريح السؤال ولذلك قال اكثم بن صيفى السخاء حسن الفطنة واللؤم سوء التغافل وحكى ان عبيد الله بن سليمان لما تقلد وزارة المعتضد كتب اليه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر

* ابى دهرنا اسعافنا فى نفوسنا * واسعفنا فيمن نحب ونكرم *
* فقلت له نعماك فيهم اتمها * ودع امرنا ان المهم مقدم *

فقال عبيد الله ما احسن ما شكا امره بين اضعاف مدحه وقضى حاجته وقال بعض الشعراء

* ومن لا يرى من نفسه مذكرا لها * رأى طلب المستنجدين ثقيلا *

﴿ والسبب الرابع ﴾ ان يكون ذلك رعاية ليد او جزاء على صنيعة فيرى تأدية الحق عليه طوعا اما انفة واما شكرا ليكون من اسر الامتنان طليقا ومن

رق الاحسان وعبوديته عتيقا قال بعض الحكماء الاحسان رق والمكافأة عتق وقال ابو العتاهية رحمه الله تعالى

* وليست ايادى الناس عندى غنيمة * ورب يد عندى اشد من الاسر *

* والسبب الخامس * ان يؤثر الاذعان بتقديمه والاقرار بتعظيمه توطيدا لرئاسة هو لها محب وعلى طلبها مكب وقد قال الشاعر

* حب الرئاسة داء لا دواء له * وقل ما تجد الراضين بالقسم *

فتستصعب عليه اجابة النفوس له طوعا الا بالاستعطاف واذعانها له الا بالرغبة والاسعاف وقد قال بعض الادباء بالاحسان يرتبط الانسان وقال بعض البلغاء من بذل ماله ادرك آماله وقال بعض الشعراء

* أترجو ان تسود بلا عناء * وكيف يسود ذو الدعة البخيل *

* والسبب السادس * ان يدفع به سطوة اعدائه ويستكف به نفار خصمائه ليصيروا له بعد الخصومة اعوانا وبعد العداوة اخوانا اما لصيانة عرض واما لحراسة مجد وقد قال ابو تمام الطائى

* ولم يجتمع شرق وغرب لقاصد * ولا المجد فى كف امرئ والدراهم *

* ولم ار كالمعروف تدعى حقوقه * مغارم فى الاقوام وهى مغانم *

وقال بعض الادباء من عظمت مرافقه اعظمه مرافقه * والسبب السابع * ان يرب به سالف صنيعة اولاها ويراعى به قديم نعمة اسداها كيلا ينسى ما اولاه او يضاع ما اسداه فان مقطوع البر ضائع ومهمل الاحسان ضال وقد قال الشاعر

* وسمت امرءا بالبر ثم اطرحته * ومن افضل الاشياء رب الصنائع *

* وقال محمد بن داود الاصبهانى *

* بدأت بنعمى اوجبت لى حرمة * عليك فعد بالفضل فالعود احمد *

* والسبب الثامن * المحبة يؤثر بها المحبوب على ماله فلا يضن عليه بمرغوب ولا يتنفس عليه بمطلوب للذة التى هى عنده احظى والى نفسه اشهى لان النفس الى محبوبها اشوق والى ما يليه اسبق وقد قال الشاعر

* فما زرتكم عمدا ولكن ذا الهوى * الى حيث يهوى القلب تهوى به الرجل *

وهذا وان دخل فى اقسام العطاء فخارج عن حد السخاء وهكذا الخامس والسادس من هذه الاسباب وانما ذكرناها لدخولها تحت اقسام العطاء ﴿ والسبب التاسع ﴾ وليس بسبب ان يفعل ذلك لغير ما سبب وانما هى سجية قد فطر عليها وشيمة قد طبع بها فلا يميز بين مستحق ومحروم ولا يفرق بين محمود ومذموم كما قال بشار

* ليس يعطيك للرجاء ولا للخوف لكن يلذ طعم العطاء *

وقد اختلف الناس فى مثل هذا هل يكون منسوبا الى السخاء فيحمد او خارجا عنه فيذم وقال قوم هذا هو السخى طبعا والجواد كرما وهو احق من كان به ممدوحا واليه منسوبا وقال ابو تمام

* من غير ما سبب يدنى كفى سببا * للحر ان يجتدى حرا بلا سبب *

وقال الحسن بن سهل اذا لم اعط الا مستحقا فكأنى اعطيت غريما وقال الشرف فى السرف فقيل له لا خير فى السرف فقال ولا سرف فى الخير وقال الفضل بن سهل العجب لمن يرجو من فوقه، كيف يحرم من دونه وقال بشار

* وما الناس الا صاحباك فنهم * سخى ومغلول اليدين من البخل *

* فسامح يدا ما امكنتك فانها * تقل وتثرى والعواذل فى شغل *

وقال آخرون هذا خارج من السخاء المحمود الى السرف والتبذير المذموم لان العطاء اذا كان لغير سبب كان المنع لغير سبب لان المال يقل عن الحقوق ويقصر عن الواجبات فاذا اعطى غير المستحق فقد يمنع مستحقا وما يناله من الذم بمنع المستحق اكثر مما يناله من الحمد لاعطاء غير المستحق وحسبك ذما بمن كانت افعاله تصدر عن غير تمييز وتوجد لغير علة وقد قال الله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا فنهى عن بسطها سرفا كما نهى عن قبضها بخلا فدل على استواء الامرين ذما وعلى اتفاقهما لوما وقال الشاعر

* وكان المال يأتينا فكنا * نبذره وليس لنا عقول *

* فلما ان تولى المال عنا * عقلنا حين ليس لنا فضول *

قالوا ولان العطاء والمنع اذا كانا لغير علة افضيا الى ذم الممنوع وقلة شكر

المعطى

المعطى اما الممنوع فلأنه قد فضل عليه من سواه واما المعطى فانه وجد ذلك اتفاقا وربما امل بالاتفاق اضعافا فصار ذلك مفضيا الى اجتلاب الذم و احباط الشكر وليس فيما افضى الى واحد منهما خير يرجى وهو جدير ان يكون شرا يتقى ولمثل هذا كان منع الجميع ارضاء للجميع وعطاء يكون المنع ارضى منه خسران مبين فاما اذا كان البذل والعطاء عن سؤال فشروطه معتبرة من وجهين احدهما فى السائل والثانى فى المسئول فاما ما كان معتبرا فى السائل فثلاثة شروط ﴿ فالشرط الاول ﴾ ان يكون السؤال لسبب والطلب لموجب فان كان لضرورة ارتفع عنه الحرج وسقط عنه اللوم وقد قال بعض الحكماء الضرورة توقح الصورة وقال بعض الشعراء

* ألا قبح الله الضرورة انها * تكلف اعلى الخلق ادنى الخلائق *
* ولله در الاتساع فانه * يبين فضل السبق من غير سابق *

﴿ وقال الكميت ﴾

* اذا لم تكن الا الاسنة مركبا * فلا رأى للمضطر الا ركوبها *

فان ارتفعت الضرورة ودعت الحاجة فيما هو اولى الامرين ان يكون وان جاز ان لا يكون فالنفس المسامحة تغلب الحاجة وتسمح فى الطلب وتراعى ما استقام به الامر وان ناله ذل ولحقه وهن فيأول صاحبها قول البحترى

* وربما كان مكروه الامور الى * محبوبها سببا ما مثله سبب *

والنفس الشريفة تطلب الصيانة وتراعى النزاهة وتحتمل من الضر ما احتملت ومن الشدة ما طاقت فيبقى تحملها ويدوم تصونها فتكون كما قال الشاعر

* وقد يكتسى المرء خذ الثيا * ب ومن دونها حالة مضنيه *
* كما يكتسى خده حمرة * وعلته ورم فى الريه *

فلا يرى ان يتدنس بمطالب الشؤم ومطامع اللؤم فان البهائم الوحشية تأبى ذلك وتأنف منه قال الشاعر

* وليس الليث من جوع بغاد * على جيف تطيف بها الكلاب *

فكيف بالانسان الفاضل الذى هو اكرم الحيوان جنسا واشرفه نفسا هل يحسن

به ان يرى لوحش البهائم عليه فضلا وقد قال الشاعر

* على كل حال يأكل المرء زاده * على البؤس والضرآء والحدثان *

والفضل فى مثل ما قيل لبعض الزهاد لو سألت جارك اعطاك فقال والله ما اسأل الدنيا ممن يملكها فكيف ممن لا يملكها ووصف بعض الشعرآء قوما فقال

* اذا افتقروا اغضوا على الضر خشية

وان ايسروا عادوا سراعا الى الفقر *

فاما يسأل من غير ضرورة مست ولا حاجة دعت فذلك صريح اللؤم ومحض الدناءة وقلما تجد مثله محظوظا او مولا محظوظا لان الحرمان قاده الى اضيق الارزاق واللؤم ساقه الى اخبث المطاعم فلم يبق لوجهه ماء الا اراقه ولا ذل الا ذاقه كما قال عبد الصمد بن المعدل لابى تمام الطائى

* انت بين اثنتين تبرز للنا * س وكلتاهما بوجه مذال *

* لست تنفك طالبا لوصال * من حبيب او طالبا لنوال *

* اى ماء لحر وجهك يبقى * بين ذل الهوى وذل السؤال *

ولو استقبح العار وانف من الذل لوجد غير السؤال مكتسبا يمونه ولقدر على ما يصونه وقد قال الشاعر

* لا تطلبن معيشة بتذلل * فليأتينك رزقك المقدور *

* واعلم بانك آخذ كل الذى * لك فى الكتاب مقدر مسطور *

﴿ والشرط الثانى ﴾ من شروط السؤال ان يضيق الزمان عن ارجائه ويقصر الوقت عن ابطائه فلا يجد لنفسه فى التأخير فسحة ولا فى التمادى مهلة فيصير من المعذورين وداخلا فى عداد المضطرين فاما اذا كان الوقت متسعا والزمان ممتدا فتعجيل السؤال لؤم وقنوط وقال الشاعر

* ابى لى اغضاء الجفون على القذى * يقينى ان لا عسر الا مفرج *

* الا ربما ضاق الفضاء باهله * وامكن من بين الاسنة مخرج *

﴿ والشرط الثالث ﴾ اختيار المسئول ان يكون مرجو الاجابة مأمول النجح اما لحرمة السائل او كرم المسئول فان سأل لئيما لا يرعى حرمة ولا يولى مكرمة فهو فى اختياره ملوم وفى سؤاله محروم وقد قال بعض البلغاء

المخذول

المخذول من كانت له الى اللئام حاجة وقد قال بعض البلغاء اذل من اللئيم سائله واقل من البخيل نائله وقال بعض الشعراء

* من كان يؤمل ان يرى * من ساقط نيلا سنيا *
* فلقد رجى ان يجتنى * من عوسج رطبا جنيا *

واما الشروط المعتبرة فى المسئول فثلاثة ❋ الشرط الاول ❋ ان يكتفى بالتعريض ولا يلجئ الى السؤال الصريح ليصون السائل عن ذل الطلب فان الحال ناطقة والتعريض كاف وقد قال الشاعر

* اقول وستر الدجى مسبل * كما قال حين شكى الضفدع *
* كلامى ان قلته ضائع * وفى الصمت حتفى فما اصنع *

وربما فهم المسئول الاشارة فالجأ الى التصريح بالعبارة تهجينا للسائل فيخجل ويستحيى فيكف كما قال ابو تمام

* من كان مفقود الحياء فوجهه * من غير بواب له بواب *

❋ والشرط الثانى ❋ ان يلقى بالبشر والترحيب ويقابل بالطلاقة والتقريب ليكون مشكورا ان اعطى ومعذورا ان منع وقد قال بعض الحكماء الق صاحب الحاجة بالبشر فان عدمت شكره لم تعدم عذره وقال ابن لنكك ان ابا بكر ابن دريد قصد بعض الوزراء فى حاجة فلم يقضها له وظهر له منه ضجر فقال

* لا تدخلنك ضجرة من سائل * فلخير دهرك ان ترى مسئولا *
* لا تجبهن بالرد وجه مؤمل * فبقاء عزك ان ترى مأمولا *
* تلقى الكريم فتستدل ببشره * وترى العبوس على اللئيم دليلا *
* واعلم بانك عن قليل صائر * خبرا فكن خبرا يروق جميلا *

❋ والشرط الثالث ❋ تصديق الامل وتحقيق الظن به ثم اعتبار حاله وحال سائله فانها لا تخلو من اربع احوال فالحال الاولى ان يكون السائل مستوجبا والمسئول متمكنا فالاجابة ههنا تستحق كرما وتستلزم مروءة وليس للرد سبيل الا لمن استولى عليه البخل وهان عليه الذم فيكون كما قال عبد الرحمن بن حسان

* انى رأيت من المكارم حسبكم * ان تلبسوا خز الثياب وتشبعوا *
* فاذا تذكرت المكارم مرة * فى مجلس انتم به فتقنعوا *

فنعوذ بالله ممن حرم ثروة ماله ومنع حسن حاله ان يكون مستودعا فى صنيع مشكور وبر مذخور وقد قيل لبخيل لما حبست مالك قال للنوائب فقيل له قد نزلت بك وقال بعض الشعراء

* مالك من مالك الا الذى * قدمت فابذل طائعا مالكا *
* تقول اعمالى ولو فتشوا * رأيت اعمالك اعمى لكا *

وقد اسقط حق نفسه ورفع اسباب شكره فصار بان لا حق له مذموما كشكور ومأثوما كمأجور وقال ابو العتاهية

* خزن البخيل علىّ صالحه * اذ لم يثقل بره ظهرى *
* ما فاتنى خير امرئ وضعت * عنى يداه مؤنة الشكر *

فاذا لم يكن للرد فى مثل هذه الحال سبيل نظر فان كان التأخير مضرا عجل بذله وقطع مطله وكانت اجابته فعلا وقوله عملا وقد قالت الحكماء من مروءة المطلوب منه ان لا يلجئ الى الحاح عليه وقال محمد بن حازم

* ومنتظر سؤالك بالعطايا * واشرف من عطاياه السؤال *
* اذا لم يأتك المعروف طوعا * فدعه فالتنزه عنه مال *

وان كان فى الوقت مهلة وفى التأخير فسحة فقد اختلفت مذاهب الفضلاء فيه فذهب بعضهم الى ان الاولى تعجيل الوعد قولا ثم يعقبه الانجاز فعلا ليكون السائل مسرورا بتعجيل الوعد ثم بآجل الانجاز ويكون المسئول موصوفا بالكرم ملحوظا بالوفاء وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال العدة عطية وقال الفضل بن سهل لرجل سأله حاجة اعدك اليوم واحبوك غدا بالانجاز لتذوق حلاوة الامل واتزين بثبوت الوفاء ووعد يحيى بن خالد رجلا بحاجة سأله اياها فقيل له تعد وانت قادر فقال ان الحاجة اذا لم يتقدمها وعد ينتظر صاحبه نجحه لم يجد سرورها لان الوعد طعم والانجاز طعام وليس من فاجأه الطعام كمن يجد ريحه ويطعمه فدع الحاجة تختمر بالوعد ليكون لها طعم عند المصطنع اليه وقال بعض البلغاء اذا احسنت القول فاحسن الفعل ليجتمع لك ثمرة اللسان وثمرة الاحسان ولا تقل ما لا تفعل فانك لا تخلو فى ذلك من ذنب تكسبه او عجز

تلتزمه ومنهم من ذهب الى ان تعجيل البذل فعلا من غير وعد اولى وتقديمه من غير توقيت ولا انتظار احرى وانما يقدم الوعد احد رجلين اما معوز ينتظر وجده واما شحيح يروض نفسه توطئة وليس للوعد فى غير هاتين الحالتين وجه يصح ولا رأى يتضح مع ما يغيره الليل والنهار وتتقلب به الحال من يسار واعسار وقال بعض الشعراء

* يا ايها الملك المقدّ م امره شرقاً وغربا *
* امنن بختم صحيفتى * ما دام هذا الطين رطبا *
* واعلم بان جفافه * مما يعيد السهل صعبا *

قالوا ولان فى الرجوع عنه من الانكسار وفى توقع الوعد من مرارة الانتظار وفى العود اليه من بذلة الاقتضاء وذلة الاجتداء ما يكدر بره ويوهن شكره وقال الشاعر

* ان الحوائج ربما ازرى بها * عند الذى تقضى له تطويلها *
* فاذا ضمنت لصاحب لك حاجة * فاعلم بان تمامها تعجيلها *

﴿ والحال الثانية ﴾ ان يكون السائل غير مستوجب والمسئول غير متمكن ففى الرد فسحة وفى المنع عذر غير انه يلين عند الرد لينا يقيه الذم ويظهر عذرا يدفع عنه اللوم فليس كل مقل يعرف ولا معذور ينصف وقد قال ابو العتاهية يصف الناس

* يارب ان الناس لا ينصفوننى * فكيف وان انصفتهم ظلمونى *
* فان كان لى شئ تصدوا لاخذه * وان جئت ابغى شيأهم منعونى *
* وان نالهم بذلى فلا شكر عندهم * وان انا لم ابذل لهم شتمونى *
* وان طرقتنى نكبة فكهوا بها * وان صحبتنى نعمة حسدونى *
* سامنع قلبى ان يحن اليهم * واحجب عنهم ناظرى وجفونى *
* واقطع ايامى بيوم سهولة * اقضى بها عمرى ويوم حزون *
* ألا ان اصفى العيش ما طاب غبه * وما نلته فى لذة وسكون *

﴿ والحال الثالثة ﴾ ان يكون السائل مستوجبا والمسئول غير متمكن فيأتى بالحمل على النفس ما امكن من يسير يسد به خلة او يدفع به مذمة او يوضح من اعذار

المعوزين وتوجع المتألمين ما يجعله فى المنع معذورا وبالتوجع مشكورا وقد قال ابو النصر العتبى رحمه الله تعالى

* الله يعلم انى لست ذا بخل * ولست ملتمسا فى البخل لى عللا *
* لكن طاقة مثلى غير خافية * والنمل يعذر فى القدر الذى حملا *

وربما تحسر بحدوث العجز بعد تقدم القدرة على فوت الصنيعة وزوال العادة حتى صار اضنى جسدا وازيد كمدا كما قال الشاعر

* وكنت كباز السوء قص جناحه * يرى حسرات كلما طار طائر *
* يرى طائرات الجو تخفق حوله * فيذكر اذ ريش الجناحين وافر *

﴿ والحال الرابعة ﴾ ان يكون السائل غير مستوجب والمسئول متمكنا وعلى البذل قادرا فينظر فان خاف بالرد قدح عرض او قبح هجاء ممض كان البذل مندوبا صيانة لا جودا فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ما وقى به المرء عرضه فهو له صدقة وان امن من ذلك وسلم منه فمن الناس من غلب المسألة وامر بالبذل لئلا يقابل الرجاء بالخيبة والامل بالاياس ثم لما فيه من اعتياد الرد واستسهال المنع المفضى الى الشح وانشد الاصمعى عن الكسائى

* كأنك فى الكتاب وجدت لاء * محرمة عليك فلا تحل *
* فما تدرى اذا اعطيت مالا * أيكثر من سماحك ام يقل *
* اذا حضر الشتاء فانت شمس * وان حضر المصيف فانت ظل *

ومن الناس من اعتبر الاسباب وغلب حال السائل وندب الى المنع اذا كان العطاء فى غير حق ليقوى على الحقوق اذا عرضت ولا يعجز عنها اذا لزمت وتعينت وقد قال بعض الشعراء

* لا تجد بالعطاء فى غير حق * ليس فى منع غير ذى الحق بخل *
* انما الجود ان تجود على من * هو للجود والندى منك اهل *

فاما من اجاب السؤال ووعد بالبذل والنوال فقد صار بوعده مرهونا وصار وفاؤه بالوعد مقرونا فالاعتبار بحق السائل بعد الوعد ولا سبيل الى مراجعة نفسه فى الرد فيستوجب مع ذم المنع لؤم البخل ومقت القادر وهجنة الكذوب ثم لا سبيل لمطله بعد الوعد لما فى المطل من تكدير الصنيع وتمحيق الشكر

والعرب

والعرب تقول فى امثالها المطل احد المنعين واليأس احد النجحين وقال بشار ابن برد

* اظلت علينا منك يوما غمامة * اضاءت لنا برقا وابطا رشاشها *
* فلا غيمها يجلى فييأس طامع * ولا غيثها يأتى فيروى عطاشها *

ثم اذا انجز وعده واوفى عهده لم يتبع نفسه ما اعطى ويسر ان كانت يده العليا فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اليد العليا خير من اليد السفلى وقال الشاعر

* فانك لا تدرى اذا جاء سائل * أأنت بما تعطيه ام هو اسعد *
* عسى سائل ذو حاجة ان منعته * من اليوم سؤلا ان يكون له غد *

وليكن من سروره اذ كانت الارزاق مقدرة ان تكون على يده جارية ومن جهته واصلة لا تنتقل عنه بمنع ولا تتحول عنه بأياس وحكى ان رجلا شكا كثرة عياله الى بعض الزهاد فقال انظر من كان منهم ليس رزقه على الله عز وجل فحوله الى منزلى وقال ابن سيرين لرجل كان يأتيه على دابة ففقد الدابة ما فعل برذونك قال اشتدت على مؤنته فبعته قال أفتراه خلف رزقه عندك وقال ابن الرومى رحمه الله

* ان لله غير مرعاك مرعى * يرتعيه وغير مائك ماء *
* ان لله بالبرية لطفا * سبق الامهات والآباء *

ثم ليكن غالب عطائه لله تعالى واكثر قصده ابتغاء ما عند الله عز وجل كالذى حكاه ابو بكرة عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ان اعرابيا اتاه فقال

* يا عمر الخير جزيت الجنة * اكس بنياتى وامهنه *
* وكن لنا من الزمان جنه * اقسم بالله لتفعلنه *

فقال عمر رضى الله عنه فان لم افعل يكون ماذا فقال

* اذا ابا حفص لاذهبنه *

فقال فاذا ذهبت يكون ماذا فقال

* يكون عن حالى لتسألنه * يوم تكون الاعطيات ثنه *
* والموقف المسئول بينهنه * اما الى نار واما جنه *

فبكى عمر رضى الله عنه حتى اخضلت لحيته ثم قال يا غلام أعطه قميصى هذا لذلك اليوم لا لشعره اما والله لا املك غيره واذا كان العطاء على هذا الوجه خلا من طلب جزاء وشكر وعرى عن امتنان ونشر فكان ذلك اشرف للباذل واهنأ للقابل واما المعطى اذا التمس بعطائه الجزاء وطلب به الشكر والثناء فهو خارج بعطائه عن حكم السخاء لانه ان طلب به الشكر والثناء كان صاحب سمعة ورياء وفى هذين من الذم ما ينافى السخاء وان طلب به الجزاء كان تاجرا متربحا لا يستحق حمدا ولا مدحا وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما فى تأويل قوله تعالى ولا تمنن تستكثر انه لا يعطى عطية يلتمس بها افضل منها وكان الحسن البصرى رضى الله عنه يقول فى تأويل ذلك لا تمنن بعملك تستكثر على ربك وقال ابو العتاهية

* وليست يد اوليتها بغنيمة * اذا كنت ترجو ان تعد لها شكرا *
* غنى المرء ما يكفيه من سد حاجة * فان زاد شيئا عاد ذاك الغنى فقرا *

واعلم ان الكريم يجتدى بالكرامة واللطف واللئيم يجتدى بالمهانة والعنف فلا يجود الا خوفا ولا يجيب الا عنفا كما قد قال الشاعر

* رأيتك مثل الجوز يمنع لبه * صحيحا ويعطى خيره حين يكسر *

فاحذر ان تكون المهانة طريقا الى اجتدائك والخوف سبيلا الى اعطائك فيجرى عليك سفه الطغام وامتهان اللئام وليكن جودك كرما ورغبة لا لؤما ورهبة كيلا يكون مع الوصمة كما قال العباس بن الاحنف

* صرت كأنى ذبالة نصبت * تضئ للناس وهى تحترق *

واما النوع الثانى من البر فهو المعروف ويتنوع ايضا نوعين قولا وعملا فاما القول فهو طيب الكلام وحسن البشر والتودد بجميل القول وهذا يبعث عليه حسن الخلق ورقة الطبع ويجب ان يكون محدودا كالسخاء فانه ان اسرف فيه كان ملقا مذموما وان توسط واقتصد فيه كان معروفا وبرا محمودا وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما فى تأويل قوله تعالى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير املا انها الكلام الطيب وكان سعيد بن جبير يتأول انها الصلوات الخمس وروى سعيد عن ابى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال انكم

لن

لن تسعوا الناس باموالكم فليسعهم منكم بسط الوجوه وحسن الخلق و روى ان النبى صلى الله عليه وسلم انشد عنده قول الاعرابى هذا

* وحىّ ذوى الاضغان تسب قلوبهم * تحيتك الحسنى فقد يرقع النعل *
* فان دحسوا بالمكر فاعفو تكرما * وان حبسوا عنك الحديث فلا تسل *
* فان الذى يؤذيك منه سماعه * وان الذى قالوا وراءك لم يقل *

فقال النبى صلى الله عليه وسلم ان من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا وقيل للعتابى انك تلقى العامة ببشر وتقريب قال دفع ضغينة بايسر مؤنة واكتساب اخوان بايسر مبذول وقيل فى منثور الحكم من قل حياؤه قل احباؤه وقال بعض الشعراء

* بنىّ ان البر شئ هين * وجه طليق وكلام لين *

وقال بعضهم

* المرء لا يعرف مقداره * ما لم تبن للناس افعاله *
* وكل من يمنعنى بشره * فقل ما ينفعنى ماله *

واما العمل فهو بذل الجاه والاسعاد بالنفس والمعونة فى النائبة وهذا يبعث عليه حب الخير للناس وايثار الصلاح لهم وليس فى هذه الامور سرف ولا لغايتها حد بخلاف النوع الاول لانها وان كثرت فهى افعال خير تعود بنفعين نفع على فاعلها فى اكتساب الاجر وجميل الذكر و نفع على المعان بها فى التخفيف عنه والمساعدة له وقد روى محمد بن المنكدر عن جابر ان النبى صلى الله عليه وسلم قال كل معروف صدقة وقال النبى صلى الله عليه وسلم صنائع المعروف تقى مصارع السوء وعنه عليه الصلاة والسلام انه قال المعروف كاسمه واول من يدخل الجنة يوم القيامة المعروف واهله وقال على بن ابى طالب كرم الله وجهه لا يزهدنك فى المعروف كفر من كفره فقد يشكر الشاكر باضعاف جحود الكافر وقال الحطيئة

* من يفعل الخير لا يعدم جوازيه * لا يذهب العرف بين الله والناس *

وانشد الرياشى

* يد المعروف غنم حيث كانت * تحملها كفور ام شكور *
* ففى شكر الشكور لها جزاء * وعند الله ما كفر الكفور *

فينبغى لمن يقدر على ابتداء المعروف ان يعجله حذر فواته ويبادر به خيفة عجزه وليعلم انه من فرص زمانه وغنائم امكانه ولا يهمله ثقة بقدرته عليه فكم واثق بقدرة فاتت فاعقبت ندما ومعول على مكنة زالت فاورثت خجلا وقد قال الشاعر

* ما زلت اسمع كم من واثق خجل * حتى ابتليت فكنت الواثق الخجلا *

ولو فطن لنوائب دهره وتحفظ من عواقب مكره لكانت مغانمه مذخورة ومغارمه مجبورة فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لكل شئ ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح وقيل لانوشروان ما اعظم المصائب عندكم فقال ان تقدر على المعروف ولا تصطنعه حتى يفوت وقال عبد الحميد من اخر الفرصة عن وقتها فليكن على ثقة من فوتها وقال بعض الشعراء

* اذا هبت رياحك فاغتنمها * فان لكل خافقة سكون *
* ولا تغفل عن الاحسان فيها * فما تدرى السكون متى يكون *
* وان درت نياقك فاحتلبها * فما تدرى الفصيل لمن يكون *

وروى ان بعض وزراء بنى العباس مطل راغبا اليه فى عمل يستكفيه اياه فكتب اليه بعد طول المطل به

* أما يدعوك طول الصبر منى * على استئناف منفعتى وشغلى *
* وعلمك ان ذا السلطان غاد * على خطرين من موت وعزل *
* وانك ان تركت قضاء حق * الى وقت التفرغ والتخلى *
* ستصبح نادما اسفا معزى * على فوت الصنيعة عند مثلى *

وكتب بعض ذى الحرمات الى وال قد قصر فى رعاية حرمته يقول

* أعلى الصراط تريد رعية حرمتى * ام فى الحساب تمن بالانعام *
* للنفع فى الدنيا اردتك فانتبه * لحوائجى من رقدة النوام *

وكتب ابو على البصير الى بعض الوزراء وقد اعتذر اليه بكثرة الاشغال يقول

* لنا كل يوم نوبة قد نوبها * وليس لنا رزق ولا عندنا فضل *
* فان تعتذر بالشغل عنا فانما * تناط بك الآمال ما اتصل الشغل *

واعلم ان للمعروف شروطا لا يتم الا بها ولا يكمل الا معها فمن ذلك ستره عن

اذاعة يستطيل لها واخفاؤه عن اشاعة يستدل بها قال بعض الحكماء اذا اصطنعت المعروف فاستره واذا صنع اليك فانشره ولقد قال دعبل الخزاعى

* اذا انتقموا اعلنوا امرهم * وان انعموا انعموا باكتتام *
* يقوم القعود اذا اقبلوا * وتقعد هيبتهم بالقيام *

على ان ستر المعروف من اقوى اسباب ظهوره وابلغ دواعى نشره لما جبلت عليه النفوس من اظهار ما خفى واعلان ما كتم وقال سهل بن هارون

* خل اذا جئته يوما لتسأله * اعطاك ما ملكت كفاه واعتذرا *
* يخفى صنائعه والله يظهرها * ان الجميل اذا اخفيته ظهرا *

ومن شروط المعروف تصغيره عن ان يراه مستكبرا وتقليله عن ان يكون مستكثرا لئلا يصير به مدلا بطرا ومستطيلا اشرا وقال العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه لا يتم المعروف الا بثلاث خصال تعجيله وتصغيره وستره فاذا عجلته هنأته واذا صغرته عظمته واذا سترته اتممته وقال بعض الشعراء

* زادك المعروف عندى عظما * انه عندك ميسور حقير *
* وتناسيت كأن لم تأته * وهو عند الناس مشهور خطير *

ومن شروط المعروف مجانبة الامتنان به وترك الاعجاب بفعله لما فيهما من اسقاط الشكر واحباط الاجر فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اياكم والامتنان بالمعروف فانه يبطل الشكر ويمحق الاجر ثم تلا ولا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى وسمع ابن سيرين رجلا يقول لرجل فعلت اليك وفعلت فقال ابن سيرين اسكت فلا خير فى المعروف اذا احصى وقال بعض الحكماء المن مفسدة الصنيعة وقال بعض الادباء كدر معروفا امتنان وضيع حسبا امتهان وقال بعض البلغاء من منّ بمعروفه اسقط شكره ومن اعجب بعمله احبط اجره وقال بعض الفصحاء قوة المن من ضعف المنن وقال بعض الشعراء

* افسدت بالمن ما اسديت من حسن * ليس الكريم اذا اسدى بمنان *

﴿ وقال ابو نواس ﴾

* فامض لا تمنن علىّ يدا * منك المعروف من كدره *

﴿ وانشدت عن الربيع للشافعى رضى الله عنه ﴾

* لا تحملن لمن يمـن من الانام عليك منه *
* واختر لنفسك حظها * واصبر فان الصبر جنه *
* منن الرجال على القلو * ب اشد من وقع الاسنه *

ومن شروط المعروف ان لا يحتقر منه شيئا وان كان قليلا نزرا اذا كان الكثير معوزا وكنت عنه عاجزا فان من حقر يسيره منع منه العجزه كثيره فامتنع عنه وفعل قليل الخير افضل من تركه فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لا يمنعكم من المعروف صغيره وقال عبد الله بن جعفر لا تستحى من القليل فان المنع اقل منه ولا تجبن عن الكثير فانك اكثر منه وقال الشاعر

* اعمل الخير ما استطعت وان كا * ن قليلا فلن تحيط بكله *
* ومتى تفعل الكثير من الخير اذا كنت تاركا لاقله *

على ان من المعروف ما لا كلفة على موليه ولا مشقة على مسديه وانما هو جاه يستظل به الادنى ويرتفق به التابع وقال الشاعر

* ظل الفتى ينفع من دونه * وما له فى ظله حظ *

واعلم انك لن تسطيع ان يسع جميع الناس معروفك ولا ان توليهم احسانك فاعتمد بذلك اهل الفضل منهم والحفاظ واقصد به ذوى الرعاية والوداد ليكون معروفك فيهم ناميا وصنيعك عندهم زاكيا وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لا تنفع الصنيعة الا عند ذى حسب ودين وقال النبى صلى الله عليه وسلم اذا اراد الله بعبد خيرا جعل صنائعه فى اهل الحفاظ وقال حسان ابن ثابت رضى الله عنه

* ان الصنيعة لا تكون صنيعة * حتى يصاب بها طريق المصنع *
* فاذا صنعت صنيعة فاعمل بها * لله او لذوى القرابة او دع *

وقيل فى منثور الحكم لا خير فى معروف الى غير عروف وقد ضرب الشاعر به مثلا فقال

* كحمار السوء ان اشبعته * رمح الناس وان جاع نهق *

وقال

وقال بعض الحكماء على قدر المغارس يكون اجتناء الغارس فاخذه بعض الشعراء فقال

* لعمرك ما المعروف فى غير اهله * وفى اهله الا كبعض الودائع *
* فمستودع ضاع الذى كان عنده * ومستودع ما عنده غير ضائع *
* وما الناس فى شكر الصنيعة عندهم * وفى كفرها الا كبعض المزارع *
* فمزرعة طابت واضعف نبتها * ومزرعة اكدت على كل زارع *

واما من اسدى اليه المعروف واصطنع اليه الاحسان فقد صار باسر المعروف موثوقا وفى ملك الاحسان مرقوقا ولزمه ان كان من اهل المكافأة ان يكافئ عليها وان لم يكن من اهلها ان يقابل المعروف بنشره ويقابل الفاعل بشكره فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من اودع معروفا فلينشره فان نشره فقد شكره وان كتمه فقد كفره وروى الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وانا اتمثل بهذين البيتين

* ارفع ضعيفك لا يحونك ضعفه * يوما فتدركه العواقب قد نما *
* يجزيك او يثنى عليك وان من * اثنى عليك بما فعلت فقد جزى *

فقال النبى صلى الله عليه وسلم ردى علىّ قول اليهودى قاتله الله لقد اتانى جبرائيل برسالة من ربى تعالى ايما رجل صنع الى اخيه صنيعة فلم يجد لها جزاء الا الدعاء والثناء فقد كافاه وقيل فى منثور الحكم الشكر قيد النعم وقال عبد الحميد من لم يشكر الانعام فاعدده من الانعام وقيل فى منثور الحكم قيمة كل نعمة شكرها وقال بعض الحكماء كفر النعم من امارات البطر واسباب الغير وقال بعض الفصحاء الكريم شكور او مشكور واللئيم كفور او مكفور وقال بعض البلغاء لا زوال للنعمة مع الشكر ولا بقاء لها مع الكفر وقال بعض الادباء

* شكر الاله بطول الثناء * وشكر الولاة بصدق الولاء *
* وشكر النظير بحسن الجزاء * وشكرك الدون بحسن العطاء *

﴿ وقال بعض الشعراء ﴾

* فلو كان يستغنى عن الشكر ماجد * لعزة ملك او علو مكان *
* لما امر الله العباد بشكره * فقال اشكروا لى ايها الثقلان *

فان من شكر معروف من احسن اليه ونشر افضال من انعم عليه فقد ادى حق النعمة وقضى موجب الصنيعة ولم يبق عليه الا استدامة ذلك اتماما لشكره ليكون للمزيد مستحقا ولمتابعة الاحسان مستوجبا حتى ان الحجاج اتى اليه بقوم من الخوارج وكان فيهم صديق له فامر بقتلهم الا ذلك الصديق فانه عفا عنه واطلقه ووصله فرجع الرجل الى قطرى بن الفجاءة فقال له عد الى قتال عدو الله فقال هيهات غل يدا مطلقها واسترق رقبة معتقها وانشأ يقول

* أأقاتل الحجاج فى سلطانه * بيد تقر بانها مولاته *
* انى اذا لاخو الدناءة والذى * شهدت باقبح فعله غدراته *
* ماذا اقول اذا وقفت ازاءه * فى الصف واحتجت له فعلاته *
* أأقول جار علىّ لا انى اذا * لاحق من جارت عليه ولاته *
* وتحدث الاقوام ان صنائعا * غرست لدى فحنظلت نخلاته *

وقيل فى منثور الحكم المعروف رق والمكافأة عتق ومن اشكر الناس الذى يقول

* لأشكرنك معروفا هممت به * ان اهتمامك بالمعروف معروف *
* ولا الومك ان لم يمضه قدر * فالشئ بالقدر المحتوم مصروف *

وهذا النوع من الشكر الذى يتعجل المعروف ويتقدم البر قد يكون على وجوه فيكون تارة من حسن الثقة بالمشكور فى وصول بره واسداء عرفه ولا رأى لمن يحسن به ظن شاكر ان يخلف حسن ظنه فيه فيكون كما قال العتابى

* قد اورقت فيك آمالى بوعدك لى * وليس فى ورق الآمال لى ثمر *

وقد يكون تارة من فرط شكر الراجى وحسن مكافأة الآمل فلا يرضى لنفسه الا بتعجيل الحق واسلاف الشكر وليس لمن صادف لمعروفه معدنا زاكيا ومغرسا ناميا ان يفوت نفسه غنما ولا يحرمها ربحا فهذا وجه ثان وقد يكون تارة ارتهانا للمأمول وحبا للمسئول وبحسب ما اسلف من الشكر يكون الذم عند الاياس وقال

بعض الادباء من حكماء المتقدمين من شكرك على معروف لم تسده اليه فعاجله بالبر والا انعكس فصار ذما وقال ابن الرومى

* وما الحقد الا توأم الشكر فى الفتى * و بعض السجايا ينسبن الى بعض *
* فحيث ترى حقدا على ذى اساءة * فثم ترى شكرا على حسن القرض *
* اذا الارض ادت ريع ما انت زراع * من البذر فيها فهى ناهيك من ارض *

واما من ستر معروف المنعم ولم يشكره على ما اولاه من نعمه فقد كفر النعمة وجحد الصنيعة وان من اذم الخلائق واسوأ الطرائق ما يستوجب به قبح الرد وسوء المنع فقد روى ابو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لا يشكر الله من لا يشكر الناس وقال بعض الادباء من لم يشكر لمنعمه استحق قطع النعمة وقال بعض الفصحاء من كفر نعمة المفيد استوجب حرمان المزيد وقال بعض البلغاء من انكر الصنيعة استوجب قبح القطيعة وانشدنى بعض الادباء ما ذكر انه لعلى بن ابى طالب كرم الله وجهه

* من جاوز النعمة بالشكر لم * يخش على النعمة مغتالها *
* لو شكروا النعمة زادتهم * مقالة الله التى قالها *
* لئن شكرتم لأزيدنكم * لكنما كفرهم غالها *
* والكفر بالنعمة يدعو الى * زوالها والشكر ابقى لها *

وهذا آخر ما يتعلق بالقاعدة الثانية من اسباب الالفة الجامعة فاما القاعدة الثالثة فهى المادة الكافية لان حاجة الانسان لازمة لا يعرى منها بشر قال الله تعالى وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين فاذا عدم المادة التى هى قوام نفسه لم تدم له حياة ولم تستقم له دنيا واذا تعذر شئ منها عليه لحقه من الوهن فى نفسه والاختلال فى دنياه بقدر ما تعذر من المادة عليه لان الشئ القائم بغيره يكمل بكماله ويختل باختلاله ثم لما كانت المواد مطلوبة لحاجة الكافة اليها اعوزت بغير طلب وعدمت لغير سبب واسباب المودة مختلفة وجهات المكاسب منشعبة ليكون اختلاف اسبابها علة الائتلاف بها وتشعب جهاتها توسعة لطلابها كيلا يجتمعوا على سبب واحد فلا يلتئمون ويشتركوا فى جهة واحدة فلا يكتفون ثم هداهم اليها بعقولهم وارشدهم اليها بطباعهم

حتى لا يتكلفوا ائتلافهم فى المعايش المختلفة فيعجزوا ولا يعاونوا بتقدير موادهم بالمكاسب المتشعبة فيختلوا حكمة منه سبحانه وتعالى اطلع بها على عواقب الامور وقد انبأ الله تعالى فى كتابه العزيز اخبارا واذكارا فقال سبحانه وتعالى قال ربنا الذى اعطى كل شئ خلقه ثم هدى اختلف المفسرون فى تأويل ذلك فقال قتادة اعطى كل شئ ما يصلحه ثم هداه وقال مجاهد اعطى كل شئ صورته ثم هداه لمعيشته وقال ابن عباس رضى الله عنهما اعطى كل شئ زوجة ثم هداه لنكاحها وقال تعالى يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا يعنى معايشهم متى يزرعون ومتى يغرسون وهم عن الآخرة هم غافلون وقال تعالى وقدر فيها اقواتها فى اربعة ايام سواء للسائلين قال عكرمة قدر فى كل بلدة منها ما لم يجعله فى الاخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد الى بلد وقال الحسن البصرى وعبد الرحمن ابن زيد قدر ارزاق اهلها سواء للسائلين الزيادة فى ارزاقهم ثم ان الله تعالى جعل لهم مع ما هداهم اليه من مكاسبهم وارشدهم اليه من معايشهم دينا يكون حكما وشرعا يكون قيما ليصلوا الى موادهم بتقديره ويطلبوا اسباب مكاسبهم بتدبيره حتى لا ينفردوا بارادتهم فيتغالبوا وتستولى عليهم اهواءهم فيتقاطعوا قال الله تعالى ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات والارض قال المفسرون الحق فى هذا الموضع هو الله جل جلاله فلاجل ذلك لم يجعل المواد مطلوبة بالالهام حتى جعل العقل هاديا اليها والدين قاضيا عليها لتتم السعادة وتعم المصلحة ثم انه جلت قدرته جعل سد حاجتهم وتوصلهم الى منافعهم من وجهين بمادة وكسب فاما المادة فهى حادثة عن اقتناء اصول نامية بذواتها وهى شيئان نبت نام وحيوان متناسل قال الله تعالى وانه هو اغنى واقنى قال ابو صالح اغنى خلقه بالمال واقنى جعل لهم قنية وهى اصول الاموال واما المكسب فيكون بالافعال الموصلة الى المادة والتصرف المؤدى الى الحاجة وذلك من وجهين احدهما تقلب فى تجارة والثانى تصرف فى صناعة وهذان هما فرع لوجهى المادة فصارت اسباب المواد المألوفة وجهات المكاسب المعروفة من اربعة اوجه نماء زراعة ونتاج حيوان وربح تجارة وكسب صناعة وحكى الحسن بن رجاء مثل ذلك عن المأمون قال سمعته يقول

معايش

معايش الناس على اربعة اقسام زراعة وصناعة وتجارة وامارة فمن خرج عنها كان كلا عليها واذ قد تقررت اسباب المواد بما ذكرنا فسنصف حال كل واحد منها بقول موجز اما الاول من اسبابها وهي ﴿ الزراعة ﴾ فهي مادة اهل الحضر وسكان الامصار والمدن والاستمداد بها اعم نفعا واوفى فرعا ولذلك ضرب الله تعالى به المثل فقال مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خير المال عين ساهرة لعين نائمة وقال صلى الله عليه وسلم نعمت لكم النخلة تشرب من عين خرارة وتغرس في ارض خوارة وقال صلى الله عليه وسلم في النخل هي الراسخات في الوحل المطعمات في المحل وقال بعض السلف خير المال عين خرارة في ارض خوارة تسهر اذا نمت وتشهد اذا غبت وتكون عقبا اذا مت وروى هشام بن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم التمسوا الرزق في خبايا الارض يعني الزرع وحكى عن المعتضد انه قال رأيت علي بن ابي طالب رضي الله عنه في المنام يناولني المسحاة وقال خذها فانها مفاتيح خزائن الارض وقال كسرى للموبد ما قيمة تاجي هذا فاطرق ساعة ثم قال ما اعرف له قيمة الا ان تكون مطرة في نيسان فانها تصلح من معايش الرعية ما تكون قيمته مثل تاج الملك ولقي عبد الله بن عبد الملك بن شهاب الزهري فقال له ادللني على مال اعالجه فانشأ ابن شهاب يقول

* تتبع خبايا الارض وادع مليكها * لعلك يوما ان تجاب فترزقا *
* فيؤتيك مالا واسعا ذا متانة * اذا ما مياه الارض غارت تدفقا *

وقد اختلف الناس في تفضيل الزرع والشجر بما ليس يتسع كتابنا هذا لبسط القول فيه غير ان من فضل الزرع فلقرب مداه ووفور جداه ومن فضل الشجر فلثبوت اصله وتوالي ثمره واما الثاني من اسبابها وهو ﴿ نتاج الحيوان ﴾ فهو مادة اهل الفلوات وسكان الخيام لانهم لما لم تستقر بهم دار ولم تضمهم امصار افتقروا الى الاموال المنتقلة معهم وما لا ينقطع نماؤه بالظعن والرحلة فاقتنوا الحيوان لانه يستقل في النقلة بنفسه ويستغني عن العلوفة برعيه ثم هو مركوب

ومحلوب فكان اقتناؤه على اهل الخيام ايسر لقلة مونته وتسهيل الكلفة به وكانت جدواه عليهم اكثر لوفور نسله واقتيات رسله الهاما من الله لخلقه فى تعديل المصالح فيهم وارشاد العباد فى قسم المنافع بينهم وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال خير المال مهرة مأمورة وسكة مأبورة ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم مهرة مامورة اى كثيرة النسل ومنه تأول الحسن وقتادة قوله تعالى امرنا مترفيها اى كثرنا عددهم واما السكة المأبورة فهى النخل المؤبرة الحمل وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال فى الغنم سمنها معاش وصوفها رياش وروى عن ابى ظبيان انه قال قال لى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما مالك يا ابا ظبيان قال قلت عطائى الفان قال اتخذ من هذا الحرث والسائبات قبل ان تليك غلمة من قريش لا تعد العطاء معهم مالا والسائبات النتاج وحكى ان امرأة اتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله انى اتخذت غنما ابتغى نسلها ورسلها وانها لا تنمى فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم ما ألوانها قالت سود فقال عفرى وهذا مثل قوله صلى الله عليه وسلم فى مناكح الآدميين اغربوا ولا تضووا واما الثالث من اسبابها وهى ﴿ التجارة ﴾ فهى فرع لمادتى الزرع والنتاج فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال تسعة اعشار الرزق فى التجارة والحرث والباقى فى السائبات وهى نوعان تقلب فى الحضر من غير نقلة ولا سفر وهذا تربص واختصار وقد رغب عنه ذووا الاقتدار وزهد فيه ذووا الاخطار والثانى تقلب بالمال بالاسفار ونقله الى الامصار فهذا أليق باهل المروءة واعم جدوى ومنفعة غير انه اكثر خطرا واعظم غررا فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان المسافر وماله لعلى تلف الا ما وقى الله يعنى على خطر وفى التوراة يا ابن آدم احدث سفرا احدث لك رزقا واما الرابع من اسبابها وهو ﴿ الصناعة ﴾ فقد يتعلق بما مضى من الاسباب الثلاثة وتنقسم اقساما ثلاثة صناعة فكر وصناعة عمل وصناعة مشتركة بين فكر وعمل لان الناس آلات للصناعات واشرفهم نفسا متهيئ لاشرفها جنسا كما ان ارذلهم نفسا متهيئ لارذلها جنسا لان الطبع يبعث على ما يلائمه ويدعو الى ما يجانسه وحكى ان الاسكندر لما اراد الخروج

الى اقاصى الارض قال لارسطاطاليس اخرج معى قال قد نحل جسمى وضعفت عن الحركة فلا تزعجنى قال فما اصنع فى عمالى خاصة قال انظر الى من كان له عبيد فأحسن سياستهم فوله الجنود ومن كانت له ضيعة فاحسن تدبيرها فوله الخراج فنبه باعتبار الطباع على ما اغناه عن كلفة التجربة واشرف الصناعات صناعة الفكر وهى مدبرة وارذلها صناعة العمل لان العمل نتيجة الفكر وتدبيره فاما صناعة الفكر فقد تنقسم قسمين ﴿ احدهما ﴾ ما وقف على التدبيرات الصادرة عن نتائج الآراء الصحيحة كسياسة الناس وتدبير البلاد وقد افردنا للسياسة كتابا لخصنا فيه من جملها ما ليس يحتمل هذا الكتاب زيادة عليها ﴿ والثانى ﴾ ما ادت الى المعلومات الحادثة عن الافكار النظرية وقد مضى فى فضل العلم من كتابنا هذا باب اغنى ما فيه عن زيادة قول فيه واما صناعة العمل فقد تنقسم قسمين عمل صناعى وعمل بهيمى فالعمل الصناعى اعلاها رتبة لانه يحتاج الى معاطاة فى تعلمه ومعاناة فى تصوره فصار بهذه النسبة من المعلومات الفكرية والآخر انما هو صناعة كد وآلة مهنة وهى الصناعة التى تقتصر عليها النفوس الرذلة وتقف عليها الطباع الخاسئة كما قال اكثم به صيقى لكل ساقطة لاقطة وكما قال المتلمس

* ولا يقيم على ضيم يسام به * الا الاذلان عير الحى والوتد *
* هذا على الخسف مربوط برمته * وذا يشج فلا يرثى له احد *

واما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل فقد تنقسم قسمين احدهما ان تكون صناعة الفكر اغلب والعمل تبعا كالكتابة والثانى ان تكون صناعة العمل اغلب والفكر تبعا كالبناء واعلاهما رتبة ما كانت صناعة الفكر اغلب عليها والعمل تبعا لها فهذه احوال الخلق التى ركبهم الله عز وجل عليها فى ارتياد موادهم ووكلهم الى نظرهم فى طلب مكاسبهم وفرق بين هممهم فى التماسهم ليكون ذلك سببا لائتلافهم فسبحان من تفرد فينا بلطف حكمته واظهر فطنتنا بعزائم قدرته واذ قد وضح القول فى اسباب المواد وجهات الكسب فليس يخلو حال الانسان فيها من ثلاثة امور ﴿ احدها ﴾ ان يطلب منها قدر كفايته ويلتمس وفق حاجته من غير ان يتعدى الى زيادة عليها او يقتصر على نقصان منها فهذه احمد

احوال الطالبين واعدل مراتب المقتصدين وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال اوحى الله تعالى الى كلمات فدخلن فى اذنى ووقرن فى قلبى من اعطى فضل ماله فهو خير له ومن امسك فهو شر له ولا يلم الله على كفاف وروى حميد عن معاوية بن جندة قال قلت يا رسول الله ما يكفينى من الدنيا قال ما يسد جوعتك ويستر عورتك فان كان ذلك فذاك وان كان حماد فبخ بخ فلق من خبز وجزء من ماء وانت مسئول عما فوق الازار وقد روى عن ابن عباس ومجاهد فى قوله تعالى اذ جعل فيكم انبياء وجعلكم ملوكا ان كل من ملك بيتا وزوجة وخادما فهو ملك وروى زيد بن اسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان له بيت وخادم فهو ملك وهو فى المعنى صحيح لانه بالزوجة والخادم مطاع فى امره وفى الدار محجوب الا عن اذنه وليس على من طلب الكفاية ولم يجاوز تبعات الزيادة الا توخى الحلال منه واجمال الطلب فيه ومجانبة الشبهة الممازجة له وقد روى نافع عن ابن عمر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحلال بين والحرام بين فدع ما يريبك الى ما لا يريبك فلن تجد فقد شئ تركته لله وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزهد فقال أما انه ليس باضاعة المال ولا تحريم الحلال ولكن ان تكون بما يد الله اوثق منك بما فى يديك وان يكون ثواب المصيبة ارجح عندك من بقائها وحكى عبد الله بن المبارك قال كتب عمر بن عبد العزيز الى الجراح بن عبد الله الحكمى ان استطعت ان تدع مما احل الله لك ما يكون حاجزا بينك وبين الحرام فافعل فانه من استوعب الحلال تاقت نفسه الى الحرام وقد اختلف اهل التأويل فى قوله تعالى فان له معيشة ضنكا فقال عكرمة يعنى كسبا حراما وقال ابن عباس هو انفاق من لا يوقن بالخلف وقال يحيى بن معاذ الدرهم عقرب فان احسنت رقيتها والا فلا تأخذها وقيل من قل توقيه كثرت مساويه وقال بعض البلغاء خير الاموال ما اخذته من الحلال وصرفته فى النوال وشر الاموال ما اخذته من الحرام وصرفته فى الآثام وكان الاوزاعى الفقيه كثيرا ما يتمثل بهذه الابيات

* المال ينفد حله وحرامه * يوما ويبقى بعد ذلك اثامه *

* ليس التقي بمتق لالهه * حتى يطيب شرابه وطعامه *
* ويطيب ما يجني ويكسب اهله * ويطيب من لفظ الحديث كلامه *
* نطق النبي لنا به عن ربه * فعلى النبي صلاته وسلامه *

وحكى عن ابن المعتمر السلمي قال الناس ثلاثة اصناف اغنياء وفقراء واوساط فالفقراء موتى الا من اغناه الله بعز القناعة والاغنياء سكارى الا من عصمه الله تعالى بتوقع الغير واكثر الخير مع اكثر الاوساط واكثر الشر مع اكثر الفقراء والاغنياء لسخف الفقر وبطر الغنى ﴿ والامر الثاني ﴾ ان يقصر عن طلب كفايته ويزهد في التماس مادته وهذا التقصير قد يكون على ثلاثة اوجه فيكون تارة كسلا وتارة توكلا وتارة زهدا وتقنعا فان كان تقصيره لكسل فقد حرم ثروة النشاط ومرح الاغتباط فلن يعدم ان يكون كلا قصيا او ضائعا شقيا وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال كاد الحسد ان يغلب القدر وكاد الفقر ان يكون كفرا وقال بزرجمهر ان كان شئ فوق الحياة فالصحة وان كان شئ مثلها فالغنى وان كان شئ فوق الموت فالمرض وان كان شئ مثله فالفقر وقيل في منثور الحكم القبر خير من الفقر ووجد في نيل مصر مكتوب على حجر

* عقب الصبر نجاح وغنى * ورداء الفقر من نسج الكسل *

﴿ وقال بعض الشعراء ﴾

* اعوذ بك اللهم من بطر الغنى * ومن ذهكة البلوى ومن ذلة الفقر *
* ومن امل يمتد في كل شارف * يرجعني منه بحظ يد صفر *
* اذا لم تدنسني الذنوب بعارها * فلست ابالي ما تشعث من امري *

واذا كان تقصيره لتوكل فذلك عجز قد اعذر به نفسه وترك حزم قد غير اسمه لان الله تعالى امرنا بالتوكل عند انقطاع الحيل والتسليم الى القضاء بعد الاعذار وقد روى معمر عن ايوب عن ابي قلابة قال ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل فذكر فيه خير فقالوا يا رسول خرج معنا حاجا فاذا نزلنا منزلا لم يزل يصلي حتى نرحل فاذا ارتحلنا لم يزل يذكر الله عز وجل حتى ننزل فقال صلى الله عليه وسلم فمن كان يكفيه علف ناقته وصنع طعامه قالوا كلنا يا رسول الله قال كلكم

خير منه وقال بعض الحكماء ليس من توكل المرء اضاعته الحزم ولا من الحزم اضاعة نصيبه من التوكل وان كان تقصيره لزهد وتقنع فهذه حال من علم بمحاسبة نفسه بتبعات الغنى والثروة وخاف عليها بوائق الهوى والقدرة فآثر الفقر على الغنى وزجر النفس عن ركوب الهوى فقد روى ابو الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من يوم طلعت فيه شمسه الا وعلى جنبتيها ملكان يناديان يسمعهما خلق الله كلهم الا الثقلين يا ايها الناس هلموا الى ربكم ان ما قل وكفى خير مما كثر والهى وروى زيد بن على بن الحسين عن ابيه عن جده رضى الله عنهم اجمعين انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انتظار الفرج من الله بالصبر عبادة ومن رضى من الله عز وجل بالقليل من الرزق رضى الله عز وجل منه بالقليل من العمل وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قال من نبل الفقر انك لا تجد احدا يعصى الله ليفتقر فاخذه محمود الوراق فقال

* ياعائب الفقر ألا تزدجر * عيب الغنى اكثر لو تعتبر *
* من شرف الفقر ومن فضله * على الغنى ان صح منك النظر *
* انك تعصى لتنال الغنى * ولست تعصى الله كى تفتقر *

﴿ وقال ابن المقفع ﴾

* دليلك ان الفقر خير من الغنى * وان قليل المال خير من المثرى *
* لقاؤك مخلوقا عصى الله بالغنى * ولم تر مخلوقا عصى الله بالفقر *

وهذه الحال انما تصح لمن نصح نفسه فاطاعته وصدقها فاجابته حتى لان قيادها وهان عنادها وعلمت ان من لم يقنع بالقليل لم يقنع بالكثير كما كتب الحسن البصرى الى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما يا اخى من استغنى بالله اكتفى ومن انقطع الى غيره تعنى ومن كان من قليل الدنيا لا يشبع لم يغنه منها كثرة ما يجمع فعليك منها بالكفاف وألزم نفسك العفاف واياك وجمع الفضول فان حسابه يطول وقال بعض الحكماء هيهات منك الغنى ان لم يقنعك ما حويت فاما من اعرضت نفسه عن قبول نصحه وجمحت به عن قناعة زهده فليس الى اكراهها سبيل ولا لحملها عليها وجه الا بالرياضة والمروءة وان يستنزلها الى اليسير الذى لا تنفر منه فاذا استقرت عليه انزلها الى ما هو اقل منه لتنتهى بالتدريج

الى الغاية المطلوبة وتستقر بالرياضة والتمرين على الحال المحبوبة وقد تقدم قول الحكماء ان المكره يسهل بالتمرين فهذا حكم ما فى الامر الثانى من التقصير عن طلب الكفاية واما * الامر الثالث * فهى ان لا يقنع بالكفاية ويطلب الزيادة والكثرة فقد يدعو الى ذلك اربعة اسباب • احدها منازعة الشهوات التى لا تنال الا بزيادة المال وكثرة المادة فاذا نازعته الشهوة طلب من المال ما يوصله وليس للشهوات حد متناه فيصير ذلك ذريعة الى ان ما يطلبه من الزيادة غير متناه ومن لم يتناه طلبه استدام كده وتعبه ومن استدام الكد والتعب لم يف التذاذه بنيل شهواته بما يعانيه من استدامة كده واتعابه مع ما قد لزمه من ذم الانقياد لمغالبة الشهوات والتعرض لاكتساب التبعات حتى يصير كالبهيمة التى قد انصرف طلبها الى ما تدعو اليه شهوتها فلا تنزجر عنه بعقل ولا تنكف عنه بقناعة وقد روى عن على عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من اراد الله به خيرا حال بينه وبين شهوته وحال بينه وبين قلبه واذا اراد به شرا وكله الى نفسه وقد قال الشاعر

* وانك ان اعطيت بطنك همه * وفرجك نالا منتهى الذم اجمعا *

والسبب الثانى ان يطلب الزيادة ويلتمس الكثرة ليصرفها فى وجوه الخير ويتقرب بها فى جهات البر ويصطنع بها المعروف ويغيث بها الملهوف فهذا اعذر وبالحمد احرى واجدر اذا انصرفت عنه تبعات المطالب وتوقى شبهات المكاسب واحسن التقدير فى حالتى فائدته وافادته على قدر الزمان وبقدر الامكان لان المال آلة للمكارم وعون على الدين ومتألف للاخوان ومن فقده من اهل الدنيا قلت الرغبة فيه والرهبة منه ومن لم يكن منهم بموضع رهبة ولا رغبة استهانوا به وقد روى عبد الله بن بريدة عن ابيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان حساب اهل الدنيا هذا المال وقال مجاهد الخير فى القرآن كله المال وانه لحب الخير لشديد يعنى المال واحببت حب الخير عن ذكر ربى يعنى المال فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا يعنى مالا وقال شعيب النبى عليه السلام انى اراكم بخير يعنى المال وانما سمى الله تعالى المال خيرا اذا كان فى الخير مصروفا لان ما ادى الى الخير فهو

فى نفسه وقد اختلف اهل التأويل فى قوله تعالى ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار فقال السدى وعبد الرحمن بن زيد الحسنة فى الدنيا وفى الآخرة الجنة وقال الحسن البصرى وسفيان الثورى الحسنة فى الدنيا العلم والعبادة وفى الآخرة الجنة وقال ابن عباس الدراهم والدنانير خواتم الله فى الارض لا تؤكل ولا تشرب حيث قصدت بها قضيت حاجتك وقال قيس بن سعد اللهم ارزقنى حمدا ومجدا فانه لا حمد الا بفعال ولا مجد الا بمال وقد قيل لابى الزناد لم تحب الدراهم وهى تدنيك من الدنيا فقال هى وان ادنتنى منها فقد صانتنى عنها وقال بعض الحكماء من اصلح ماله فقد صان الاكرمين الدين والعرض وقيل فى منثور الحكم من استغنى كرم على اهله ومر رجل من ارباب الاموال ببعض العلماء فتحرك له واكرمه فقيل له بعد ذلك أكانت لك الى هذا حاجة قال لا ولكنى رأيت ذا المال مهيبا وسأل رجل محمد بن عمير بن عطارد وعتاب بن ورقاء فى عشر ديات فقال محمد علىّ دية وقال عتاب الباقى علىّ فقال محمد نعم العون اليسار على المجد وقال الاحنف بن قيس

* فلو كنت مثرى بمال كثير لجدت وكنت له باذلا *
* فان المروءة لا تستطـا * ع اذا لم يكن مالها فاضلا *

وكان يقال الدراهم مراهم لانها تداوى كل جرح ويطيب بها كل صلح وقال ابن الجلال

* رزقت مالا ولم أرزق مروءته * وما المروءة الا كثرة المال *
* اذا اردت رقى العلياء يقعدنى * عما ينوه باسمى رقة الحال *

وقيل فى منثور الحكم الفقر مخذلة والغنى مجدلة والبؤس مرذلة والسؤال مبذلة وقال اوس بن حجر

* اقيم بدار الحزم مادام حزمها * واحرى اذا حالت بان اتحولا *
* فانى وجدت الناس الا اقلهم * خفاف عهود يكثرون التنقلا *
* بنى ام ذى المال الكثير يرونه * وان كان عبدا سيد الامر جحفلا *
* وهم لمقل المال اولاد علة * وان كان محضا فى العشيرة مخولا *

وقال

﴿ وقال بشر الضرير ﴾

* كفى حزنا انى اروح واغتدى * وما لى من مال اصون به عرضى *
* واكثر ما القى الصديق بمرحبا * وذلك لا يكفى الصديق ولا يرضى *

﴿ وقال آخر ﴾

* اجلك قوم حين صرت الى الغنى * وكل غنىّ فى العيون جليل *
* وليس الغنى الا غنى زين الفتى * عشية يقرى او غداة ينيل *

وقد اختلف الناس فى تفضيل الغنى والفقر مع اتفاقهم ان ما احوج من الفقر مكروه وما ابطر من الغنى مذموم فذهب قوم الى تفضيل الغنى على الفقر لان الغنىّ مقتدر والفقير عاجز والقدرة افضل من العجز وهذا مذهب من غلب عليه حب النباهة وذهب آخرون الى تفضيل الفقر على الغنى لان الفقير تارك والغنىّ ملابس وترك الدنيا افضل من ملابستها وهذا مذهب من غلب عليه حب السلامة وذهب آخرون الى تفضيل التوسط بين الامرين بان يخرج عن حد الفقر الى ادنى مراتب الغنى ليصل الى فضيلة الامرين ويسلم من مذمة الحالين وهذا مذهب من يرى تفضيل الاعتدال وان خيار الامور اوساطها وقد مضى شواهد كل فريق فى موضعه بما اغنى عن اعادته * والسبب الثالث ان يطلب الزيادة ويقتنى الاموال ليدخرها لولده ويخلفها على ورثته مع شدة ضنه على نفسه وكفه عن صرف ذلك فى حقه اشفاقا عليهم من كدح الطلب وسوء المنقلب وهذا شقى بجمعها مأخوذ بوزرها قد استحق اللوم من وجوه لا تخفى على ذى لب ﴿ منها ﴾ سوء ظنه بخالقه انه لا يرزقهم الا من جهته وقد قيل قتل القنوط صاحبه وفى حسن الظن بالله راحة القلوب وقال عبد الحميد كيف تبقى على حالتك والدهر فى احالتك ﴿ ومنها ﴾ الثقة ببقاء ذلك على ولده مع نوائب الزمان ومصائبه وقد قيل الدهر حسود لا يأتى على شئ الا غيره وقيل فى منثور الحكم المال ملول وقال بعض الحكماء الدنيا ان بقيت لك لا تبقى لها ﴿ ومنها ﴾ ما حرم من منافع ماله وسلب من وفور حاله وقد قيل انما مالك لك او للوارث او للجائحة فلا تكن اشقى الثلاثة وقال عبد الحميد اطرح كواذب آمالك وكن وارث مالك ﴿ ومنها ﴾ ما لحقه من شقاء جمعه ونا له من عناء كده

حتى صار ساعيا محروما وجاهدا مذموما وقد قيل رب مغبوط بمسرة هى داؤه ومرحوم من سقم هو شفاؤه وقال الشاعر

* ومن كلفته النفس فوق كفافها * فما ينقضى حتى الممات عناؤه *

﴿ ومنها ﴾ ما يؤاخذ به من وزره واثامه ويحاسب عليه من تبعاته واجرامه وقد حكى ان هشام بن عبد الملك لما ثقل بكاء ولده عليه قال لهم جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء وترك لكم ما كسب وتركتم عليه ما اكتسب ما اسوأ حال هشام ان لم يغفر الله له فاخذ هذا المعنى محمود الوراق فقال

* تمتع بمالك قبل المما * ت والا فلا مال ان انت متا *

* شقيت به ثم خلفته * لغيرك بعدا وسحقا ومقتا *

* فجادوا عليك بزور البكا * ء وجدت عليهم بما قد جمعتا *

* وارهنتهم كل ما فى يديك وخلوك رهنا بما قد كسبتا *

وروى ان العباس بن عبد المطلب جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ولنى فقال النبى صلى الله عليه وسلم يا عباس يا عم النبى صلى الله عليه وسلم قليل يكفيك خير من كثير يرديك يا عباس يا عم النبى نفس تحييها خير من امارة لا تحصيها يا عباس يا عم النبى صلى الله عليه وسلم ان الامارة اولها ندامة واوسطها ملامة وآخرها خزى يوم القيامة فقال يا رسول الله الامن عدل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تعدلون مع الاقارب وقال رجل للحسن البصرى رحمه الله انى اخاف الموت واكرهه فقال انك خلفت مالك ولو قدمته لسرك اللحوق به وقيل فى منثور الحكم كثرة مال الميت تعزى ورثته عنه فاخذ هذا المعنى ابن الرومى فقال وزاد

* ابقيت مالك ميراثا لوارثه * فليت شعرى ما ابقى لك المال *

* القوم بعدك فى حال تسرهم * فكيف بعدهم حالت بك الحال *

* ملوا البكاء فما يبكيك من احد * واستحكم القول فى الميراث والقال *

* والتهم عنك دنيا اقبلت لهم * وادبرت عنك والايام احوال *

والسبب الرابع ان يجمع المال ويطلبه استحلالا لجمعه وشغفا باحترامه فهذا اسوأ الناس حالا فيه واشدهم حزنا له قد توجهت اليه سائر الملاوم حتى

صار وبالا عليه ومذام وفى مثله قال الله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم فقال النبى صلى الله عليه وسلم تبا للذهب تبا للفضة فشق ذلك على اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا اى مال نتخذ فقال عمر رضى الله عنه انا اعلم لكم ذلك فقال يا رسول الله ان اصحابك قد شق عليهم فقالوا اى مال نتخذ فقال لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة مؤمنة تعين احدكم على دينه وروى شهر بن حوشب عن ابى امامة قال مات رجل من اهل الصفة فوجد فى مئزره دينار فقال النبى صلى الله عليه وسلم كية ثم مات آخر فوجد فى مئزره ديناران فقال صلى الله عليه وسلم كيتان وانما ذكر ذلك فيهما وان كان قد مات على عهده من ترك اموالا جمة واحوالا ضخمة فلم يكن فيه ما كان فى هذين لانهما تظاهرا بالقناعة واحتجنا ما ليس بهما اليه حاجة فصار ما احتجناه وزرا عليهما وعقابا لهما وقد قال الشاعر

اذا كنت ذا مال ولم تك ذا ندى * فانت اذا والمقترون سواء
على ان فى الاموال يوما تباعة * على اهلها والمقترون براء

﴿ وانشدت عن الربيع للشافعى رضى الله عنه ﴾

ان الذى رزق اليسار ولم يصب * حمدا ولا اجرا لغير موفق
والجد يدنى كل شئ شاسع * والجد يفتح كل باب مغلق
واحق خلق الله بالهم امرؤ * ذو همة عليا وعيش ضيق
ومن الدليل على القضاء وكونه * بؤس اللبيب وطيب عيش الاحمق
فاذا سمعت بان مجدودا حوى * عودا فاورق فى يديه فحقق
واذا سمعت بان محذولا اتى * ماء ليشربه فجف فصدق

اللب العقل تقول لبيب ذو لب والجد فى اللغة الحظ وهو البخت والجد ايضا العظمة ومنه قوله تعالى وانه تعالى جد ربنا والجد مصدر جد الشئ اذا قطع والجد بالكسر الانكماش فى الامور اى الاجتهاد فيها وهو ايضا الحق ضد الهزل وبالحاء اذا منع الرزق ومجد مجدود لا يقال فيهما الا بما لم يسم فاعله وآفة من بلى بالجمع والاستكثار ومنى بالامساك والادخار حتى انصرف عن رشده فغوى

وانحرف عن سنن قصده فهوى ان يستولى عليه حب المال و بعد الامل فيبعثه المال على الحرص فى طلبه ويدعوه بعد الامل على الشح به والحرص والشح اصل لكل ذم وسبب لكل لؤم لان الشح يمنع من اداء الحقوق ويبعث على القطيعة والعقوق ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم شر ما اعطى العبد شح هالع وجبن خالع وقال بعض الحكماء الغنى البخيل كالقوى الجبان واما الحرص فيسلب فضائل النفس لاستيلائه عليها ويمنع من التوفر على العبادة لتشاغله عنها ويبعث على التورط فى الشبهات لقلة تحرزه منها وهذه الثلاث خصال هن جامعات الرذائل سالبات الفضائل مع ان الحريص لا يستزيد بحرصه زيادة على رزقه سوى اذلال نفسه واسخاط خالقه وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الحريص الجاهد والقنوع الزائد يستوفيان اكلهما غير منتقص منه شئ فعلام التهافت فى النار وقال بعض الحكماء الحرص مفسدة للدين والمروءة والله ما عرفت من وجه رجل حرصا فرأيت ان فيه مصطنعا وقال آخر الحريص اسير مهانة لا تفك اسره وقال بعض البلغاء المقادير الغالبة لا تنال بالمغالبة والارزاق المكتوبة لا تنال بالشدة والمطالبة فذلل للمقادير نفسك واعلم بانك غير نائل بالحرص الا حظك وقال بعض الادباء رب حظ ادركه غير طالبه ودر احرزه غير جالبه وانشدنى بعض اهل الادب لمحمد بن حازم

* يا اسير الطمع الكاذب فى غل الهوان *
* ان عز اليأس خير * لك من ذل الامانى *
* سامح الدهر اذا عز وخذ صفو الزمان *
* انما اعدم ذو الحرص * واثرى ذو التوانى *

وليس للحريص غاية مقصودة يقف عندها ولا نهاية محدودة يقنع بها لانه اذا وصل بالحرص الى ما امل اغراه ذلك بزيادة الحرص والامل وان لم يصل رأى اضاعة الغنى لؤما والصبر عليه حزما وصار بما سلف من رجائه اقوى رجاء وابسط املا وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال يشيب ابن آدم ويبقى معه خصلتان الحرص والامل وقيل للمسيح عليه السلام ما بال المشايخ احرص على الدنيا من الشباب قال لانهم ذاقوا من طعم الدنيا ما لم يذقه الشباب ولو

صدق الحريص نفسه واستنصح عقله لعلم ان من تمام السعادة وحسن التوفيق الرضاء بالقضا والقناعة بالقسم وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اقتصدوا فى الطلب فان ما رزقتموه اشد طلبا لكم منكم وما حرمتموه فلن تنالوه ولو حرصتم وروى ان جبريل على نبينا وعليه السلام هبط على النبى صلى الله عليه وسلم فقال ان الله تبارك وتعالى يقرأ عليك السلام ويقول لك اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم لا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وابقى فامر النبى صلى الله عليه وسلم منادیا ينادى من لم يتأدب بادب الله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات وقيل مكتوب فى بعض الكتب ردوا ابصاركم عليكم فان لكم فيها شغلا وقال مجاهد فى تأويل قوله تعالى ولنحيينه حياة طيبة قال بالقناعة وقال اكثم بن صيفى من باع الحرص بالقناعة ظفر بالغنى والثروة وقال بعض السلف قد يخيب الجاهد الساعى ويظفر الوادع الهادى فاخذه البحترى فقال

* لم الق مقدورا على استحقاقه * فى الحظ اما ناقصا او زائدا *
* وعجبت للمجهود يحرم ناصبا * كلفا وللمجدود يغنم قاعدا *
* ما خطب من حرم الارادة قاعدا * خطب الذى حرم الارادة جاهدا *

وقال بعض الحكماء ان من قنع كان غنيا وان كان مقترا ومن لم يقنع كان فقيرا وان كان مكثرا وقال بعض البلغاء اذا طلبت العز فاطلبه بالطاعة واذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة فمن اطاع الله عز وجل عز نصره ومن لزم القناعة زال فقره وقال بعض الادباء القناعة عز المعسر والصدقة حرز الموسر وقال بعض الادباء

* انى ارى من له قنوع * يدرك ما نال او تمنى *
* والرزق يأتى بلا عناء * وربما فات من تعنى *

والقناعة قد تكون على ثلاثة اوجه فالوجه الاول ان يقنع بالبلغة من دنياه ويصرف نفسه عن التعرض لما سواه وهذا اعلى منازل القناعة وقال الشاعر

* اذا شئت ان تحيى غنيا فلا تكن * على حالة الا رضيت بدونها *

وقال مالك بن دينار ازهد الناس من لا تتجاوز رغبته من الدنيا بلغته وقال بعض

الحكماء الرضى بالكفاف يؤدى الى العفاف وقال بعض الادباء يا رب ضيق افضل من سعة وعناء خير من دعة وانشدنى بعض اهل الادب وذكر انه لعلى بن ابى طالب كرم الله وجهه

* افادتنا القناعة اىّ عز * واىّ غنى اعز من القناعه *
* فصيرها لنفسك رأس مال * وصير بعدها التقوى بضاعه *
* تحرز حين تغنى عن بخيل * وتنعم فى الجنان بصبر ساعه *

والوجه الثانى ان تنتهى به القناعة الى الكفاية ويحذف الفضول والزيادة وهذه اوسط حال المقتنع وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ما من عبد الا بينه وبين رزقه حجاب فان قنع واقتصد اتاه رزقه وان هتك الحجاب لم يزد فى رزقه وقال بعض الحكماء ما فوق الكفاف اسراف وقال بعض البلغاء من رضى بالمقدور قنع بالميسور وقال البحترى

* تطلب الاكثر فى الدنيا وقد * تبلغ الحاجة منها بالاقل *

﴿ وانشدت لابراهيم بن المدبر ﴾

* ان القناعة والعفا * ف ليغنيان عن الغنى *
* فاذا صبرت عن المنى * فاشكر فقد نلت المنى *

والوجه الثالث ان تنتهى به القناعة الى الوقوف على ما سنح فلا يكره ما اتاه وان كان كثيرا ولا يطلب ما تعذر وان كان يسيرا وهذه الحال ادنى منازل اهل القناعة لانها مشتركة بين رغبة ورهبة اما الرغبة فلانه لا يكره الزيادة على الكفاية اذا سنحت واما الرهبة فلانه لا يطلب المتعذر عن نقصان المادة اذا تعذرت وفى مثله قال ذو النون رحمة الله عليه من كانت قناعته سمينة طابت له كل مرقة وقد روى الحسن بن على عن ابيه عن جده رضى الله عنهم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا دول فما كان منها لك اتاك على ضعفك وما كان منها عليك لم تدفعه بقوتك ومن انقطع رجاؤه مما فات استراح بدنه ومن رضى بما رزقه الله تعالى قرت عينه وقال ابو حازم الاعرج وجدت شيئين شيئا هو لى لن اعجله قبل اجله ولو طلبته بقوة السموات والارض وشيئا هو لغيرى وذلك مما لم انله فيما مضى ولا اناله فيما بقى يمنع الذى لى من غيرى

كما يمنع الذى لغيرى منى ففى اى هذين افنى عمرى واهلك نفسى وقال ابو تمام الطائى

* لا تأخذونى بالزمان وليس لى * تبعا ولست على الزمان كفيلا *
* من كان مرعى عزمه وهمومه * روض الامانى لم يزل مهزولا *
* لوجار سلطان القنوع وحكمه * فى الخلق ما كان القليل قليلا *
* الرزق لا تكمد عليه فانه * يأتى ولم تبعث عليه رسولا *

﴿ وانشدنى بعض اهل الادب لابن الرومى ﴾

* جرى قلم القضاء بما يكون * فسيان التحرك والسكون *
* جنون منك ان تسعى لرزق * ويرزق فى غشاوته الجنين *

ونحن نسأل الله تعالى اكرم مسئول وافضل مأمول ان يحسن الينا التوفيق فيما منح و يصرف عنا الرغبة فيما منع استكفافا لتبعات الثروة وموبقات الشهوة روى شريك بن ابى نمر عن ابى الجذع عن اعمامه واجداده عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال خير امتى الذين لم يعطوا حتى ينظروا ولم يقتروا حتى يسألوا وقال ابو تمام الطائى

* عندى من الايام ما لو انه * اضحى بشارب مرقد ما غمضا *
* لا تطلبن الرزق بعد شماسه * فترومه شبعا اذا ما غيضا *
* ما عوض الصبر امرؤ الا رأى * ما فاته دون الذى قد عوضا *

﴿ باب ادب النفس وهو الخامس من الكتاب ﴾

اعلم ان النفس مجبولة على شيم مهملة واخلاق مرسلة لا يستغنى محمودها عن التأديب ولا يكتفى بالمرضى منها عن التهذيب لان لمحمودها اضدادا مقابلة يسعدها هوى مطاع وشهوة غالبة فان اغفل تأديبها تفويضا الى العقل او توكلا على ان تنقاد الى الاحسن بالطبع اعدمه التفويض درك المجتهدين واعقبه التوكل ندم الخائبين فصار من الادب عاطلا وفى صورة الجهل داخلا لان الادب مكتسب بالتجربة او مستحسن بالعادة ولكل قوم مواضعة وذلك لا ينال بتوقيف العقل ولا بالانقياد للطبع حتى يكتسب بالتجربة والمعاناة ويستفاد

بالدربة والمعاطاة ثم يكون العقل عليه قيما وزكى الطبع اليه مسلما ولو كان العقل مغنيا عن الادب لكان انبياء الله تعالى عن ادبه مستغنين و بعقولهم مكتفين وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال بعثت لاتمم مكارم الاخلاق وقيل لعيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام من ادبك قال ما ادبنى احد ولكنى رأيت جهل الجاهل فجانبته وقال على بن ابى طالب رضى الله عنه ان الله تعالى جعل مكارم الاخلاق ومحاسنها وصلا بينه وبينكم فحسب الرجل ان يتصل من الله تعالى بخلق منها وقال ازدشير بن بابك من فضيلة الادب انه ممدوح بكل لسان ومتزين به فى كل مكان وباق ذكره على ايام الزمان وقال مهبود شبه العالم الشريف القديم الادب بالبنيان الخراب الذى كل ما علا سمكه كان اشد لوحشته وبالنهر اليابس الذى كل ما كان اعرض واعمق كان اشد لوعورته وبالارض الجيدة المعطلة التى كلما طال خرابها ازداد نباتها غير المنتفع به التفافا وصار للهوام مسكنا وقال ابن المقفع ما نحن الى ما نتقوى به على حواسنا من المطعم والمشرب باحوج منا الى الادب الذى هو لقاح عقولنا فان الحبة المدفونة فى الثرى لا تقدر ان تطلع زهرتها ونضارتها الا بالماء الذى يعود اليها من مستودعها وحكى الاصمعى رحمه الله تعالى ان اعرابيا قال لابنه يا بنى الادب دعامة ايد الله بها الالباب وحلية زين الله بها عواطل الاحساب فالعاقل لا يستغنى وان صحت غريزته عن الادب المخرج زهرته كما لا تستغنى الارض وان عذبت تربتها عن الماء المخرج ثمرتها وقال بعض الحكماء الادب صورة العقل فصور عقلك كيف شئت وقال آخر العقل بلا ادب كالشجر العاقر ومع الادب كالشجر المثمر وقيل الادب احد المنصبين وقال بعض البلغاء الفضل بالعقل والادب لا بالاصل والحسب لان من ساء اليه ضاع نسبه ومن قل عقله ضل اصله وقال بعض الادباء ذك قلبك بالادب كما تذكى النار بالحطب واتخذ الادب غنما والحرص عليه حظا يرتجيك راغب ويخاف صولتك راهب ويؤمل نفعك ويرجى عدلك وقال بعض العلماء الادب وسيلة الى كل فضيلة وذريعة الى كل شريعة وقال بعض الفصحاء الادب يستر قبيح النسب وقال بعض الشعراء فيه

* فما خلق الله مثل العقو * ل ولا اكتسب الناس مثل الادب *
* وما كرم المرء الا التقى * ولا حسب المرء الا النسب *
* وفى العلم زين لاهل الحجا * وآفة ذى الحلم طيش الغضب *

وانشد الاصمعى رحمه الله

* وان يك العقل مولودا فلست ارى * ذا العقل مستغنيا عن حادث الادب *
* انى رأيتهما كالماء مختلطا * بالترب تظهر منه زهرة العشب *
* وكل من اخطأته فى موالده * غريزة العقل حاكى البهم فى الحسب *

والتأديب يلزم من وجهين احدهما ما لزم الوالد لولده فى صغره والثانى ما لزم الانسان فى نفسه عند نشوه وكبره فاما التأديب اللازم للاب فهو ان يأخذ ولده بمبادى الآداب ليأنس بها وينشو عليها فيسهل عليه قبولها عند الكبر لاستئناسه بمباديها فى الصغر لان نشو الصغير على الشئ يجعله متطبعا به ومن اغفل فى الصغر كان تأديبه فى الكبر عسيرا وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ما نحل والد ولده نحلة افضل من ادب حسن يفيده اياه او جهل قبيح يكفه عنه ويمنعه منه وقال بعض الحكماء بادروا بتأديب الاطفال قبل تراكم الاشغال وتفرق البال وقال بعض الشعراء

* ان الغصون اذا قومتها اعتدلت * ولا يلين اذا قومته الخشب *
* قد ينفع الادب الاحداث فى صغر * وليس ينفع عند الشيبة الادب *

وقال آخر

* ينشو الصغير على ما كان والده * ان الاصول عليها تنبت الشجر *

واما الادب اللازم للانسان عند نشوه وكبره فادبان ادب مواضعة واصطلاح وادب رياضة واستصلاح فاما ادب المواضعة والاصطلاح فيؤخذ تقليدا على ما استقر عليه اصطلاح العقلاء واتفق عليه استحسان الادباء وليس لاصطلاحهم على وضعه تعليل مستنبط ولا لاتفاقهم على استحسانه دليل موجب كاصطلاحهم على مواضعات الخطاب واتفاقهم على هيئات اللباس حتى ان الانسان الآن اذا تجاوز ما اتفقوا عليه منها صار مجانبا للادب مستوجبا للذم

لان فراق المألوف فى العادة ومجانبة ما صار متفقا عليه بالمواضعة مفض الى استحقاق الذم بالعقل ما لم يكن لمخالفته علة ظاهرة ومعنى حادث وقد كان جائزا فى العقل ان يوضع ذلك على غير ما اتفقوا عليه فيرونه حسنا ويرون ما سواه قبيحا فصار هذا مشاركا لما وجب بالعقل من حيث توجه الذم على تاركه ومخالفا له من حيث انه كان جائزا فى العقل ان يوضع على خلافه واما ادب الرياضة والاستصلاح فهو ما كان محمولا على حال لا يجوز فى العقل ان يكون بخلافها ولا ان تختلف العقلاء فى صلاحها وفسادها وما كان كذلك فتعليله بالعقل مستنبط ووضوح صحته بالدليل مرتبط وللنفس على ما يأتى من ذلك شاهد ألهمها الله تعالى ارشادا لها قال الله تعالى فالهمها فجورها وتقواها قال ابن عباس رضى الله عنه بين لها ما تأتى من الخير وتذر من الشر وسنذكر تعليل كل شئ فى موضعه فانه اولى به واحق فاول مقدمات ادب الرياضة والاستصلاح ان لا يسبق الى حسن الظن بنفسه فيخفى عنه مذموم شيمه ومساوى اخلاقه لان النفوس بالشهوات آمرة وعن الرشد زاجرة وقد قال الله تعالى ان النفس لامارة بالسوء وقال صلى الله عليه وسلم اعدى اعدائك نفسك التى بين جنبيك ثم اهلك ثم عيالك ودعت اعرابية لرجل فقالت كبت الله كل عدو لك الا نفسك فاخذه بعض الشعراء فقال

* قلبى الى ما ضرنى داعى * يكثر اسقامى واوجاعى *
* كيف احتراسى من عدوى اذا * كان عدوى بين اضلاعى *

فاذا كانت النفس كذلك فحسن الظن بها ذريعة الى تحكيمها وتحكيمها داع الى سلاطتها وفساد الاخلاق بها فاذا صرف حسن الظن عنها وتوسمها بما هى عليه من التسويف والمكر فاز بطاعتها وانحاز عن معصيتها وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه العاجز من عجز عن سياسة نفسه وقال بعض الحكماء من ساس نفسه ساد ناسه فاما سوء الظن بها فقد اختلف الناس فيه فنهم من كرهه لما فيه من اتهام طاعتها ورد مناصحتها فان النفس وان كان لها مكر يردى فلها نصح يهدى فلما كان حسن الظن بها يعمى عن محاسنها ومن عمى عن محاسن نفسه كان كمن عمى عن

مساويها فلم ينف عنهـا قبيحـا ولم يهد اليهـا حسنـا وقد قال الجـاحظ فى كتاب البيان يجب ان يكون فى التهمة لنفسه معتدلا و فى حسن الظن بهـا مقتصـدا فانه ان تجاوز مقدار الحق فى التهمة ظلمهـا فاودعها ذلة المظلومين وان تجاوز بها الحق فى مقدار حسن الظن اودعها تهاون الآمنين ولكل ذلك مقدار من الشغل ولكل شغل مقدار من الوهن ولكل وهن مقدار من الجهل وقال الاحنف بن قيس من ظلم نفسه كان لغيره اظلم ومن هدم دينـه كان لمجده اهدم وذهب قوم الى ان سوء الظن بها ابلغ فى صلاحها واوفر فى اجتهادها لان للنفس جورا لا ينفك الا بالسخط عليهـا وغرورا لا ينكشف الا بالتهمة لها لانها محبوبة تجور ادلالا وتغر مكرا فان لم يسئ الظن بهـا غلب عليه جورهـا وعمى عليه غرورها فصار بميسورها قانعا و بالشبهة من افعالها راضيا وقد قالت الحكماء من رضى عن نفسه اسخط عليه الناس وقال كشاجم

* لم ارض عن نفسى مخافة سخطها * ورضى الفتى عن نفسه اغضابها *
* ولو اننى عنها رضيت لقصرت * عمـا تزيد بمثـله آدابهـا *
* وتبينت آثار ذاك فاكثرت * عذلى عليه فطال فيه عتابهـا *

﴿ وقد استحسن قول ابى تمام الطائى ﴾

* ويسئ بالاحسان ظنا لا كمن * هو بابنـه و بشعره مفتون *

فلم يروا اسـاءة ظنه بالاحسـان ذما و لا استقلال عمله لوما بل رأوا ذلك ابلغ فى الفضل و ابعث على الازدياد فاذا عرف من نفسه ما تجن وتصور منهـا ما تكن ولم يطاوعها فيما تحب اذا كان غيا ولا صرف عنها ما تكره اذا كان رشدا فقد ملكها بعد ان كان فى ملكهـا وغلبها بعد ان كان فى غلبهـا وقد روى ابو حازم عن ابى هريرة رضى الله عنـه قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم الشديد من غلب نفسه وقال عون بن عبد الله اذا عصتك نفسك فيمـا كرهت فلا تطعها فيمـا احبت ولا يغرنك ثنـاء من جهل امرك وقال بعض البلغاء من قوى على نفسه تناهى فى القوة ومن صبر عن شهوته بالغ فى المروة فحينئذ يأخذ نفسه عند معرفة ما اكنت وخبرة ما اجنت بتقويم عوجهـا

واصلاح فاسدها وقد روى عن عائشة رضى الله عنها انها قالت يا رسول الله متى يعرف الانسان ربه قال اذا عرف نفسه ثم يراعى منها ما صلح واستقام من زيغ يحدث عن اغفال او ميل يكون عن اهمال ليتم له الصلاح وتستديم له السعادة فان المغفل بعد المعاناة ضائع والمهمل بعد المراعاة زائع وسنذكر من احوال ادب الرياضة والاستصلاح فصولا تحتوى على ما يلزم مراعاته من الاخلاق ويجب معاناته من الادب وهى ستة فصول متفرعة ﴿ الفصل الاول ﴾ فى مجانبة الكبر والاعجاب لانهما يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل وليس لمن استوليا عليه اصغاء لنصح ولا قبول لتأديب لان الكبر يكون بالمنزلة والعجب يكون بالفضيلة فالمتكبر يجل نفسه عن رتبة المتعلمين والمعجب يستكثر فضله عن استزادة المتأدبين فلذلك وجب تقديم القول فيهما بابانة ما يكسبانه من ذم ويوجبانه من لوم ﴿ فنقول ﴾ اما الكبر فيكسب المقت ويلهى عن التألف ويوغر صدور الاخوان وحسبك بذلك سوءا عن استقصاء ذمه ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم لعمه العباس انهاك عن الشرك بالله والكبر فان الله يحتجب منهما وقال ازدشير بن بابك ما الكبر الا فضل حمق لم يدر صاحبه اين يذهب به فيصرفه الى الكبر وما اشبه ما قال بالحق وحكى ان مطرف بن عبد الله بن الشخير نظر الى المهلب بن ابى صفرة وعليه حلة يسحبها ويمشى الخيلاء فقال يا ابا عبد الله ما هذه المشية التى يبغضها الله ورسوله فقال المهلب أما تعرفنى فقال بل اعرفك اولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة فاخذ ابن عوف هذا الكلام فنظمه شعرا فقال

* عجبت من معجب بصورته * وكان بالامس نطفة مذره *
* وفى غد بعد حسن صورته * يصير فى اللحد جيفة قذره *
* وهو على تيهه ونخوته * ما بين ثوبيه يحمل العذره *

وقد كان المهلب افضل من ان يخدع نفسه بهذا الجواب الغير صواب ولكنها زلة من زلات الاسترسال وخطيئة من خطايا الادلال فاما الحمق الصريح والجهل القبيح فهو ما حكى عن نافع بن جبير بن مطعم انه جلس فى حلقة العلاء بن

عبدالرحمن الحرقى وهو يقرئ الناس فلما فرغ قال أتدرون لم جلست اليكم قالوا جلست لتسمع قال لا ولكنى اردت ان اتواضع لله بالجلوس اليكم فهل يرجى من هذا فضل او ينفع فيه عذل وقد قال ابن المعتز لما عرف اهل النقص حالهم عند ذوى الكمال استعانوا بالكبر ليعظم صغيرا ويرفع حقيرا وليس بفاعل واما الاعجاب فيخفى المحاسن ويظهر المساوى ويكسب المذام ويصد عن الفضائل وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان العجب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب وقال على بن ابى طالب كرم الله وجهه الاعجاب ضد الصواب وآفة الالباب وقال بزرجمهر النعمة التى لا يحسد صاحبها عليها التواضع والبلاء الذى لا يرحم صاحبه منه العجب وقال بعض الحكماء عجب المرء بنفسه احد حساد عقله وليس الى ما يكسبه الكبر من المقت حد ولا الى ما ينتهى اليه العجب من الجهل غاية حتى انه ايطفئ من المحاسن ما انتشر ويسلب من الفضائل ما اشتهر وناهيك بسيئة تحبط كل حسنة وبمذمة تهدم كل فضيلة مع ما يثيره من حنق ويكسبه من حقد حكى عمر بن حفص قال قيل للحجاج كيف وجدت منزلك بالعراق قال خير منزل لو كان الله بلغنى قتل اربعة فتقربت اليه بدمائهم ولما ولى مقاتل بن مسمع سجستان اتاه الناس فاعطاهم الاموال فلما عزل دخل مسجد البصرة فبسط الناس له اردينهم فمشى عليها وقال لرجل يماشيه لمثل هذا فليعمل العاملون وعبد الله بن زياد بن ظبيان التيمى خوف اهل البصرة امر فخطب خطبة اوجز فيها فنادى الناس من اعراض المسجد اكثر الله فينا مثلك فقال لقد كلفتم الله شططا ومعبد بن زراعة كان ذات يوم جالسا فى طريق فمرت به امرأة فقالت له يا عبدالله كيف الطريق الى موضع كذا فقال ياهناه مثلى يكون من عبيد الله وابو شمال الاسدى اضل راحلته فالتمسها الناس فلم يجدوها فقال والله ان لم يرد الىّ راحلتى لا صليت له صلاة ابدا فالتمسها الناس فوجدوها فقالوا له قد رد الله راحلتك فصلّ فقال ان يمينى يمين مصر فانظر الى هؤلاء كيف افضى بهم العجب الى حمق صاروا به نكالا فى الاولين ومثلا فى الآخرين ولو تصور المعجب المتكبر ما فطر عليه من جبلة وبلى به من مهنة لخفض جناح نفسه واستبدل لينا من عتوه وسكونا من نفوره وقال

الاحنف بن قيس عجبت لمن جرى فى مجرى البول مرتين كيف يتكبر وقد وصف بعض الشعرآء الانسان فقال

* يا مظهر الكبر اعجابا بصورته * انظر خلاك فان النتن تثريب *
* لو فكر الناس فيما فى بطونهم * ما استشعر الكبر شبان ولا شيب *
* هل فى ابن آدم مثل الرأس مكرمة * وهو بخمس من الاقذار مضروب *
* انف يسيل واذن ريحها سهك * والعين مرفضة والثغر ملعوب *
* يا ابن التراب ومأكول التراب غدا * أقصر فانك مأكول ومشروب *

واحق من كان للكبر مجانبا وللاعجاب مباينا من جل فى الدنيا قدره وعظم فيها خطره لانه قد يستقل بعالى همته كل كثير و يستصغر معها كل كبير و قال محمد ابن على لا ينبغى للشريف ان يرى شيئا من الدنيا لنفسه خطيرا فيكون بها تابها وقال ابن السماك لعيسى بن موسى تواضعك فى شرفك اشرف لك من شرفك وكان يقال اسمان متضادان بمعنى واحد التواضع والشرف • وللكبر اسباب فمن اقوى اسبابه علو اليد ونفوذ الامر وقلة مخالطة الاكفاء وحكى ان قوما مشوا خلف على بن ابى طالب رضى الله عنه فقال أبعدوا عنى خفق نعالكم فانها مفسدة لقلوب نوكى الرجال ومشوا خلف ابن مسعود فقال ارجعوا فانها زلة للتابع وفتنة للمتبوع وروى قيس بن حازم ان رجلا اتى به للنبى صلى الله عليه وسلم فاصابته رعدة فقال له صلى الله عليه وسلم هون عليك فانما انا ابن امرأة كانت تأكل القديد وانما قال ذلك صلى الله عليه وسلم حسما لمواد الكبر وقطعا لذرائع الاعجاب وكسرا لاشر النفس وتذليلا لسطوة الاستعلاء ومثل ذلك ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه نادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس صعد المنبر فحمد الله واثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال ايها الناس لقد رأيتنى ارعى على خالات لى من بنى مخزوم فيقبض لى القبضة من التمر والزبيب فاظل اليوم واى يوم فقال له عبد الرحمن بن عوف والله ياامير المؤمنين ما زدت على ان قصرت بنفسك فقال عمر رضى الله عنه ويحك يا ابن عوف انى خلوت فحدثتنى نفسى فقالت انت امير المؤمنين فمن ذا افضل منك فاردت ان اعرفها نفسها •

وللاعجاب اسباب فمن اقوى اسبابه كثرة مديح المتقربين واطراء المتملقين الذين جعلوا النفاق عادة ومكسبا والتملق خديعة وملعبا فاذا وجدوه مقبولا فى العقول الضعيفة اغروا اربابها باعتقاد كذبهم وجعلوا ذلك ذريعة الى الاستهزاء بهم وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه سمع رجلا يزكى رجلا فقال له قطعت مطاه لو سمعها ما افلح بعدها وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه المدح ذبح وقال ابن المقفع قابل المدح كمادح نفسه وقال بعض الحكماء من رضى ان يمدح بما ليس فيه فقد امكن الساخر منه وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اياكم والتمادح فانه الذبح ان كان احدكم مادحا اخاه لا محالة فليقل احسب ولا ازكى على الله احدا وقيل فيما انزل الله عز وجل من الكتب السالفة عجبت لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح وعجبت لمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب وقال بعض الشعراء

* يا جاهلا غره افراط مادحه * لا يغلبن جهل من اطراك علمك بك *
* اثنى وقال بلا علم احاط به * وانت اعلم بالمحصول من ربك *

وهذا امر ينبغى للعاقل ان يضبط نفسه عن ان يستفزها ويمنعها من تصديق المدح لها فان للنفس ميلا لحب الثناء وسماع المدح وقال الشاعر

* يهوى الثناء مبرز ومقصر * حب الثناء طبيعة الانسان *

فاذا سامح نفسه فى مدح الصبوة وتابعها على هذه الشهوة تشاغل بها عن الفضائل الممدوحة ولها بها عن المحاسن الممنوحة فصار الظاهر من مدحه كذبا والباطن من ذمه صدقا وعند تقابلهما يكون الصدق الزم الامرين وهذه خدعة لا يرتضيها عاقل ولا ينخدع بها مميز وليعلم ان المتقرب بالمدح يسرف مع القبول ويكف مع الاباء فلا يغلبه حسن الظن على تصديق مدح هو اعرف بحقيقته وليكن تهمة المادح اغلب عليه فقل مدح كان جميعه صدقا وقل ثناء كان كله حقا ولذلك كره اهل الفضل ان يطلقوا السنتهم بالثناء والمدح تحرزا من التجاوز فيه وتنزيها عن التملق به وقد روى مكحول قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكونوا عيابين ولا تكونوا لعانين ولا متمادحين ولا متماوتين وحكى الاصمعى ان ابا بكر الصديق رضى الله عنه كان اذا مدح قال اللهم انت

اعلم بى من نفسى وانا اعلم بنفسى منهم اللهم اجعلنى خيرا مما يحسبون واغفرلى ما لا يعلمون ولا تؤاخذنى بما يقولون وقال بعض الشعراء

* اذا المرء لم يمدحه حسن فعاله * فمادحه يهذى وان كان مفصحا *

وربما ألجأ حب المدح بصاحبه الى ان يصير مادح نفسه اما لتوهمه ان الناس قد غفلوا عن فضله واخلوا بحقه واما ليخدعهم بتدليس نفسه بالمدح والاطراء فيعتقدون ان قوله حق متبع وصدق مستمع واما لتلذذه بسماع الثناء وسرور نفسه بالمدح والاطراء كما يتغنى بنفسه طربا اذا لم يسمع صوتا مطربا ولا غناء ممتعا ولاى ذلك كان فهو الجهل الصريح والنقص الفضيح وقد قال بعض الشعراء

* وما شرف ان يمدح المرء نفسه * ولكن اعمالا تذم وتمدح *
* وما كل حين يصدق المرء ظنه * ولا كل اصحاب التجارة يربح *
* ولا كل من ترجو لغيبك حافظ * ولا كل من ضم الوديعة يصلح *

وينبغى للعاقل ان يسترشد اخوان الصدق الذين هم اصفياء القلوب ومرايا المحاسن والعيوب على ما ينبهونه عليه من مساويه التى صرفه حسن الظن عنها فانهم امكن نظرا واسلم فكرا ويجعلون ما ينبهونه عليه من مساويه عوضا عن تصديق المدح فيه وقد روى انس بن مالك عن النبى الله عليه وسلم انه قال المؤمن مرآة المؤمن اذا رأى فيه عيبا اصلحه وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول رحم الله امراء اهدى الينا مساوينا وقيل لبعض الحكماء أتحب ان تهدى اليك عيوبك قال نعم من ناصح ومما يقارب معنى هذا القول ما روى عن عمر رضى الله عنه انه قال لابن عباس رضى الله عنهما من ترى ان نوليه حمص فقال رجلا صحيحا منك صحيحا لك قال تكون انت ذلك الرجل قال لا تنتفع بى مع سوء ظنى بك وسوء ظنك بى وقيل فى منثور الحكم من اظهر عيب نفسه فقد زكاها فاذا قطع اسباب الكبر وحسم مواد العجب اعتاض بالكبر تواضعا وبالعجب توددا وذلك من اوكد اسباب الكرامة واقوى مواد النعم وابلغ شافعا الى القلوب يعطفها الى المحبة ويثنيها على البغض وقال بعض الحكماء من برئ من ثلاث نال ثلاثا من برى من السرف نال العز ومن برئ من البخل نال الشرف ومن برئ من الكبر نال الكرامة وقال مصعب بن الزبير التواضع مصائد الشرف وقيل فى

منثور الحكم من دام تواضعه كثر صديقه وقد تحدث المنازل والولايات لقوم اخلاقا مذمومة يظهرها سوء طباعهم ولآخرين فضائل محمودة يبعث عليها زكاء شيمهم لان لتقلب الاحوال سكرة تظهر من الاخلاق مكنونها ومن السرائر مخزونها لا سيما اذا هجمت من غير تدريج وطرقت من غير تأهب وقد قال بعض الحكماء فى تقلب الاحوال تعرف جواهر الرجال وقال الفضل بن سهل من كانت ولايته فوق قدره تكبر لها ومن كانت ولايته دون قدره تواضع لها وقال بعض البلغاء الناس فى الولاية رجلان رجل يجل العمل بفضله ومروءته ورجل يجل بالعمل لنقصه ودناءته فمن جل عن عمله ازداد به تواضعا وبشرا ومن جل عنه عمله ازداد به تجبرا وتكبرا ﴿ الفصل الثانى فى حسن الخلق ﴾ روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله تعالى اختار لكم الاسلام دينا فأكرموه بحسن الخلق والسخاء فانه لا يكمل الا بهما وقال الاحنف بن قيس الا اخبركم بادوأ الداء قالوا بلى قال الخلق الدنى واللسان البذى وقال بعض الحكماء من ساء خلقه ضاق رزقه وعلة هذا القول ظاهرة وقال بعض البلغاء الحسن الخلق من نفسه فى راحة والناس منه فى سلامة والسئ الخلق الناس منه فى بلاء وهو من نفسه فى عناء وقال بعض الحكماء عاشر اهلك باحسن اخلاقك فان الثواء فيهم قليل وقال بعض الشعراء

* اذا لم تتسع اخلاق قوم * تضيق بهم فسيحات البلاد *
* اذا ما المرء لم يخلق لبيبا * فليس اللب عن قدم الولاد *

فاذا حسنت اخلاق الانسان كثر مصافوه وقل معادوه فتسهلت عليه الامور الصعاب ولانت له القلوب الغضاب وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال حسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان فى الاعمار وقال بعض الحكماء من سعة الاخلاق كنوز الارزاق وسبب ذلك ما ذكرنا من كثرة الاصفياء المسعدين وقلة الاعداء المجحفين ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم احبكم الىّ احسنكم اخلاقا الموطؤن اكنافا الذين يألفون ويؤلفون وحسن الخلق ان يكون سهل العريكة لين الجانب طليق الوجه قليل النفور طيب الكلمة وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الاوصاف فقال اهل الجنة كل هين لين سهل

طليق ولما ذكرنا هذه الاوصاف من حدود مقدرة ومواضع مستحقة كما قال الشاعر

* اصفو واكدر احيانا لمختبرى * وليس مستحسنا صفو بلا كدر *

وليس يريد بالكدر الذى هو البذاء وشراسة الخلق فان ذلك ذم لا يستحسن وعيب لا يرتضى وانما يريد الكف والانقباض فى موضع يلام فيه المساعد ويذم فيه الموافق فاذا كانت لمحاسن الاخلاق حدود مقدرة ومواضع مستحقة فان تجاوز بها الحد صارت ملقا وان عدل بها عن مواضعها صارت نفاقا والملق ذل والنفاق لؤم وليس لمن وسم بهما ود مبرور ولا اثر مشكور وقد روى حكيم عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشر الناس ذو الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه وروى مكحول عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينبغى لذى الوجهين ان يكون وجيها عند الله تعالى وقال سعيد بن عروة لان يكون لى نصف وجه ونصف لسان على ما فيهما من قبح المنظر وعجز المخبر احب الىّ من ان اكون ذا وجهين وذا لسانين وذا قولين مختلفين وقال الشاعر

* خل النفاق لاهله * وعليك فالتمس الطريقا *
* وارغب بنفسك ان ترى * الا عدوا او صديقا *

﴾ وقال ابراهيم بن محمد ﴿

* وكم من صديق وده بلسانه * خؤن بظهر الغيب لا يتذمم *
* يضاحكنى عجبا اذا ما لقيته * ويصدفنى منه اذا غبت اسهم *
* كذلك ذو الوجهين يرضيك شاهدا * وفى غيبه ان غاب صاب وعلقم *

وربما تغير حسن الخلق والوطاء الى الشراسة والبذاء لاسباب عارضة وامور طارئة تجعل اللين خشونة والوطاء غلظة والطلاقة عبوسا • فمن اسباب ذلك الولاية التى تحدث فى الاخلاق تغيرا وعلى الخلطاء تنكرا اما من لؤم طبع واما من ضيق صدر وقد قيل من تاه فى ولايته ذل فى عزله وقيل ذل العزل يضحك من تيه الولاية ومنها العزل فقد يسوء به الخلق ويضيق به الصدر اما لشدة اسف او لقلة صبر حكى حميد الطويل ان عمار بن ياسر عزل عن ولاية فاشتد ذلك عليه وقال انى وجدتها حلوة الرضاع مرة الفطام • ومنها الغنى فقد

تتغير

تتغير به اخلاق اللئيم بطرا وتسوء طرائقه اشرا وقد قيل من نال استطال وانشد الرياشي

* غضبان يعلم ان المال ساق له * ما لم يسقه له دين ولا خلق *
* فمن يكن عن كرام الناس يسألني * فاكرم الناس من كانت له ورق *

﴿ وقال بعض الشعراء ﴾

* فان تكن الدنيا انالتك ثروة * فاصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر *
* لقد كشف الاثراء منك خلائقا * من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر *

وبحسب ما افسده الغنى كذلك يصلحه الفقر وكتب قتيبة بن مسلم الى الحجاج ان اهل الشام قد التاثوا عليه فكتب اليه ان اقطع عنهم الارزاق ففعل فساءت حالهم فاجتمعوا اليه فقالوا أقلنا فكتب الى الحجاج فيهم فكتب اليه ان كنت انست منهم رشدا فأجر عليهم ما كنت تجرى واعلم ان الفقر جند الله الاكبر يذل به كل جبار عنيد متكبر وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لولا ان الله تعالى اذل ابن آدم بثلاث ما طأطأ رأسه لشئ الفقر والمرض والموت • ومنها الفقر فقد يتغير به الخلق اما انفة من ذل الاستكانة او اسفا على فائت الغنى ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم كاد الفقر ان يكون كفرا وكاد الحسد ان يغلب القدر وقال ابو تمام الطائي

* واعجب حالات ابن آدم خلقه * يضل اذا فكرت فى كنهه الفكر *
* فيفرح بالشئ القليل بقاؤه * ويجزع مما صار وهو له ذخر *

وربما تسلى من هذه الحالة بالاماني وان قل صدقها فقد قيل قل ما تصدق الامنية ولكن قد يعتاض بها سلوة من هم او مسرة برجاء وقد قال ابو العتاهية

* حرك مناك اذا اغتممت فانهن مراوح *

﴿ وقال آخر ﴾

* اذا تمنيت بت الليل مغتبطا * ان المنى راس اموال المفاليس *

ومنها الهموم التى تذهل اللب وتشغل القلب فلا تتبع الاحتمال ولا تقوى على صبر وقد قيل الهم كالسم وقال بعض الادباء الحزن كالداء المخزون فى فؤاد المحزون وقال بعض الشعراء

* همومك بالعيش مقرونة * فما تقطع العيش الا بهم *

* اذا تم امر بدا نقصه * ترقب زوالا اذا قيل تم *
* اذا كنت فى نعمة فارعها * فان المعاصى تزيل النعم *
* وحام عليها بشكر الاله فـان الاله سريع النقم *
* حلاوة دنياك مسمومة * فما تأكل الشهد الا بسم *
* فكم قـدر دب فى مهلة * فلم يعلم الناس حتى هجم *

ومنهـا الامراض التى يتغير بها الطابع كما يتغير بها الجسم فلا تبقى الاخلاق على اعتدال ولا يقدر معها على احتمال وقد قال المتنبى

* آلة العيش صحة وشباب * فاذا وليـا عن المرء ولى *
* واذا الشيخ قال اف فما مل حياة وانما الضعف ملا *
* واذا لم تجد من الناس كفؤا * ذات خدر ارادت الموت بعلا *
* ابدا تسترد ما تهب الدنيا فياليت جودها كان بخلا *

﴿ ومنها ﴾ علو السن وحدوث الهرم لتأثيره فى آلة الجسد كذلك يكون تأثيره فى اخلاق النفس فكما يضعف الجسد عن احتمال ما كان يطيقه من اثقال فكذلك تعجز النفس عن اثقال ما كانت تصبر عليه من مخالفة الوفاق ومضيق الشقاق وكذلك ما ضاهاه وقال منصور النمرى

* ما كنت اوفى شبابى كنه عزته * حتى مضى فاذا الدنيـا له تبع *
* اصبحت لم تطعمى ثكل الشباب ولم * تشجى لغصته فلعـذر لا يقـع *
* ما كان اقصر ايام الشـباب وما * ابقى حلاوة ذكراه التى تدع *
* ما واجه الشيب من عين وان رمقت * الا لهـا نبوة عنـه ومرتدع *
* قدكدت تقضى على فوت الشباب اسى * لولا يعزيك ان العمر منقطـع *

فهذه سبعة اسباب احدثت سوء خلق كان عاما وههنا سبب خاص يحدث سوء خلق خاص وهو البغض الذى تنفر منه النفس فتحدث نفورا على المبغض فيؤول الى سوء خلق يخصه دون غيره فاذا كان سوء الخلق حادثا بسبب كان زواله مقرونا بزوال ذلك السبب ثم بالضد ﴿ الفصل الثالث فى الحياء ﴾ اعلم

ان

ان الخير والشر معال كامنة تعرف بسمات دالة كما قالت العرب فى امثالها تخبر عن مجهولة مرآتها وكما قال عمر بن سلم الشاعر

* لا تسأل المرء عن خلائقه * فى وجهه شاهد من الخبر *

فسمة الخير الدعة والحياء وسمة الشر القحة والبذاء وكفى بالحياء خيرا ان يكون على الخير دليلا وكفى بالقحة والبذاء شرا ان يكونا الى الشر سبيلا وقد روى حسان بن عطية عن ابى امامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحياء والعىّ شعبتان من الايمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق ويشبه ان يكون العى فى معنى الصمت والبيان فى معنى التشادق كما جاء فى الحديث الآخر ان ابغضكم الىّ الثرثارون المتفيهقون المتشدقون وروى ابو سلمة عن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الحياء من الايمان والايمان فى الجنة والبذاء من الجفاء والجفاء فى النار وقال بعض الحكماء من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه وقال بعض البلغاء حياة الوجه بحيائه كما ان حياة الغرس بمائه وقال بعض البلغاء العلماء ياعجبا كيف لا تستحيى من كثرة ما لا تستحيى وتبقى من طول ما لا تبقى وقال بعض الشعراء وهو صالح بن عبد القدوس

* اذا قل ماء الوجه قل حياؤه * ولا خير فى وجه اذا قل ماؤه *

* حياؤك فاحفظه عليك وانما * يدل على فعل الكريم حياؤه *

وليس لمن سلب الحياء صاد عن قبيح ولا زاجر عن محظور فهو يقدم على ما يشاء ويأتى ما يهوى وبذلك جاء الخبر روى شعبة عن منصور بن ربعى عن ابى منصور البدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مما ادرك الناس من كلام النبوة الاولى يا ابن آدم اذا لم استحى فاصنع ما شئت وليس هذا القول اغراء بفعل المعاصى عند قلة الحياء كما توهمه بعض من جهل معانى الكلام ومواضعات الخطاب وفى مثل هذا الخبر قول الشاعر

* اذا لم تخش عاقبة الليالى * ولم تستحى فاصنع ما تشاء *

* فلا والله ما فى العيش خير * ولا الدنيا اذا ذهب الحياء *

* يعيش المرء ما استحيى بخير * ويبقى العود ما بقى اللحاء *

واختلف اهل العلم فى معنى هذا الخبر فقال ابو بكر بن محمد الشاشى فى اصول

الفقه معنى هـذا الحديث ان من لم يستحى دعاه ترك الحياء الى ان يعمل ما يشاء لا يردعه عنـه رادع فليستحى المرء فان الحيـاء يردعه وسمعت من يحكى عن ابى بكر الرازى من اصحاب ابى حنيفة ان المعنى فيه اذا عرضت عليك افعالك التى هممت بفعلها فلم تستحى منها لحسنها وجمالها فاصنع ما شئت منهـا فجعل الحياء حكما على افعاله وكلا القولين حسن والاول اشبه لان الكلام خرج من النبى صلى الله عليه وسلم مخرج الذم لا مخرج المدح لكن قد جاء الحديث بما يضاهى القول الثانى وهو قوله صلى الله عليه وسلم ما احببت ان تسمعه اذناك فأته وما كرهت ان تسمعه اذناك فاجتنبه ويجوز ان يحمل هذا الحديث على المعنى الصريح فيه ويكون التأويل الاول فى الحديث المتقدم اصح اذ ليس يلزم ان تكون احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها متفقة المعانى بل اختلاف معانيها ادخل فى الحكمة وابلغ فى الفصاحة اذا لم يضاد بعضها بعضـا واعلم ان الحيـاء فى الانسـان قد يكون من ثلاثة اوجه احدهـا حياؤه من الله تعـالى والثانى حياؤه من النـاس والثالث حيـاؤه من نفسه فاما حياؤه من الله تعـالى فيكون بامتثال اوامره والكف عن زواجره وروى ابن مسعود ان النبى صلى الله عليه وسلم قال استحيوا من الله عز وجل حق الحياء فقيل يا رسول الله فكيف نستحيي من الله عز وجل حق الحياء قال من حفظ الرأس وما حوى والبطن وما وعى وترك زينة الحياة الدنيا وذكر الموت والبلى فقد استحيي من الله عز وجل حق الحيا وهذا الحديث من ابلغ الوصايا وقال ابو الحسن المـاوردى مصنف الكتاب رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام ذات ليلة فقلت يا رسول الله اوصنى فقال استحى من الله عز وجل حق الحياء ثم قال تغير النـاس قلت وكيف ذلك يا رسول الله قال كنت انظر الى الصبى فارى من وجهه البشر والحياء وانا انظر اليه اليوم فلا ارى ذلك فى وجهه ثم تكلم بعد ذلك بوصـايا وعظات تصورتها واذهلنى السرور عن حفظهـا ووددت انى لو حفظتها فلم يبدأ بشئ صلى الله عليه وسلم قبل الوصية بالحياء من الله عز وجل وجعل ما سلبه الصبى من البشر والحياء سببا لتغير الناس وخص الصبى لان ما يأتيه بالطبع من غير تكلف فصلى الله وسلم على من هدى امته وتابع انذارها وقطع اعذارها واوصل تأديبهـا

وحفظ

وحفظ تهذيبها وجعل لكل عصر حظا من زواجره ونصيبا من اوامره اعاننا الله على قبولها بالعمل وعلى استدامتها بالتوفيق وقد روى ان علقمة بن علاثة قال يا رسول الله عظنى فقال النبى صلى الله عليه وسلم استحى من الله تعالى استحياءك من ذوى الهيبة من قومك وهذا الحياء يكون من قوة الدين وصحة اليقين ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم قلة الحياء كفر يعنى من الله لما فيه من مخالفة اوامره وقال صلى الله عليه وسلم الحياء نظام الايمان فاذا انحل نظام الشئ تبدد ما فيه وتفرق واما حياؤه من الناس فيكون بكف الاذى وترك المجاهرة بالقبيح وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من اتقى الله اتقى الناس وروى ان حذيفة بن اليمان اتى الجمعة فوجد الناس قد انصرفوا فتنكب الطريق عن الناس وقال لا خير فيمن لا يستحيي من الناس وقال بشار ابن برد

* ولقد اصرف الفؤاد عن الشئ حياء وحبه فى السواد *
* امسك النفس بالعفاف وامسى * ذاكرا فى غد حديث الاعادى *

وهذا النوع من الحياء قد يكون من كمال المروءة وحب الثناء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من ألقى جلباب الحياء فلا رغيبة له يعنى والله اعلم لقلة مروءته وظهور شهوته وروى الحسن عن ابى هريرة قال قال صلى الله عليه وسلم ان مروءة الرجل ممشاه ومدخله ومخرجه ومجلسه والفه وجليسه وقال بعض الشعراء

* ورب قبيحة ما حال بينى * وبين ركوبها الا الحياء *
* اذا رزق الفتى وجها وقاحا * تقلب فى الامور كما يشاء *

﴿ وقال آخر ﴾

* اذا لم تصن عرضا ولم تخش خالقا * وتستحى مخلوقا فما شئت فاصنع *

واما حياؤه من نفسه فيكون بالعفة وصيانة الخلوات وقال بعض الحكماء ليكن استحياؤك من نفسك اكثر من استحيائك من غيرك وقال بعض الادباء من عمل فى السر عملا يستحيي منه فى العلانية فليس لنفسه عنده قدر ودعا قوم رجلا كان يألف عشرتهم فلم يجبهم وقال انى دخلت البارحة فى الاربعين وانا استحيي من سنى وقال بعض الشعراء

* فسرى واعلانى وتلك خليقتى * وظلمة ليلى مثل ضوء نهارى *

وهـذا النوع من الحياء قد يكون من فضيلة النفس وحسن السريرة فتى كمل حياء الانسان من وجوهه الثلاثة فقد كملت فيه اسباب الخير وانتفت عنه اسباب الشر وصار بالفضل مشهورا وبالجميل مذكورا وقال بعض الشعراء

* وانى ليثنينى عن الجهل والحيا * وعن شتم ذى القربى خلائق اربع *
* حيـاء واسلام وتقوى وطاعة * لربى ومثـلى من يضر وينفـع *

وان اخل باحد وجوه الحيـاء لحقه من النقص باخلاله بقدر ما كان يلحقه من الفضل بكماله وقد قال الرياشى يقـال ان ابا بكر الصديق رضى الله عنه كان يتمثل بهذا الشعر

* وحاجة دون اخرى قد سنحت لها * جعلتهـا للتى اخفيت عنوانا *
* انى كأنى ارى مـن لا حيـاء له * ولا امانة وسط القوم عريانا *

﴿ الفصل الرابع فى الحلم والغضب ﴾ روى محمد بن حارث الهلالى ان جبريل نزل على النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد انى اتيتك بمكـارم الاخلاق فى الدنيا والآخرة خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجـاهلين وروى سفيـان ابن عيينة ان النبى صلى الله عليه وسلم حين نزلت هذه الآية قال يا جبريل ما هذا قال لا ادرى حتى اسأل العالم ثم عاد جبريل وقال يا محمد ان ربك يأمرك ان تصل من قطعـك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك وروى هشـام عن الحسن ان النبى صلى الله عليه وسلم قال أيعجز احدكم ان يكون كابى ضمضم كان اذا خرج من منزله قال اللهم انى تصدقت بعرضى على عبادك وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله يحب الحليم الحيى ويبغض الفـاحش البذى وقال عليه الصلاة والسلام من حلم ساد ومن تفهم ازداد وقال بعض الادباء من غرس شجرة الحلم اجتنى ثمرة السلم وقال بعض البلغاء ما ذب عن الاعراض كالصفح والاعراض وقال بعض الشعراء

* احب مكارم الاخلاق جهدى * واكـره ان اعيب وان اعابا *
* واصفح عن سباب الناس حلمـا * وشر الناس من يهوى السبـابا *
* ومن هـاب الرجال تهيبـوه * ومن حقر الرجـال فلن يهـابا *

فالحلم

فالحلم من اشرف الاخلاق واحقها بذوى الالباب لما فيه من سلامة العرض وراحة الجسد واجتلاب الحمد وقد قال على بن ابى طالب كرم الله وجهه اول عوض الحليم عن حلمه ان الناس انصاره وحد الحلم ضبط النفس عن هيجان الغضب وهذا يكون عن باعث وسبب واسباب الحلم الباعثة على ضبط النفس عشرة ﴿ احدها ﴾ الرحمة للجهال وذلك من خير يوافق رقة وقد قيل فى منثور الحكم من اوكد الحلم رحمة الجهال وقال ابو الدرداء رضى الله عنه لرجل اسمعه كلاما ياهذا لا تغرقن فى سبنا ودع للصلح موضعا فانا لا نكافئ من عصى الله فينا باكثر من ان نطيع الله عز وجل فيه وشتم رجل الشعبى فقال ان كنت كما قلت فغفر الله لى وان لم اكن كما قلت فغفر الله لك واغتاظت عائشة رضى الله عنها على خادم لها ثم رجعت الى نفسها فقالت لله در التقوى ما تركت لذى غيظ شفاء وقسم معاوية رضى الله عنه قطافا فاعطى شيخا من اهل دمشق قطيفة فلم تعجبه فحلف ان يضرب بها رأس معاوية فاتاه فاخبره فقال له معاوية اوف بنذرك وليرفق الشيخ بالشيخ ﴿ والثانى ﴾ من اسبابه القدرة على الانتصار وذلك من سعة الصدر وحسن الثقة وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اذا قدرت على عدوك فاجعل العفو شكرا للقدرة عليه وقال بعض الحكماء ليس من الكرم عقوبة من لا يجد امتناعا من السطوة وقال بعض البلغاء احسن المكارم عفو المقتدر وجود المفتقر ﴿ والثالث ﴾ من اسبابه الترفع عن السباب وذلك من شرف النفس وعلو الهمة كما قالت الحكماء شرف النفس ان تحمل المكاره كما تحمل المكارم وقد قيل ان الله تعالى سمى يحيى عليه السلام سيدا لحلمه وقد قال الشاعر

* لا يبلغ المجد اقوام وان كرموا * حتى يذلوا وان عزوا لاقوام *
* ويشتموا فترى الالوان مسفرة * لا صفح ذل ولكن صفح احلام *

﴿ والرابع ﴾ من اسبابه الاستهانة بالمسئ وذلك عن ضرب من الكبر والاعجاب كما حكى عن مصعب بن الزبير انه لما ولى العراق جلس يوما لعطاء الجند وامر مناديه فنادى ابن عمرو بن جرموز وهو الذى قتل اباه الزبير فقيل له ايها الامير انه قد تباعد فى الارض فقال أو يظن الجاهل انى اقيده بابى عبد الله فليظهر

آمنا ليأخذ عطاءه موفرا فعد الناس ذلك من مستحسن الكبر ومثل ذلك قول بعض الزعماء فى شعره

* أوكلما طن الذباب طردته * ان الذباب اذا على كريم *

واكثر رجل من سب الاحنف وهو لا يجيبه فقال والله ما منعه من جوابى الا هوانى عليه وفى مثله يقول الشاعر

* نجابك لؤمك منجى الذبا * ب حمته مقاذيره ان ينالا *

واسمع رجل ابن هبيرة فأعرض عنه فقال له الرجل اياك اعنى فقال له وعنك اعرض وفى مثله يقول الشاعر

* فاذهب فانت طليق عرضك انه * عرض عززت به وانت ذليل *

﴿ وقال عمرو بن على ﴾

* اذا نطق السفيه فلا تجبه * فخير من اجابته السكوت *

* سكت عن السفيه فظن انى * عييت عن الجواب وما عييت *

﴿ والخامس ﴾ من اسبابه الاستحياء من جزاء الجواب وهذا يكون من صيانة النفس وكمال المروءة وقد قال بعض الحكماء احتمال السفيه خير من التحلى بصورته والاغضاء عن الجاهل خير من مشاكلته وقال بعض الادباء ما افحش حليم ولا اوحش كريم وقال لقيط بن زرارة

* وقل لبنى سعد فما لى وما لكم * ترقون منى ما استطعتم واعتق *

* أغركم انى باحسن شيمة * بصير وانى بالفواحش اخرق *

* وان تك قد فاحشتنى فقهرتنى * هنيئا مريئا انت بالفحش احذق *

﴿ والسادس ﴾ من اسبابه التفضل على السباب فهذا يكون من الكرم وحب التألف كما قيل للاسكندر ان فلانا وفلانا ينقصانك ويثلبانك فلو عاقبتهما فقال هما بعد العقوبة اعذر فى تنقصى وثلبى فكان هذا تفضلا منه وتألفا وقد حكى عن الاحنف بن قيس انه قال ما عادانى احد قط الا اخذت فى امره باحدى ثلاث خصال ان كان اعلى منى عرفت له قدره وان كان دونى رفعت قدرى عنه وان كان نظيرى تفضلت عليه فاخذه الخليل فنظمه شعرا فقال

* سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب * وان كثرت منه الى الجرائم *

فما

* فما الناس الا واحد من ثلاثة * شريف ومشروف ومثل مقاوم *
* فاما الذى فوقى فاعرف قدره * واتبع فيه الحق والحق لازم *
* واما الذى دونى فاحلم دائبا * اصون به عرضى وان لام لائم *
* واما الذى مثلى فان زل او هفا * تفضلت ان الفضل بالفخر حاكم *

﴿ والسابع ﴾ من اسبابه استنكاف السباب وقطع السباب وهذا يكون من الحزم كما حكى ان رجلا قال لضرار بن القعقاع والله لو قلت واحدة لسمعت عشرا فقال له ضرار والله لو قلت عشرا لم تسمع واحدة وحكى ان على ابن ابى طالب كرم الله وجهه قال لعامر بن مرة الزهرى من احمق الناس قال من ظن انه اعقل الناس قال صدقت فمن اعقل الناس قال من لم يتجاوز الصمت فى عقوبة الجهال وقال الشعبى ما ادركت امى فابرها ولكن لا اسب احدا فيسبها وقال بعض الحكماء فى اعراضك صون اعراضك وقال بعض الشعراء

* وفى الحلم ردع للسفيه عن الاذى * وفى الخرق اغراء فلا تك اخرقا *
* فتندم اذ لا تنفعنك ندامة * كما ندم المغبون لما تفرقا *

﴿ وقال آخر ﴾

* قل ما بدا لك من زور ومن كذب * حلمى اصم واذنى غير صماء *

﴿ والثامن ﴾ من اسبابه الخوف من العقوبة على الجواب وهذا يكون من ضعف النفس وربما اوجبه الرأى واقتضاه الحزم وقد قيل فى منثور الحكم الحلم حجاب الآفات وقال الشاعر

* ارفق اذا خفت من ذى هفوة خرقا * ليس الحليم كمن فى امره خرق *

﴿ والتاسع ﴾ من اسبابه الرعاية ليد سالفة وحرمة لازمة وهذا يكون من الوفاء وحسن العهد وقد قيل فى منثور الحكم اكرم الشيم ارعاها للذمم وقال الشاعر

* ان الوفاء على الكريم فريضة * واللؤم مقرون بذى الاخلاف *
* وترى الكريم لمن يعاشر منصفا * وترى اللئيم مجانب الانصاف *

﴿ والعاشر ﴾ من اسبابه المكر وتوقع الفرص الخفية وهذا يكون من الدهاء وقد قيل فى منثور الحكم من ظهر غضبه قل كيده وقال بعض الادباء غضب

الجاهل فى قوله وغضب العاقل فى فعله وقال بعض الحكماء اذا سكت عن الجاهل فقد اوسعته جوابا واوجعته عتابا وقال اياس بن قتادة

* تعاقب ايدينا ويحلم رأينا * ونشتم بالافعال لا بالتكلم *

﴿ وقال بعض الشعراء ﴾

* وللكف عن شتم اللئيم تكرما * اضر له من شتمه حين يشتم *

فهذه عشرة اسباب تدعو الى الحلم وبعض الاسباب افضل من بعض وليس اذا كان بعض اسبابه مفضولا ما يقتضى ان تكون نتيجته من الحلم مذمومة وانما الاولى بالانسان ان يدعوه للحلم افضل اسبابه وان كان الحلم كله فضلا وان عرى عن احد هذه الاسباب كان ذلا ولم يكن حلما لاننا قد ذكرنا فى حد الحلم انه ضبط النفس عن هيجان الغضب فاذا فقد الغضب لسماع ما يغضب كان ذلك من ذل النفس وقلة الحمية وقد قالت الحكماء ثلاثة لا يعرفون الا فى ثلاثة مواطن لا يعرف الجواد الا فى العسرة والشجاع الا فى الحرب والحليم الا فى الغضب وقال الشاعر

* ليست الاحلام فى حال الرضى * انما الاحلام فى حال الغضب *

﴿ وقال آخر ﴾

* من يدعى الحلم أغضبه لتعرفه * لا يعرف الحلم الا ساعة الغضب *

وانشد النابغة الجعدى بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

* ولا خير فى حلم اذا لم يكن له * بوادر تحمى صفوه ان يكدرا *

* ولا خير فى جهل اذا لم يكن له * حليم اذا ما اورد الامر اصدرا *

فلم ينكر صلى الله عليه وسلم قوله عليه ومن فقد الغضب فى الاشياء المغضبة حتى استوت حالتاه قبل الاغضاب وبعده فقد عدم من فضائل النفس الشجاعة والانفة والحمية والغيرة والدفاع والاخذ بالثار لانها خصال مركبة من الغضب فاذا عدمها الانسان هان بها ولم يكن لباقى فضائله فى النفوس موضع ولا لوفور حلمه فى القلوب موقع وقد قال المنصور اذا كان الحلم مفسدة كان العفو معجزة وقال بعض الحكماء العفو يفسد من اللئيم بقدر اصلاحه من الكريم وقال عمرو بن العاص اكرموا سفهاءكم فانهم يقونكم العار والشنار وقال مصعب بن الزبير ما قل سفهاء قوم الا ذلوا وقال ابو تمام الطائى

والحرب

* والحرب تركب رأسها فى مشهد * عدل السفيه به بالف حليم *

وليس هذا القول اغراء بتحكم الغضب والانقياد اليه عند حدوث ما يغضب فيكسب بالانقياد للغضب من الرذائل اكثر مما يسلبه عدم الغضب من الفضائل ولكن اذا ثار به الغضب عند هجوم ما يغضبه كف سورته بحزمه واطفأ نائرته بحلمه ووكل من استحق المقابلة الى غيره ولم يعدم مسيئا مكافيا كما لم يعدم محسنا مجازيا والعرب تقول دخل بيتا ما اخرج منه اى ان اخرج منه خير دخله خير وان اخرج منه شر دخله شر وانشد ابن دريد عن ابى حاتم

* اذا امن الجهال جهلك مرة * فعرضك للجهال غنم من الغنم *
* فعم عليه الحلم والجهل والقه * بمنزلة بين العداوة والسلم *
* اذا انت جازيت السفيه كما جزى * فانت سفيه مثله غير ذى حلم *
* ولا تغضبن عرض السفيه وداره * بحلم فان اعيا عليكم فبالصرم *
* فيرجوك تارات ويخشاك تارة * وتأخذ فيما بين ذلك بالحزم *
* فان لم تجد بدا من الجهل فاستعن * عليه بجهال فذاك من العزم *

وهذه من احكم ابيات وجدتها فى تدبير الحلم والغضب وهذا التدبير انما يستعمل فيما لا يجد الانسان بدا من مقارنته ولا سبيل الى اطراحه ومتاركته اما لخوف شره او للزوم امره فاما من امكن اطراحه ولم يتعذر ابعاده فالهوان به اولى والاعراض عنه اصوب فاذا كان على ما وصفت استفاد بتحريك الغضب فضائله وامن بكف نفسه عن الانقياد له رذائله وصار الحلم مدبرا للامور المغضبة بقدر لا يعتريه نقص بعدم الغضب ولا يلحقه زيادة بفقد الحلم واو عزب عنه الحلم حتى انقاد لغضبه ضل عنه وجه الصواب فيه وضعف رأيه عن خبرة اسبابه ودواعيه حتى يصير بليد الرأى مغمور الروية مقطوع الحجة مسلوب العزاء قليل الحيلة مع ما يناله من اثر ذلك فى نفسه وجسده حتى يصير اضر عليه مما غضب له وقد قال بعض الحكماء من كثر شططه كثر غلطه وروى ان سلمان قال لعلى رضى الله عنه ما الذى يباعدنى عن غضب الله عز وجل قال لا تغضب وقال بعض السلف اقرب ما يكون العبد من غضب الله عز وجل اذا غضب وقال بعض البلغاء من رد غضبه هد من اغضبه وقال بعض الادباء ما هيج جاشك

كغيظ اجاشك وقال رجل لبعض الحكماء عظنى قال لا تغضب فينبغى لذى اللب السوى والحزم القوى ان يتلقى قوة الغضب بحلمه فيصدها ويقابل دواعى شرته بحزمه فيردها ليحظى باجل الخبرة ويسعد بحميد العاقبة وقال بعض الادباء فى اغضابك راحة اعصابك وسبب الغضب هجوم ما تكرهه النفس ممن دونها وسبب الحزن هجوم ما تكرهه النفس ممن فوقها والغضب يتحرك من داخل الجسد الى خارجه والحزن يتحرك من خارج الجسد الى داخله فلذلك قتل الحزن ولم يقتل الغضب لبروز الغضب وكمون الحزن وصار الحادث عن الغضب السطوة والانتقام لبروزه والحادث عن الحزن المرض والاسقام لكمونه ولذلك افضى الحزن الى الموت ولم يفض اليه الغضب فهذا فرق ما بين الحزن والغضب * واعلم ان لتسكين الغضب اذا هجم اسبابا يستعان بها على الحلم ✻ منها ✻ ان يذكر الله عز وجل فيدعوه ذلك الى الخوف منه ويبعثه الخوف منه على الطاعة له فيرجع الى ادبه ويأخذ بندبه فعند ذلك يزول الغضب قال الله تعالى واذكر ربك اذا نسيت قال عكرمة يعنى اذا غضبت وقال الله تعالى واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ومعنى قوله ينزغنك اى يغضبنك فاستعذ بالله انه هو السميع العليم يعنى انه سميع بجهل من جهل عليم بما يذهب عنك الغضب وذكر ان فى التوراة مكتوبا يا ابن آدم اذكرنى حين تغضب اذكرك حين اغضب فلا امحقك فيمن امحق وحكى ان بعض ملوك الفرس كتب كتابا ودفعه الى وزير له وقال اذا غضبت فناولنيه وكان فيه ما لك والغضب انما انت بشر ارحم من فى الارض يرحمك من فى السماء وقال بعض الحكماء من ذكر قدرة الله لم يستعمل قدرته فى ظلم عباد الله وقال عبد الله بن مسلم بن محارب لهارون الرشيد يا امير المؤمنين اسألك بالذى انت بين يديه اذل منى بين يديك وبالذى هو اقدر على عقابك منك على عقابى لما عفوت عنى فعفى عنه لما ذكره قدرة الله تعالى وروى ان رجلا شكا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم القسوة فقال اطلع فى القبور واعتبر بالنشور وكان بعض ملوك الطوائف اذا غضب القى عنده مفاتيح ترب الملوك فيزول غضبه ولذلك قال عمر رضى الله عنه من اكثر من ذكر الموت رضى من الدنيا باليسير ✻ ومنها ✻ ان ينتقل عن

الحالة التى هو فيهـا الى حالة غيرها فيزول عنه الغضب بتغير الاحوال والتنقل من حال الى حال وكان هذا مذهب المأمون اذا غضب او شـتم وكانت الفرس تقول اذا غضب القائم فليجلس واذا غضب الجالس فليقم ﴿ ومنها ﴾ ان يتذكر ما يؤول اليه الغضب من الندم ومذمة الانتقام وكتب ابرويز الى ابنه شيرويه ان كلمة منك تسفك دما واخرى منك تحقن دما وان نفاذ امرك مع كلامك فاحترس فى غضبك من قولك ان تخطئ ومن لونك ان يتغير ومن جسدك ان يخف فان الملوك تعاقب قدرة وتعفو حلما وقال بعض الحكماء الغضب على من لا تملك عجز وعلى من تملك لؤم وقال بعض الادباء اياك وعزة الغضب فانهـا تفضى الى ذل العذر وقال بعض الشعراء

* واذا ما اعتراك فى الغضب العزة فاذكر تذلل الاعـذار *

﴿ ومنهـا ﴾ ان يذكر ثواب العفو وجزاء الصفح فيقهر نفسه على الغضب رغبة فى الجزاء والثواب وحذرا من استحقـاق الذم والعقـاب روى عن النبى صلى الله عليه وسـلم انه قال ينـادى مناد يوم القيـامة من له اجر على الله عز وجل فليقم فيقوم العـافون عن النـاس ثم تلا فمن عفا واصلح فاجره على الله وقال رجاء بن حيـاة لعبد الملك بن مروان فى اسـارى ابن الاشعث ان الله قد اعطـاك ما تحب من الظفر فأعط الله ما يحب من العفو وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الخير ثلاث خصال فمن كن فيه فقد استكمل الايمان من اذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل واذا غضب لم يخرجه غضبه من حق واذا قدر عفى واسمع رجل عمر بن عبد العزيز كلاما فقال عمر اردت ان يستفزنى الشيطـان لعزة السلطـان فانال منك اليوم ما تناله منى غدا انصرف رحمك الله ﴿ ومنها ﴾ ان يذكر انعطاف القلوب عليه وميل النفوس اليه فلا يرى اضاعة ذلك بتغير النـاس عنه فيرغب فى التألف وجميل الثناء وروى ابن ابى ليلى عن عطية عن ابى سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم ما ازداد احد بعفو الا عزا فاعفوا يعزكم الله وقال بعض البلغاء ليس من عادة الكرام سرعة الانتقام ولا من شروط الكرم ازالة النعم وقال المأمون لابراهيم بن المهدى انى شـاورت فى امرك فاشاروا علىّ بقتلك الا انى وجدت قدرك فوق ذنبك فكرهت القتل

للازم حرمتك فقال يا امير المؤمنين ان المشير اشار بما جرت به العادة فى السياسة الا انك ابيت ان تطلب النصر الا من حيث عودته من العفو فان عاقبت فلك نظير وان عفوت فلا نظير لك وانشأ يقول

* البر بى منك وطأ العذر عندك لى * فيما فعلت فلم تعذل ولم تلم *
* وقام علمك بى فاحتج عندك لى * مقام شاهد عدل غير متهم *
* لئن جحدتك معروفا مننت به * انى لفى اللؤم احظى منك بالكرم *
* تعفو بعدل وتسطو ان سطوت به * فلا عدمناك من عاف ومنتقم *

﴿ الفصل الخامس فى الصدق والكذب ﴾ قال الله تعالى وهو اصدق القائلين ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين وقال تعالى انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال للحسن بن على رضى الله عنهما دع ما يريبك الى ما لا يريبك فان الكذب ريبة والصدق طمأنينة وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال رحم الله امرءا اصلح من لسانه واقصر من عنانه والزم طريق الحق مقوله ولم يعود الخطل مفصله وروى صفوان بن سليم قال قيل للنبى صلى الله عليه وسلم أيكون المؤمن جبانا قال نعم قيل أفيكون بخيلا قال نعم قيل أفيكون كذابا قال لا وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى ولا تلبسوا الحق بالباطل اى لا تخلطوا الصدق بالكذب وقيل فى منثور الحكم الكذاب لص لان اللص يسرق مالك والكذاب يسرق عقلك وقال بعض الحكماء الخرس خير من الكذب وصدق اللسان اول السعادة وقال بعض البلغاء الصادق مصان خليل والكاذب مهان ذليل وقال بعض الادباء لا سيف كالحق ولا عون كالصدق وقال بعض الشعراء

* وما شئ اذا فكرت فيه * باذهب للمروءة والجمال *
* من الكذب الذى لا خير فيه * وابعد بالبهاء من الرجال *

والكذب جماع كل شر واصل كل ذم لسوء عواقبه وخبث نتائجه لانه ينتج النميمة والنميمة تنتج البغضاء والبغضاء تؤول الى العداوة وليس مع العداوة امن ولا راحة ولذلك قيل من قل صدقه قل صديقه والصدق والكذب يدخلان

الاخبار الماضية كما ان الوفاء والخلف يدخلان المواعيد المستقبلة فالصدق هو الاخبار عن الشئ على ماهو عليه والكذب هو الاخبار عن الشئ بخلاف ما هو عليه ولكل واحد منهما دواع فدواعى الصدق لازمة ودواعى الكذب عارضة لان الصدق يدعو اليه عقل موجب وشرع مؤكد فالكذب يمنع منه العقل ويصد عنه الشرع ولذلك جاز ان تستفيض الاخبار الصادقة حتى تصير متواترة ولم يجز ان تستفيض الاخبار الكاذبة لان اتفاق الناس فى الصدق والكذب انما هو لاتفاق الدواعى فدواعى الصدق يجوز ان يتفق الجمع الكثير عليها حتى اذا تلقوا خبرا وكانوا عددا ينتفى عن مثلهم المواطأة وقع فى النفس صدقه لان الدواعى اليه نافعة واتفاق الناس فى الدواعى النافعة ممكن ولا يجوز ان يتفق العدد الكثير الذى لا يمكن مواطأة مثلهم على نقل خبر يكون كذبا لان الدواعى اليه غير نافعة وربما كانت ضارة وليس فى جارى العادة ان يتفق الجمع الكثير على دواع غير نافعة ولذلك جاز اتفاق الناس على الصدق لجواز اتفاق دواعيهم ولم يجز ان يتفقوا على الكذب لامتناع اتفاق دواعيهم واذا كان للصدق والكذب دواع فلابد من ذكر ما سنح به الخاطر من دواعيهما * اما دواعى الصدق ﴿فمنها﴾ العقل لانه موجب لقبح الكذب لاسيما اذا لم يجلب نفعا ولم يدفع ضررا والعقل يدعو الى فعل ما كان مستحسنا ويمنع من اتيان ما كان مستقبحا وليس ما استحسن من مبالغات الشعراء حتى صار كذبا صراحا استحسانا للكذب فى العقل كالذى انشدنيه الازدى لبعض الشعراء

* توهمه فكرى فاصبح خده * وفيه مكان الوهم من فكرتى اثر *
* وصافحه كفى فآلم كفه * فمن لمس كفى فى انامله عقر *
* ومر بقلبى خاطرا فجرحته * ولم ار شيئا قط يجرحه الفكر *

﴿وكقول العباس بن الاحنف وان كان دون هذه المبالغة﴾

* تقول وقد كتبت دقيق خطى * اليها لم تجنبت الجليلا *
* فقلت لها نحلت فصار خطى * مساعدة لكاتبه نحيلا *

لانه خرج مخرج المبالغة فى التشبيه والاقتدار على صنعة الشعر وان شواهد الحال تخرجه عن تلبيس الكذب وكذلك ما استحسن فى الصنعة ولم يستقبح

فى العقل وان كان الكذب مستقبحا فيه ❃ ومنها ❃ الدين الوارد باتباع الصدق وحظر الكذب لان الشرع لا يجوز ان يرد بارخاص ما حظره العقل بل قد جاء الشرع زائدا على ما اقتضاه العقل من حظر الكذب لان الشرع ورد بحظر الكذب وان جر نفعا او دفع ضررا والعقل انما حظر ما لا يجلب نفعا ولا يدفع ضررا ❃ ومنها ❃ المروءة فانها مانعة من الكذب باعثة على الصدق لانها قد تمنع من فعل ما كان مستكرها فاولى من فعل ما كان مستقبحا ❃ ومنها ❃ حب الثناء والاشتهار بالصدق حتى لا يرد عليه قول ولا يلحقه ندم وقد قال بعض البلغاء ليكن مرجعك الى الحق ومنزعك الى الصدق فالحق اقوى معين والصدق افضل قرين وقال بعض الشعراء

* عوّد لسانك قول الصدق تحظ به * ان اللسان لما عودت معتاد *
* موكل بتقاضى ما سننت له * فى الخير والشر فانظر كيف ترتاد *

واما دواعى الكذب ❃ فنها ❃ اجتلاب النفع واستدفاع الضر فيرى ان الكذب اسلم واغنم فيرخص لنفسه فيه اغترارا بالخدع واستشفافا للطمع وربما كان الكذب ابعد لما يؤمل واقرب لما يخاف لان القبيح لا يكون حسنا والشر لا يصير خيرا وليس يجنى من الشوك العنب ولا من الكرم الحنظل وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال تحروا الصدق وان رأيتم فيه الهلكة فان فيه النجاة وتجنبوا الكذب وان رأيتم ان فيه النجاة فان فيه الهلكة وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه لان يضعنى الصدق وقلما يفعل احب الىّ من ان يرفعنى الكذب وقلما يفعل وقال بعض الحكماء الصدق منجيك وان خفته والكذب مرديك وان امنته وقال الجاحظ الصدق والوفاء توأمان والصبر والحلم توأمان فيهن تمام كل دين وصلاح كل دنيا واضدادهن سبب كل فرقة واصل كل فساد ❃ ومنها ❃ ان يؤثر ان يكون حديثه مستعذبا وكلامه مستظرفا فلا يجد صدقا يعذب ولا حديثا يستظرف فيستحلى الكذب الذى ليست غرائبه معوزة ولا طرائفه معجزة وهذا النوع اسوأ حالا مما قبل لانه يصدر عن مهانة النفس ودناءة الهمة وقد قال الجاحظ لم يكذب احد قط الا لصغر قدر نفسه عنده وقال ابن المقفع لا تتهاون بارسال الكذبة من الهزل فانها تسرع الى ابطال

الحق ❋ ومنها ❋ ان يقصد بالكذب التشفى من عدوه فيسمه بقبائح يخترعها عليه ويصفه بفضائح ينسبها اليه ويرى ان معرة الكذب غنم وان ارسالها فى العدو سهم وسم وهذا اسوأ حالا من النوعين الاولين لانه قد جمع بين الكذب المعر والشر المضر ولذلك ورد الشرع برد شهادة العدو على عدوه ❋ ومنها ❋ ان تكون دواعى الكذب قد ترادفت عليه حتى الفها فصار الكذب له عادة ونفسه اليه منقادة حتى لو رام مجانبة الكذب عسر عليه لان العادة طبع ثان وقد قالت الحكماء من استحلى رضاع الكذب عسر فطامه وقيل فى منثور الحكم لا يلزم الكذاب شئ الا غلب عليه ◆ واعلم ان للكذاب قبل خبرته امارات دالة عليه ❋ فمنها ❋ انك اذا لقنته الحديث تلقنه ولم يكن بين ما لقنته وبين ما اورده فرق عنده ❋ ومنها ❋ انك اذا شككته فيه تشكك حتى يكاد يرجع فيه ولولاك ما تخالجه الشك فيه ❋ ومنها ❋ انك اذا رددت عليه قوله حصر وارتبك ولم يكن عنده نصرة المحتجين ولا برهان الصادقين ولذلك قال على بن ابى طالب كرم الله وجهه الكذاب كالسراب ❋ ومنها ❋ ما يظهر عليه من ريبة الكذابين وينم عليه من ذلة المتوهمين لان هذه امور لا يمكن الانسان دفعها عن نفسه لما فى الطبع من آثارها ولذلك قالت الحكماء العينان انم من اللسان وقال بعض البلغاء الوجوه مرايا تريك اسرار البرايا وقال بعض الشعراء

* تريك اعينهم ما فى صدورهم * ان العيون يؤدى سرها النظر *

واذا اتسم بالكذب نسبت اليه شوارد الكذب المجهولة واضيفت الى اكاذيبه زيادات مفتعلة حتى يصير الكاذب مكذوبا عليه فيجمع بين معرة الكذب منه ومضرة الكذب عليه وقد قال الشاعر

* حسب الكذوب من البلية بعض ما يحكى عليه *
* فاذا اسمعت بكذبة * من غيره نسبت اليه *

ثم انه ان تحرى الصدق اتهم وان جانب الكذب كذب حتى لا يعتقد له حديث يصدق ولا كذب مستنكر وقد قال الشاعر

* اذا عرف الكذاب بالكذب لم يكد * يصدق فى شئ وان كان صادقا *

* ومن آفة الكذاب نسيان كذبه * وتلقاه ذا حفظ اذا كان صادقا *
وقد وردت السنة بارخاص الكذب فى الحرب واصلاح ذات البين على وجه التورية والتأويل دون التصريح به فان السنة لا يجوز ان ترد باباحة الكذب لما فيه من التنفير وانما ذلك على طريق التورية والتعريض كما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تطرف برداء وانفرد عن اصحابه فقال له رجل ممن انت قال من ماء فورى عن الاخبار بنسبه بامر يحتمل فظن السائل انه عنى القبيلة المنسوبة الى ذلك وانما اراد رسول الله صلى الله عليه وسلم انه من الماء الذى يخلق منه الانسان فبلغ ما احب من اخفاء نفسه وصدق فى خبره وكالذى حكى عن ابى بكر الصديق رضى الله عنه ان كان يسير خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجر معه فتلقاه العرب وهم يعرفون ابا بكر ولا يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون يا ابا بكر من هذا فيقول هاد يهدينى السبيل فيظنون انه يعنى هداية الطريق وهو انما يريد هداية سبيل الخير فيصدق فى قوله ويورى عن مراده وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان فى المعاريض لمندوحة عن الكذب وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ان فى المعاريض ما يكفى ان يعف الرجل عن الكذب وقال بعض اهل التأويل فى قوله تعالى لا تواخذنى بما نسيت انه لم ينس ولكنه معاريض الكلام وقال ابن سيرين الكلام اوسع من ان يصرح فيه بالكذب واعلم ان من الصدق ما يقوم مقام الكذب فى القبح والمعرة ويزيد عليه فى الاذى والمضرة وهى الغيبة والنميمة والسعاية فاما الغيبة فانها خيانة وهتك ستر يحدثان عن حسد وغدر قال الله تعالى ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتا يعنى انه كما لا يحل لحمه ميتا لا تحل غيبته حيا وروى ان امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعلتا تغتابان الناس فاخبر بذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال صامتا عما احل لهما وافطرتا على ما حرم عليهما وروت اسماء بنت يزيد قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذب عن لحم اخيه بظهر الغيب كان حقا على الله عز وجل ان يحرم لحمه على النار وقال عدى بن حاتم الغيبة رعى اللئام وكان الحسن البصرى رحمه الله تعالى يقول الغيبة فاكهة النساء وقال رجل لابن

سيرين رحمه الله انى اغتبتك فاجعلنى فى حل فقال ما احب ان احل لك ما حرم الله عليك وقال ابن السماك لا تعن الناس على عيبك بسوء غيبك وقال الشاعر

* لا تلتمس من مساوى الناس ما ستروا * فيهتك الله سترا من مساويكا *
* واذكر محاسن ما فيهم اذا ذكروا * ولا تعب احدا منهم بما فيكا *

وربما عذر المغتاب نفسه بانه يقول حقا ويعلن فسقا ويستشهد بما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ثلاثة ليست غيبتهم بغيبة الامام الجائر وشارب الخمر والمعلن بفسقه فيبعد من الصواب ويجانب الادب لانه وان كان بالغيبة صادقا فقد هتك سترا كان بصونه اولى وجاهر من اسر واخفى وربما دعى المغتاب ذلك الى اظهار ما كان يستره والمجاهرة بما كان يضمره فلم يفد ذلك الا فساد اخلاقه من غير ان يكون فيه صلاح لغيره وقد قيل لانوشروان ما الذى لا خير فيه قال ما ضرنى ولم ينفع غيرى او ضر غيرى ولم ينفعنى فلا اعلم فيه خيرا وقيل فى منثور الحكم لا تبد من العيوب ما ستره علام الغيوب وقد روى العلاء بن عبد الرحمن عن ابيه عن ابى هريرة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة فقال هى ان تقول لاخيك ما فيه فان كنت صادقا فقد اغتبته وان كنت كاذبا فقد بهته وقال عبد الرحمن بن زيد فى قوله تعالى يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم انه استهزاء المسلم بمن اعلن بفسقه ودخلت امرأة على النبى صلى الله عليه وسلم مستفتية فلما خرجت قالت عائشة رضى الله عنها يا رسول الله ما اقصرها فقال مهلا اياك والغيبة فقالت يا رسول الله انما قلت ما فيها قال اجل ولولا ذلك لكان بهتانا وسئل بعض الادباء عن صفة اللئيم فقال اللئيم اذا غاب عاب واذا حضر اغتاب فاما الخبر فمحمول على الانكار لافعال هؤلاء ولا يكون الانكار غيبة لانه نهى عن منكر وفرق بين انكار المجاهر وغيبة المساتر واما النميمة فهى ان تجمع الى مذمة الغيبة رداءة وشرا وتضم الى لؤمها دناءة وغدرا ثم تؤول الى تقاطع المتواصلين وتباغض المتحابين وروى شهر بن حوشب عن اسماء بنت يزيد عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ألا اخبركم بشراركم قالوا بلى يا رسول الله قال من شراركم المشاؤون بالنميمة المفسدون بين الاحبة الباغون

العيوب وروى محمد بن عمرو عن ابى سلمة عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين ملعون كل شغار ملعون كل قتات ملعون كل منان الشغار المحرش بين الناس يلقى بينهم العداوة والقتات النمام وقيل النمام الذى يكون مع القوم يتحدثون فينم حديثهم والقتات هو الذى يستمع عليهم وهم لا يعلمون فينم حديثهم والمنان هو الذى يصنع الخير ويمن به وقيل فى منثور الحكم النميمة سيف قاتل وقال بعض الادباء لم يمش ماش شر من واش فاما السعاية فهى شر الثلاثة لانها تجمع الى مذمة الغيبة ولؤم النميمة التغرير بالنفوس والاموال والقدح فى المنازل والاحوال وروى ابن قتيبة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال الجنة لا يدخلها ديوث ولا قلاع الديوث هو الذى يجمع بين الرجال والنساء سمى بذلك لانه يدث بينهم والقلاع هو الساعى الذى يقع فى الناس عند الامراء سمى بذلك لانه يأتى الرجل المتمكن عند الامير فلا يزال يقع فيه حتى يقلعه وقال بعض الحكماء الساعى بين منزلتين قبيحتين اما ان يكون صدق فقد خان الامانة واما ان يكون قد كذب فخالف المروءة وقال بعض الحكماء الصدق يزين كل احد الا السعاة فان الساعى اذم وآثم ما يكون اذا صدق وقال بعض البلغاء النميمة دناءة والسعاية رداءة وهما رأس الغدر واساس الشر فتجنب سبلهما واجتنب اهلهما ووقع الفضل بن سهل على قصة ساع سعى اليه نحن نرى قبول السعاية شرا منها لان السعاية دلالة والقبول اجازة فاتقوا الساعى فانه ان كان فى سعايته صادقا كان فى صدقه آثما اذ لم يحفظ الحرمة ويستر العورة وقال الاسكندر لرجل سعى اليه برجل أتحب ان نقبل منك ما تقول فيه على ان نقبل منه ما يقول فيك قال لا قال فكف عن الشر يكف عنك الشر وروى ان الله اوحى الى موسى على نبينا وعليه السلام ان فى بلدك ساعيا ولست اخبرك وهو فى ارضك فقال يا رب دلنى عليه حتى اخرجه فقال يا موسى اكره النميمة وانم

﴿الفصل السادس فى الحسد والمنافسة﴾

اعلم ان الحسد خلق ذميم مع اضراره بالبدن وفساده للدين حتى لقد امر الله بالاستعاذة من شره فقال تعالى ومن شر حاسد اذا حسد وناهيك بحال ذلك شرا وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال دب اليكم داء الامم قبلكم البغضاء

والحسد هى الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر والذى نفس محمد بيده لا تؤمنوا حتى تحابوا ألا انبئكم بامر اذا فعلتموه تحاببتم افشوا السلام بينكم فاخبر صلى الله عليه وسلم بحال الحسد وان التحابب ينفيه وان السلام يبعث على التحابب فصار السلام اذا نافيا للحسد وقد جاء كتاب الله تعالى بما يوافق هذا القول وقال الله تعالى ادفع بالتى هى احسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم قال مجاهد معناه ادفع بالسلام اساءة المسئ وقال الشاعر

* قد يلبث الناس حينا ليس بينهم * ود فيزرعه التسليم واللطف *

وقال بعض السلف الحسد اول ذنب عصى الله به فى السماء يعنى حسد ابليس لآدم عليه السلام واول ذنب عصى الله به فى الارض يعنى حسد ابن آدم لاخيه حتى قتله وقال بعض الحكماء من رضى بقضاء الله تعالى لم يسخطه احد ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد وقال بعض البلغاء الناس حاسد ومحسود ولكل نعمة حسود وقال بعض الادباء ما رأيت ظالما اشبه بمظلوم من الحسود نفس دائم وهم لازم وقلب هائم فاخذه بعض الشعراء فقال

* ان الحسود الظلوم فى كرب * يخاله من يراه مظلوما *

* ذا نفس دائم على نفس * يظهر منها ما كان مكتوما *

ولولم يكن من ذم الحسد الا انه خلق دنى يتوجه نحو الاكفاء والاقارب ويختص بالمخالط والمصاحب لكانت النزاهة عنه كرما والسلامة منه مغنما فكيف وهو بالنفس مضر وعلى الهم مصر حتى ربما افضى بصاحبه الى التلف من غير نكاية فى عدو ولا اضرار بمحسود وقد قال معاوية رضى الله عنه ليس فى خصال الشر اعدل من الحسد يقتل الحاسد قبل ان يصل الى المحسود وقال بعض الحكماء يكفيك من الحاسد انه يغتم فى وقت سرورك وقيل فى منثور الحكم عقوبة الحاسد من نفسه وقال الاصمعى قلت لاعرابى ما اطول عمرك قال تركت الحسد فبقيت وقال رجل لشريح القاضى انى لاحسدك على ما ارى من صبرك على الخصوم ووقوفك على غامض الحكم فقال ما نفعك الله بذلك ولا ضرنى وقال عبد الله بن المعتز رحمه الله تعالى

* اصبر على كيد الحسو * د فان صبرك قاتله *
* فالنار تأكل بعضها * ان لم تجد ما تاكله *

وحقيقة الحسد شدة الاسى على الخيرات تكون للناس الافاضل وهو غير المنافسة وربما غلط قوم فظنوا ان المنافسة فى الخير هى الحسد وليس الامر على ما ظنوا لان المنافسة طلب التشبه بالافاضل من غير ادخال ضرر عليهم والحسد مصروف الى الضرر لان غايته ان يعدم الافاضل فضلهم من غير ان يصير الفضل له فهذا الفرق بين المنافسة والحسد فالمنافسة اذا فضيلة لانها داعية الى اكتساب الفضائل والاقتداء باخيار الافاضل وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال المؤمن يغبط والمنافق يحسد وقال الشاعر

* نافس على الخيرات اهل العلا * فانما الدنيا احاديث *
* كل امرئ فى شانه كادح * فوارث منهم وموروث *

واعلم ان دواعى الحسد ثلاثة ﴿ احدها ﴾ بغض المحسود فيأسى عليه بفضيلة تظهر او منقبة تشكر فيثير حسدا قد خامر بغضا وهذا النوع لا يكون عاما وان كان اضرها لانه ليس يبغض كل الناس ﴿ والثانى ﴾ ان يظهر من المحسود فضل يعجز عنه فيكره تقدمه فيه واختصاصه به فيثير ذلك حسدا لولاه لكف عنه وهذا اوسطها لانه لا يحسد الاكفاء من دنا وانما يختص بحسد من علا وقد يمتزج بهذا النوع ضرب من المنافسة ولكنها مع عجز فلذلك صارت حسدا ﴿ والثالث ﴾ ان يكون فى الحاسد شح بالفضائل وبخل بالنعم وليست اليه فيمنع منها ولا بيده فيدفع عنها لانها مواهب قد منحها الله من شاء فيسخط على الله عز وجل فى قضائه ويحسد على ما منح من عطائه وان كانت نعم الله عز وجل عنده اكثر ومنحه عليه اظهر وهذا النوع من الحسد اعمها واخبثها اذ ليس لصاحبه راحة ولا لرضاه غاية فان اقترن بشر وقدرة كان بورا وانتقاما وان صادف عجزا ومهانة كان كمدا وسقاما وقد قال عبد الحميد الحسود من الهم كساقى السم فان سرى سمه زال عنه همه واعلم ان بحسب فضل الانسان وظهور النعمة عليه يكون حسد الناس له فان كثر فضله كثر حساده وان قل قلوا لان ظهور الفضل يثير الحسد وحدوث النعمة

يضاعف

يضاعف الكمد ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم استعينوا على قضاء الحوائج بسترها فان كل ذي نعمة محسود وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما كانت نعمة الله على احد الا وجد لها حاسدا فلو كان الرجل اقوم من القدح لما عدم غامزا وقد قال الشاعر

* ان يحسدونى فانى غير لائمهم * قبلى من الناس اهل الفضل قد حسدوا *
* فدام لى ولهم ما بى وما بهم * ومات اكثرنا غيظا بما يجد *

وربما كان الحسد منبها على فضل المحسود ونقص الحسود كما قال ابو تمام الطائى

* واذا اراد الله نشر فضيلة * طويت اتاح لها لسان حسود *
* لولا اشتعال النار فيما جاورت * ما كان يعرف طيب عرف العود *
* لولا التخوف للعواقب لم يزل * للحاسد النعمى على المحسود *

فاما ما يستعمله من كان غالبا عليه الحسد وكان طبعه اليه مائلا لينتفى عنه ويكفاه ويسلم من ضرره وعداوته فامور هى له حسم ان صادفها عزم ﴿ فمنها ﴾ اتباع الدين فى اجتنابه والرجوع الى الله عز وجل فى آدابه فيقهر نفسه على مذموم خلقها وينقلها عن لئيم طبعها وان كان نقل الطباع عسرا لكن بالرياضة والتدريج يسهل منها ما استصعب ويحبب منها ما اتعب وان تقدم قول القائل من ربه خلقه كيف يخلى خلقه غير انه اذا عانى تهذيب نفسه تظاهر بالتخلق دون الخلق ثم بالعادة يصير كالخلق قال ابو تمام الطائى

* فلم اجد الاخلاق الا تخلقا * ولم اجد الافضال الا تفضلا *

﴿ ومنها ﴾ العقل الذى يستقبح به من نتائج الحسد ما لا يرضيه ويستنكف من هجنة مساويه فيذلل نفسه انفة ويقهرها حمية فتذعن لرشدها وتجيب الى صلاحها وهذا انما يصح لذى النفس الابية والهمة العلية وان كان ذو الهمة يجل عن دناءة الحسد وقد قال الشاعر

* ابى له نفسان نفس زكية * ونفس اذا ما خافت الظلم تشمس *

﴿ ومنها ﴾ ان يستدفع ضرره ويتوقى اثره ويعلم ان مكانته فى نفسه ابلغ ومن الحسد ابعد فيستعمل الحزم فى دفع ما كده واكمده ليكون اطيب نفسا واهنأ عيشا وقد قيل العجب لغفلة الحساد عن سلامة الاجساد وقد قال الشاعر

* بصير باعقاب الامور كأنما * يرى بصواب الرأى ما هو واقع *

﴿ ومنها ﴾ ما يرى من نفور الناس عنه وبعدهم منه فيخافهم اما على نفسه من عداوة او على عرضه من ملامة فيتألفهم بمعالجة نفسه و يراهم ان صلحوا اجدى نفعا و اخلص ودا وقال ابن العميد رحمه الله تعالى

* داوى جوى بجوى وليس بحازم * من يستكف النار بالحلفاء *

﴿ وقال المؤمل بن اميل ﴾

* لا تحسبونى غنيا عن مودتكم * انى اليكم وان ايسرت مفتقر *

﴿ ومنها ﴾ ان يساعد القضاء ويستسلم للمقدور ولا يرى ان يغالب قضاء الله فيرجع مغلوبا ولا ان يعارضه فى امره فيرد محروما مسلوبا وقد قال ازدشير ابن بابك اذا لم يساعدنا القضاء ساعدناه وقال محمود الوراق

* قدر الله كائن * حين يقضى وروده *
* قد مضى فيك علمه * وانتهى ما يريده *
* فأرد ما يكون ان * لم يكن ما تريده *

فان اظفرته السعادة باحد هذه الاسباب وهدته المراشد الى استعمال الصواب سلم من سقامه وخلص من غرامه واستبدل بالنقص فضلا واعتاض من الذم حمدا ولمن استنزل نفسه عن مذمة فصرفها عن لائمة هو اظهر حزما و اقوى عزما ممن كفته النفس جهادها واعطته قيادها ولذلك قال على بن ابى طالب رضى الله عنه خياركم كل مفتن تواب وان صدته الشهوة عن مراشده واضله الحرمان عن مقاصده فانقاد للطبع اللئيم وغلب عليه الخلق الذميم حتى ظهر حسده واشتد كمده فقد باء باربع مذام ﴿ احداهن ﴾ حسرات الحسد وسقام الجسد ثم لا يجد لحسرته انتهاء ولا يؤمل لسقامه شفاء وقال ابن المعتز الحسد داء الجسد ﴿ والثانية ﴾ انخفاض المنزلة وانحطاط المرتبة لانحراف الناس عنه ونفورهم منه وقد قيل فى منثور الحكم الحسود لا يسود ﴿ والثالثة ﴾ مقت الناس له حتى لا يجد فيهم محبا وعداوتهم له حتى لا يرى فيهم وليا فيصير بالعداوة مأثورا وبالمقت مزجورا ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم شر الناس

من

من يبغض الناس ويبغضونه ❊ والرابعة ❊ اسخاط الله تعالى فى معارضته واجتناب الاوزار فى مخالفته اذ ليس يرى قضاء الله عدلا ولا لنعمه من الناس اهلا ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب وقال عبد الله بن المعتز الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له بخيل بما لا يملكه طالب ما لا يجده واذا بلى الانسان بمن هذه حاله من حساد النعم واعداء الفضل استعاذ بالله من شره وتوقى مصارع كيده وتحرز من غوائل حسده وابعد عن ملابسته وادنائه لعضل دائه واعواز دوائه فقد قيل حاسد النعمة لا يرضيه الا زوالها وقال بعض الحكماء من ضر بطبعه فلا تأنس بقربه فان قلب الاعيان صعب المرام وقال عبد الحميد اسد تقاربه خير من حسود تراقبه وقال محمود الوراق

* اعطيت كل الناس من نفسى الرضى * الا الحسود فانه اعيانى *
* ما ان لى ذنبا اليه علمته * الا تظاهر نعمة الرحمن *
* وابى فما يرضيه الا ذلتى * وذهاب اموالى وقطع لسانى *

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ثلاثة لا يسلم احد منهن الطيرة وسوء الظن والحسد فاذا تطيرت فلا ترجع واذا ظننت فلا تحقق واذا حسدت فلا تبغ

❊ فصل ❊ واما آداب المواضعة والاصطلاح فضربان احدهما ما تكون المواضعة فى فروعه والعقل موجب لاصوله والثانى ما تكون المواضعة فى فروعه واصوله وذلك متضح فى الفصول التى نذكرها اذا سبرت وهى ثمانية ❊ الفصل الاول فى الكلام والصمت ❊ اعلم ان الكلام ترجمان يعبر عن مستودعات الضمائر ويخبر بمكنونات السرائر لا يمكن استرجاع بوادره ولا يقدر على رد شوارده فحق على العاقل ان يحترز من زلله بالامساك عنه او بالاقلال منه روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال رحم الله من قال خيرا فغنم او سكت فسلم وقال صلى الله عليه وسلم لمعاذ يا معاذ انت سالم ما سكت فاذا تكلمت فعليك او لك وقال على بن ابى طالب كرم الله وجهه اللسان معيار اطاشه الجهل وارجحه العقل وقال بعض الحكماء الزم الصمت تعد حكيما جاهلا كنت او عالما وقال بعض الادباء

سعد من لسانه صمت وكلامه قوت وقال بعض العلماء من اعوذ ما يتكلم به العاقل ان لا يتكلم الا لحاجته او محجته ولا يفكر الا فى عاقبته او فى آخرته وقال بعض البلغاء الزم الصمت فانه يكسبك صفو المحبة ويؤمنك سوء المغبة ويلبسك ثوب الوقار ويكفيك مونة الاعتذار وقال بعض الفصحاء اعقل لسانك الا عن حق توضحه او باطل تدحضه اوحكمة تنشرها او نعمة تذكرها وقال الشاعر

* رأيت العز فى ادب وعقل * وفى الجهل المزلة والهوان *
* وما حسن الرجال لهم بحسن * اذا لم يسعد الحسن البيان *
* كفى بالمرء عيبا ان تراه * له وجه وليس له لسان *

واعلم ان للكلام شروطا لا يسلم المتكلم من الزلل الا بها ولا يعرى من النقص الا بعد ان يستوفيها وهى اربعة فالشرط الاول ان يكون الكلام لداع يدعو اليه اما فى اجتلاب نفع او دفع ضرر والشرط الثانى ان يأتى به فى موضعه ويتوخى به اصابة فرصته والشرط الثالث ان يقتصر منه على قدر حاجته والشرط الرابع ان يتخير اللفظ الذى يتكلم به فهذه اربعة شروط متى اخل المتكلم بشرط منها فقد اوهن فضيلة باقيها وسنذكر تعليل كل شرط منها بما ينبئ عن لزومه ❊ فاما الشرط الاول ❊ وهو الداعى الى الكلام فلان ما لا داعى له هذيان وما لا سبب له هجر ومن سامح نفسه فى الكلام اذا عن ولم يراع صحة دواعيه واصابة معانيه كان قوله مرذولا ورأيه معلولا كالذى حكى ابن عائشة ان شابا كان يجالس الاحنف ويطيل الصمت فاعجب ذلك الاحنف فخلت الحلقة يوما فقال له الاحنف تكلم يا ابن اخى فقال يا عم لو ان رجلا سقط من شرف هذا المسجد هل كان يضره شئ فقال يا ابن اخى ليتنا تركناك مستورا ثم تمثل الاحنف بقول الاعور الشنى

* وكائن ترى من صاحب لك معجب * زيادته او نقصه فى التكلم *
* لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق الا صورة اللحم والدم *

وكالذى حكى عن ابى يوسف الفقيه ان رجلا كان يجلس اليه فيطيل الصمت فقال له ابو يوسف ألا تسأل قال بلى متى يفطر الصائم قال اذا غربت الشمس

قال

قال فان لم تغرب الى نصف الليل قال فتبسم ابو يوسف رحمه الله وتمثل ببيتى الخطفى جد جرير

* عجبت لازرآء العيي بنفسه * وصمت الذى قد كان بالعلم اعلما *
* وفى الصمت ستر للغبي وانما * صحيفة لب المرء ان يتكلما *

ومما اطرفك به عنى انى كنت يوما فى مجلسى بالبصرة وانا مقبل على تدريس اصحابى اذ دخل على رجل مسن قد ناهز الثمانين او جاوزها فقال لى قد قصدتك بمسألة اخترتك لها فقلت اسأل عافك الله وظننته يسأل عن حادث نزل به فقال اخبرنى عن نجم ابليس ونجم آدم ما هو فان هذين لعظم شانهما لا يسأل عنهما الا علماء الدين فعجبت وعجب من فى مجلسى من سؤاله وبدر اليه قوم منهم بالانكار والاستخفاف فكففتهم وقلت هـذا لا يقنع مع ما ظهر من حاله الا بجواب مثله فقبلت عليه وقلت يا هـذا ان المنجمين يزعمون ان نجوم الناس لا تعرف الا بمعرفة مواليدهم فان ظفرت بمن يعرف ذلك فاسأله فحينئذ اقبل على وقال جزاك الله خيرا ثم انصرف مسرورا فلما كان بعد ايام عاد وقال ما وجدت الى وقتى هذا من يعرف مولد هـذين فانظر الى هؤلاء كيف ابانوا بالكلام عن جهلهم واعربوا بالسؤال عن نقصهم اذ لم يكن لهم داع اليه ولا روية فيما تكلموا به ولو صدر عن روية ودعا اليه داع لسلموا من شينه وبرئوا من عيبه ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم لسان العاقل من وراء قلبه فاذا اراد الكلام رجع الى قلبه فان كان له تكلم وان كان عليه امسك وقلب الجاهل من وراء لسانه يتكلم بكل ما عرض له وقال عمر بن عبد العزيز من لم يعد كلامه من عمله كثرت خطاياه وقال بعض الحكماء عقل المرء مخبوء تحت لسانه وقال بعض البلغاء احبس لسانك قبل ان يطيل حبسك او يتلف نفسك فلا شئ اولى بطول حبس من لسان يقصر عن الصواب ويسرع الى الجواب وقال ابو تمام الطائى

* ومما كانت الحكماء قالت * لسان المرء من تبع الفؤاد *

وكان بعض الحكماء يحسم الرخصة فى الكلام ويقول اذا جالست الجهال فأنصت لهم واذا جالست العلماء فأنصت لهم فان فى انصاتك للجهال زيادة فى الحلم وفى انصاتك للعلماء زيادة فى العلم واما ❊ الشرط الثانى ❊ فهو ان يأتى بالكلام فى

موضعه لان الكلام فى غير حينه لا يقع موقع الانتفاع به وما لا ينفع من الكلام فقد تقدم القول بانه هذيان وهجر فان قدم ما يقتضى التأخير كان عجلة وخرقا وان اخر ما يقتضى التقديم كان توانيا وعجزا لان لكل مقام قولا وفى كل زمان عملا وقد قال الشاعر

* تضع الحديث على مواضعه * وكلامها من بعدها نزر *

واما ﴿ الشرط الثالث ﴾ وهو ان يقتصر منه على قدر حاجته فان الكلام ان لم ينحصر بالحاجة ولم يقدر بالكفاية لم يكن لحده غاية ولا لقدره نهاية وما لم يكن من الكلام محصورا كان حصرا ان قصر وهذرا ان كثر وروى ان اعرابيا تكلم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وطول فقال النبى صلى الله عليه وسلم كم دون لسانك من حجاب قال شفتاى واسنانى قال فان الله عز وجل يكره الانبعاق فى الكلام فنضر الله وجه امرئ اوجز فى كلامه فاقتصر على حاجته وحكى ان بعض الحكماء رأى رجلا يكثر الكلام ويقل السكوت فقال ان الله تعالى انما خلق لك اذنين ولسانا واحدا ليكون ما تسمعه ضعف ما تتكلم به وقال بعض الحكماء من كثر كلامه كثرت آثامه وقال ابن مسعود انذركم فضول المنطق وقال بعض البلغاء كلام المرء بيان فضله وترجمان عقله فاقصره على الجميل واقتصر منه على القليل واياك ما يسخط سلطانك ويوحش اخوانك فمن اسخط سلطانه تعرض للمنية ومن اوحش اخوانه تبرأ من الحرية وقال بعض الشعراء

* وزن الكلام اذا نطقت فانما * يبدى عيوب ذوى العيوب المنطق *

ولمخالفة قدر الحاجة من الكلام حالتان تقصير يكون حصرا وتكثير يكون هذرا وكلاهما شين وشين الهذر اشنع وربما كان فى الغالب اخوف قال النبى صلى الله عليه وسلم وهل يكب الناس على مناخرهم فى نار جهنم الا حصائد السنتهم وقال بعض الحكماء مقتل الرجل بين فكيه وقال بعض البلغاء الحصر خير من الهذر لان الحصر يضعف الحجة والهذر يتلف المحجة وقد قال الشاعر

* رأيت اللسان على اهله * اذا ساسه الجهل ليثا مغيرا *

وقال بعض الادباء يا رب ألسنة كالسيوف تقطع اعناق اصحابها وما ينقص من

هيئات الرجال يزيد فى بهائها وأبابهـا وقد ذهب بعضهم الى ان الكلام اذا كثر عن قدر الحاجة وزاد على حد الكفاية وكان صوابا لا يشوبه خطل وسليما لا يتعوده زلل فهو البيان والسحر الحلال وقال سليمان بن عبد الملك وقد ذم الكلام فى مجلسه كلا ان من تكلم فاحسن قدر على ان يسكت فيحسن وليس من سكت فاحسن قدر على ان يتكلم فيحسن ووصف بعضهم الكاتب فقال الكاتب من اذا اخذ شبرا كفاه واذا وجد طومارا املاه وانشد بعضهم فى خطباء اياد

* يرمون بالخطب الطوال وتارة * وحى الملاحظ خيفة الرقباء *

وقال الهيثم بن صالح لابنه يا بنى اذا اقللت من الكلام اكثرت من الصواب فقال يا ابت فان انا اكثرت واكثرت يعنى كلاما وصوابا فقال يا بنى ما رأيت موعوظا احق بان يكون واعظا منك وانشدت لابى الفتح البستى

* تكلم وسدد ما استطعت فانما * كلامك حى والسكوت جماد *
* فان لم تجد قولا سديدا تقوله * فصمتك عن غير السداد سداد *

وقيل لاياس بن معاوية ما فيك عيب الا كثرة الكلام فقال أفتسمعون صوابا او خطأ قالوا لا بل صوابا قال فالزيادة من الخير خير وقال ابو عثمان الجاحظ للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية وما فضل عن مقدار الاحتمال ودعا الى الاستثقال والملال فذلك الفاضل هو الهذر وصدق ابو عثمان لان الاكثار منه وان كان صوابا يمل السامع ويكل الخاطر وهو صادر عن اعجاب به لولاه قصر عنه ومن اعجب بكلامه استرسل فيه والمسترسل فى الكلام كثير الزلل دائم العثار وقال بعض الحكماء من اعجب بقوله اصيب بعقله وليس لكثرة الهذر رجاء يقابل خوفه ولا نفع يوازى ضره لانه يخاف من نفسه الزلل ومن سامعيه الملل وليس فى مقابلة هذين حاجة داعية ولا نفع مرجو وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ابغضكم الىّ المتفيهق المكثار والملح المهذار وسأل رجل حكيما فقال متى اتكلم قال اذا اشتهيت الصمت فقال متى اصمت قال اذا اشتهيت الكلام وقال جعفر بن يحيى اذا كان الايجاز كافيا كان الاكثار عيا وان كان الاكثار واجبا كان التقصير عجزا وقيل فى منثور الحكم اذا تم العقل

نقص الكلام وقال بعض الادباء من اطال صمته اجتلب من الهيبة ما ينفعه ومن الوحشة ما لا يضره وقال بعض البلغاء عى تسلم منه خير من منطق تندم عليه فاقتصر من الكلام على ما يقيم حجتك ويبلغ حاجتك واياك وفضوله فانه يزل القدم ويورث الندم وقال بعض الفصحاء فم العاقل ملجم اذا هم بالكلام احجم وفم الجاهل مطلق كلما شاء اطلق وقال بعض الشعراء

* ان الكلام يعد القوم جلوته * حتى يلج به عى واكثار *

واما ﴿ الشرط الرابع ﴾ وهو اختيار اللفظ الذى يتكلم به فلأن اللسان عنوان الانسان يترجم عن مجهوله ويبرهن عن محصوله فيلزم ان يكون بتهذيب الفاظه حريا وبتقويم لسانه مليا روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لعمه العباس يعجبنى جمالك قال وما جمال الرجل يا رسول الله قال لسانه وقال خالد ابن صفوان ما الانسان لولا اللسان هل الا بهيمة مهملة او صورة ممثلة وقال بعض الحكماء اللسان وزير الانسان وقال بعض الادباء كلام المريد وافد ادبه وقال بعض البلغاء يستدل على عقل الرجل بقوله وعلى اصله بفعله وقال بعض الشعراء

* وان لسان المرء ما لم تكن له * حصاة على عوراته لدليل *

وليس يصح اختيار الكلام لا لمن اخذ نفسه بالبلاغة وكلفها لزوم الفصاحة حتى يصير متدربا بها معتادا لها فلا يأتى بكلام مستكره اللفظ ولا مختل المعنى لان البلاغة ليست على معان مفردة ولا لالفاظها غاية وانما البلاغة ان تكون بالمعانى الصحيحة مستودعة فى الفاظ فصيحة فتكون فصاحة الالفاظ مع صحة المعانى هى البلاغة وقد قيل لليونانى ما البلاغة قال اختيار الكلام وتصحيح الاقسام وقيل ذلك للرومى فقال حسن الاختصار عند البديهة والغرارة يوم الاطالة وقيل للهندى فقال معرفة الفصل من الوصل وقيل للعربى فقال ما حسن ايجازه وقل مجازه وقيل للبدوى فقال ما دون السحر وفوق الشعر يفت الخردل ويحط الجندل وقيل للحضرى فقال ما كثر اعجازه وتناسبت صدوره واعجازه وقال ابن المقفع البلاغة قلة الحصر والجراءة على البشر وسأل الحجاج ابن القرية عن الايجاز قال ان تقول فلا تبطئ وان تصيب فلا تخطئ وقال الشاعر

* خير الكلام قليل * على كثير دليل *
* والعي معنى قصير * يحويه لفظ طويل *
* وفي الكلام فضول * وفيه قال وقيل *

واما صحة المعانى فتكون من ثلاثة اوجه احدها ايضاح تفسيرها حتى لا تكون مشكلة ولا مجملة والثانى استيفاء تقسيمها حتى لا يدخل فيها ما ليس منها ولا يخرج عنها ما هو فيها والثالث صحة مقابلاتها والمقابلة تكون من وجهين احدهما مقابلة المعنى بما يوافقه وحقيقة هذه المقاربة لان المعانى تصير متشاكلة والثانى مقابلته بما يضاده وهو حقيقة المقابلة وليس للمقابلة الا احد هذين الوجهين الموافقة فى الائتلاف والمضادة مع الاختلاف فاما فصاحة الالفاظ فتكون بثلاثة اوجه ﴿احدها﴾ مجانبة الغريب الوحشى حتى لا يمجه سمع ولا ينفر منه طبع ﴿والثانى﴾ تنكب اللفظ المستبذل والعدول عن الكلام المسترذل حتى لا يستسقطه خاصى ولا ينبو عن فهم عامى كما قال الجاحظ فى كتاب البيان اما انا فلم ار قوما امثل طريقة فى البلاغة من الكتاب وذلك انهم قد التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا عاميا ﴿والثالث﴾ ان يكون بين الالفاظ ومعانيها مناسبة ومطابقة اما المطابقة فهى ان تكون الالفاظ كالقوالب لمعانيها فلا تزيد عليها ولا تنقص عنها وقال بشر بن المعتمر فى وصيته فى البلاغة اذا لم تجد اللفظة واقعة موقعها ولا صائرة الى مستقرها ولا حالة فى مركزها بل وجدتها قلقة فى مكانها نافرة عن موضعها فلا تكرهها على القرار فى غير موضعها فانك ان لم تتعاط قريض الشعر الموزون ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور لم يعبك بترك ذلك احد واذا انت تكلفتهما ولم تكن حاذقا فيهما عابك من انت اقل عيبا منه وازرأ عليك من انت فوقه واما المناسبة فهى ان يكون المعنى يليق ببعض الالفاظ اما لعرف مستعمل او لاتفاق مستحسن حتى اذا ذكرت تلك المعانى بعد تلك الالفاظ كانت نافرة عنها وان كانت افصح واوضح لاعتياد ما سواها وقال بعض البلغاء لا يكون البليغ بليغا حتى يكون معنى كلامه اسبق الى فهمك من لفظه الى سمعك واما معاطاة الاعراب وتجنب اللحن فانما هو من صفات الصواب والبلاغة اعلى منه رتبة واشرف منزلة وليس لمن لحن فى كلامه مدخل

فى الادباء فضلا عن ان يكون فى عداد البلغاء • واعلم ان للكلام آدابا ان اغفلها المتكلم اذهب رونق كلامه وطمس بهجة بيانه ولها الناس عن محاسن فضله بمساوى ادبه فعدلوا عن مناقبه بذكر مثالبه ﴿ فمن آدابه ﴾ ان لا يتجاوز فى مدح ولا يسرف فى ذم وان كانت النزاهة عن الذم كرما والتجاوز فى المدح ملقا يصدر عن مهانة والسرف فى الذم انتقام يصدر عن شر وكلاهما شين وان سلم من الكذب يروى انه لما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد تميم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن الاهتم عن قيس بن عاصم فمدحه فقال قيس والله يا رسول الله لقد علم انى خير مما وصف ولكن حسدنى فذمه عمرو وقال والله يا رسول الله لقد صدقت فى الاولى وما كذبت فى الاخرى لانى رضيت فى الاولى فقلت احسن ما علمت وسخطت فى الاخرى فقلت اقبح ما علمت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من البيان لسحرا على ان السلامة من الكذب فى المدح والذم متعذرة لا سيما اذا مدح تقربا وذم تحنقا وحكى عن الاحنف بن قيس انه قال سهرت ليلتى افكر فى كلمة ارضى بها سلطانى ولا اسخط بها ربى فما وجدتها وقال عبد الله بن مسعود ان الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه فيخرج وما معه دينه قيل وكيف ذلك قال يرضيه بما يسخط الله عز وجل وسمع ابن الرومى رجلا يصف رجلا ويبالغ فى مدحه فانشأ يقول

* اذا ما وصفت امرءا لامرئ * فلا تغل فى وصفه واقصد *
* فانك ان تغل تغل الظنو * ن فيه الى الامد الابعد *
* فيضأل من حيث عظمته * لفضل المغيب على المشهد *

﴿ ومن آدابه ﴾ ان لا تبعثه الرغبة والرهبة على الاسترسال فى وعد او وعيد يعجز عنهما ولا يقدر على الوفاء بهما فان من اطلق بهما لسانه وارسل فيهما عنانه ولم يستثقل من القول ما يستثقله من العمل صار وعده نكثا ووعيده عجزا وحكى ان سليمان بن داود عليهما السلام مر بعصفور يدور حول عصفورة فقال لاصحابه هل تدرون ما يقول لها قالوا لا يا نبى الله قال انه يخطبها لنفسه ويقول لها زوجينى نفسك اسكنك اىّ غرف دمشق شئت وقال سليمان كذب العصفور فان غرف دمشق مبنية بالصخور لا يقدر ان يسكنها هناك ولكن كل

خاطب

خاطب كاذب ﴿ ومن آدابه ﴾ ان قال قولا حققه بفعله واذا تكلم بكلام صدقه بعمله فان ارسال القول اختيار والعمل به اضطرار ولئن يفعل ما لم يقل اجمل من ان يقول ما لم يفعل وقال بعض الحكماء احسن الكلام ما لا يحتاج فيه الى الكلام اى يكتفى بالفعل من القول وقال محمود الوراق

* القول ما صدقه الفعل * والفعل ما وكده العقل *
* لا يثبت القول اذا لم يكن * يقله من تحته الاصل *

﴿ ومن آدابه ﴾ ان يراعى مخارج كلامه بحسب مقاصده واغراضه فان كان ترغيبا قرنه باللين واللطف وان كان ترهيبا خلطه بالخشونة والعنف فان لين اللفظ فى الترهيب وخشونته فى الترغيب خروج عن موضعهما وتعطيل للمقصود بهما فيصير الكلام لغوا والغرض المقصود لهوا وقد قال ابو الاسود الديلى لابنه يا بنى ان كنت فى قوم فلا تتكلم بكلام من هو فوقك فيمقتوك ولا بكلام من هو دونك فيزدروك ﴿ ومن آدابه ﴾ ان لا يرفع بكلامه صوتا مستنكرا ولا ينزعج له انزعاجا مستهجنا وليكف عن حركة تكون طيشا وعن حركة تكون عيا فان نقص الطيش اكثر من فضل البلاغة وقد حكى ان الحجاج قال لاعرابى أخطيب انا قال نعم لولا انك تكثر الرد وتشير باليد وتقول اما بعد ﴿ ومن آدابه ﴾ ان يتجافى هجر القول ومستقبح الكلام وليعدل الى الكناية عما يستقبح صريحه ويستهجن فصيحه ليبلغ الغرض ولسانه نزه وادبه مصون وقد قال محمد بن على فى قوله تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما قال كانوا اذا ذكروا الفروج كنوا عنها وكما انه يصون لسانه عن ذلك فهكذا يصون عنه سمعه فلا يسمع خناء ولا يصغى الى فحش فان سماع الفحش داع الى اظهاره وذريعة الى انكاره واذا وجد عن الفحش معرضا كف قائله وكان اعراضه احد النكيرين كما ان سماعه احد الباعثين وانشدنى ابو الحسن بن الحارث الهاشمى

* تحر من الطرق اوساطها * وعد عن الموضع المشتبه *
* وسمعك صن عن قبيح الكلا * م كصون اللسان عن النطق به *
* فانك عند استماع القبيح شريك لقائله فانتبه *

ومما يجرى مجرى فحش القول وهجره فى وجوب اجتنابه ولزوم تنكبه ما كان شنيع البديهة مستنكر الظاهر وان كان عقب التأمل سليما وبعد الكشف والروية مستقيما كالذى رواه الازدى عن الصولى لبعض المتكلمين من الشعراء

* انى شيخ كبير * كافر بالله سيرى *
* انت ربى والهى * رازق الطفل الصغير *

يريد بقوله كافر اى لابس لان الكفر التغطية ولذلك سمى الكافر بالله كافرا لانه قد غطى نعمة الله بمعصيته وقوله بالله سيرى يقسم عليها ان تسير وقوله انت ربى يعنى ربى ولدك من التربية والهى رازق الطفل الصغير كما انه رازق الولد الكبير فانظر الى هذا التكلف الشنيع والتعمق البشيع ما اعتاض من حيث البديهة اذا سلم بعد الفكر والروية الا لؤما ان حسن فيه الظن او ذما ان قوى فيه الارتياب وقلما يكون ذلك الا من خليع بطر او مرتاب اشر فاما الحديث المروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لا تصلوا على النبى فخارج من هذا النوع من التلبيس وفى تأويله وجهان احدهما انه اراد النبى عن الصلاة فى المكان المرتفع المحدودب مأخوذ من النبوة والثانى انه اراد الطريق ومنه سمى رسل الله انبياء لانهم الطرق اليه وانما زال عنه التلبيس اذ قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم وان كان من قول غيره تلبيسا شنيعا لان موضوع خطابه وشواهد احواله يصرفان كلامه عن التجوز والاسترسال فى امر او نهى الى ما يجوز ان يرد به شرع وينهى عنه نبى وليس يمتنع ذلك فى غيره ولذلك افترق وجوده منه ومن غيره ومن آدابه ان يجتنب امثال العامة الغوغاء ويتخصص بامثال العلماء الادباء فان لكل صنف من الناس امثالا تشاكلهم فلا تجد لساقط الا مثلا ساقطا وتشبيها مستقبحا وللسقاط امثال فتها تمثلهم للشئ المريب كما قال الصنوبرى

* اذا ما كنت ذا بول صحيح * ألا فاضرب به وجه الطبيب *

ولذلك علتان احداهما ان الامثال من هواجس الهمم وخطرات النفوس ولم يكن لذى الهمة الساقطة الا مثل مرذول وتشبيه معلول والثانية ان الامثال مستخرجة من احوال المتمثلين بها فبحسب ما هم عليه تكون امثالهم فلهاتين

العلتين

العلتين وقع الفرق بين امثال الخاصة وامثال العامة وربما الف المتخصص مثلا
عاميا او تشبيها ركيكا لكثرة ما يطرق سمعه من مخالطة الاراذل فيسترسل فى
ضربه مثلا فيصير به مثلا كالذى حكى عن الاصمعى ان الرشيد سأله يوما عن
انساب بعض العرب فقال على الخبير سقطت يا امير المؤمنين فقال له الفضل بن
الربيع اسقط الله جنبيك أتخاطب امير المؤمنين بمثل هذا الخطاب فكان الفضل بن
الربيع مع قلة علمه اعلم بما يستعمل من الكلام فى محاورة الخلفاء من الاصمعى الذى
هو واحد عصره وقريع دهره وللامثال من الكلام موقع فى الاسماع وتأثير فى القلوب
لا يكاد الكلام المرسل يبلغ مبلغها ولا يؤثر تأثيرها لان المعانى بها لائحة والشواهد
بها واضحة والنفوس بها وامقة والقلوب بها واثقة والعقول لها موافقة
فلذلك ضرب الله الامثال فى كتابه العزيز وجعلها من دلائل رسله واوضح بها
الحجة على خلقه لانها فى العقول معقولة وفى القلوب مقبولة ولها اربعة شروط
احدها صحة التشبيه والثانى ان يكون العلم بها سابقا والكل عليها موافقا
والثالث ان يسرع وصولها للفهم ويعجل تصورها فى الوهم من غير ارتياء
فى استخراجها ولا كد فى استنباطها والرابع ان تناسب حال السامع لتكون ابلغ
تأثيرا واحسن موقعا فاذا اجتمعت فى الامثال المضروبة هذه الشروط الاربعة
كانت زينة للكلام وجلاء للمعانى وتدبرا للافهام ﴿ الفصل الثانى فى الصبر
والجزع ﴾ اعلم ان من حسن التوفيق وامارات السعادة الصبر على الملمات
والرفق عند النوازل وبه نزل الكتاب وجاءت السنة قال الله تعالى يا ايها الذين
آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون يعنى اصبروا على ما
افترض الله عليكم وصابروا عدوكم ورابطوا فيه تأويلان احدهما على الجهاد
والثانى على انتظار الصلوات وعن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى عليه وسلم
ألا ادلكم على ما يحبط الله به الخطايا ويرفع به الدرجات قالوا بلى يا رسول الله
قال اسباغ الوضوء عند المكاره وكثرة الخطا الى المسجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة
فذلكم الرباط فنزل الكتاب بتأكيد الصبر فيما امر به وندب اليه وجعله من
عزائم التقوى فيما افترضه وحث عليه وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه
قال الصبر ستر من الكروب وعون على الخطوب وقال على بن ابى طالب كرم

الله وجهه الصبر مطية لا تكبو والقناعة سيف لا ينبو وقال عبد الحميد لم اسمع اعجب من قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه لو ان الصبر والشكر بعيران ما باليت ايهما ركبت وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما افضل العده الصبر على الشدة وقال بعض البلغاء من خير خلالك الصبر على اختلالك وقيل فى منثور الحكم من احب البقاء فليعد للمصائب قلبا صبورا وقال بعض الحكماء بالصبر على مواقع الكره تدرك الحظوظ وقال بعض الشعراء وهو عبيد بن الابرص

* صبر النفس عند كل ملم * ان فى الصبر حيلة المحتال *
* لا تضيقن فى الامور فقد تكشف غماؤها بغير احتيال *
* ربما تجزع النفوس من الامر له فرجة كحل العقال *

وقال ابن المقفع فى كتاب اليتيمة الصبر صبران فاللئام اصبر اجساما والكرام اصبر نفوسا وليس الصبر الممدوح صاحبه ان يكون الرجل قوى الجسد على الكد والعمل لان هذا من صفات الحمير ولكن ان يكون للنفس غلوبا وللامور متحملا ولجاشه عند الحفاظ مرتبطا واعلم ان الصبر على ستة اقسام وهو فى كل قسم منها محمود ﴿ فاول اقسام ﴾ واولاها الصبر على امتثال ما امر الله تعالى به والانتهاء عما نهى الله عنه لان به تخلص الطاعة وبها يصح الدين وتؤدى الفروض ويستحق الثواب كما قال فى محكم الكتاب انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد وليس لمن قل صبره على طاعة حظ من بر ولا نصيب من صلاح ومن لم ير لنفسه صبرا يكسبها ثوابا ويدفع عنها عقابا كان من سوء الاختيار بعيدا من الرشاد حقيقا بالضلال وقد قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى يا من يطلب من الدنيا ما لا يلحقه أترجو ان تلحق من الآخرة ما لا تطلبه وقال ابو العتاهية رحمه الله تعالى

* اراك امرءا ترجو من الله عفوه * وانت على ما لا يحب مقيم *
* تدل على التقوى وانت مقصد * فيا من يداوى الناس وهو سقيم *

وهذا النوع من الصبر انما يكون لفرط الجزع وشدة الخوف فان من خاف الله

عز وجل صبر على طاعته ومن جزع من عقابه وقف عند اوامره ﴿ والقسم الثانى ﴾ الصبر على ما تقتضيه اوقاته من رزية قد اجهده الحزن عليها او حادثة قد اكده اللهم بها فان الصبر عليها يعقبه الراحة منها ويكسبه المثوبة عنها فان صبر طائعا والا احتمل هما لازما وصبر كارها آثما وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال يقول الله تعالى من لم يرض بقضائى ويصبر على بلائى فليختر ربا سواى وقال على بن ابى طالب كرم الله وجهه للاشعث بن قيس انك ان صبرت جرى عليك القلم وانت مأجور وان جزعت جرى عليك القلم وانت مأزور وقد ذكر ذلك ابو تمام فى شعره فقال

* وقال علىّ فى التعازى لاشعث * وخاف عليه بعض تلك المآثم *
* أتصبر للبلوى عزاء وخشية * فتؤجر او تسلو سلو البهائم *

وقال شبيب بن شيبة للمهدى ان احق ما تصبر عليه ما لم تجد الى دفعه سبيلا وانشد

* ولئن تصبك مصيبة فاصبر لها * عظمت مصيبة مبتل لا يصبر *

﴿ وقال آخر ﴾

* تصبرت مغلوبا وانى لموجع * كما صبر الظمآن فى البلد القفر *
* وليس اصطبارى عنك صبر استطاعة * ولكنه صبر امرّ من الصبر *

﴿ والقسم الثالث ﴾ الصبر على ما فات ادراكه من رغبة مرجوة واعوز نيله من مسرة مأمولة فان الصبر عنها يعقب السلو منها والاسف بعد اليأس خرق وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من اعطى فشكر ومنع فصبر وظلم فغفر وظلم فاستغفر فاولئك لهم الامن وهم مهتدون وقال بعض الحكماء اجعل ما طلبته من الدنيا فلم تنله مثل ما لا يخطر ببالك فلم تقله وقال بعض الشعراء

* اذا ملك القضاء عليك امرا * فليس يحله غير القضاء *
* فما لك والمقام بدار ذل * ودار العز واسعة الفضاء *

وقال بعض الحكماء ان كنت تجزع على ما فات من يدك فاجزع على ما لا يصل اليك فاخذه بعض الشعراء فقال

* لا تطل الحزن على فائت * فقلما يجدى عليك الحزن *

* سيان محزون على فائت * ومضمر حزنا لما لم يكن *

﴿ والقسم الرابع ﴾ الصبر فيما يخشى حدوثه من رهبة يخافها او يحذر حلوله من نكبة يخشاها فلا يتعجل هم ما لم يأت فان اكثر الهموم كاذبة وان الاغلب من الخوف مدفوع وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال بالصبر يتوقع الفرج ومن يدمن قرع باب يلج وقال الحسن البصرى رحمه الله لا تحملن على يومك هم غدك فحسب كل يوم همه وانشد الجاحظ لحارثة بن زيد

* اذا الهم امسى وهو داء فأمضه * ولست بممضيه وانت تعادله *
* ولا تنزلن امر الشديدة بامرئ * اذا هم امرا عوقته عواذله *
* وقل للفؤاد ان تجد بك نزوة * من الروع فافرح اكثر الهم باطله *

﴿ والقسم الخامس ﴾ الصبر فيما يتوقعه من رغبة يرجوها وينتظر من نعمة يأملها فانه ان ادهشه التوقع لها واذهله التطلع اليها انسدت عليه سبل المطالب واستفزه تسويل المطامع فكان ابعد لرجائه واعظم لبلائه واذا كان مع الرغبة وقورا وعند الطلب صبورا انجلت عنه عماية الدهش وانجابت عنه حيرة الوله فابصر رشده وعرف قصده وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الصبر ضياء يعنى والله اعلم انه يكشف ظلم الحيرة ويوضح حقائق الامور وقال اكثم بن صيفى من صبر ظفر وقال ابن المقفع كان مكتوبا فى قصر ازدشير الصبر مفتاح الدرك وقال بعض الحكماء بحسن التأنى تسهل المطالب وقال بعض البلغاء من صبر نال المنى ومن شكر حصن النعمى وقال محمد ابن بشير

* ان الامور اذا سدت مطالبها * فالصبر يفتق منها كل ما ارتتجا *
* لا تيأسن وان طالت مطالبه * اذا استعنت بصبر ان ترى فرجا *
* اخلق بذى الصبر ان يحظى بحاجته * ومدمن القرع للابواب ان يلجا *

﴿ والقسم السادس ﴾ الصبر على ما نزل من مكروه او حل من امر مخوف فبالصبر فى هذا تنفتح وجوه الآراء وتستدفع مكائد الاعداء فان من قل صبره عزب رأيه واشتد جزعه فصار صريع همومه وفريسة غمومه وقد قال الله تعالى واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الامور وروى عن ابن عباس رضى الله

عنهما

عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان استطعت ان تعمل لله بالرضى فى اليقين فافعل وان لم تستطع فاصبر فان فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا • واعلم ان النصر مع الصبر والفرج مع الكرب واليسر مع العسر وقال على بن ابى طالب رضى الله عنه الصبر مستأصل الحدثان والجزع من اعوان الزمان وقال بعض الحكماء بمفتاح عزيمة الصبر تعالج مغاليق الامور وقال بعض البلغاء عند انسداد الفرج تبدو مطالع الفرج وروى ابن عباس رضى الله عنهما ان سليمان بن داود عليهما السلام لما استكد شياطينه فى البناء شكوا ذلك الى ابليس لعنه الله فقال ألستم تذهبون فرغا وترجعون مشاغيل قالوا بلى قال ففى ذلك راحة فبلغ ذلك سليمان على نبينا وعليه السلام فشغلهم ذاهبين وراجعين فشكوا ذلك الى ابليس لعنه الله فقال ألستم تستريحون بالليل قالوا بلى قال ففى هذا راحة لكم نصف دهركم فبلغ ذلك سليمان عليه السلام فشغلهم بالليل والنهار فشكوا ذلك الى ابليس لعنه الله فقال الآن جاءكم الفرج فما لبث ان اصيب سليمان عليه السلام ميتا على عصاه فاذا كان هذا فى نبى من انبياء الله يعمل بامره ويقف على حده فكيف بما جرت به الاقدار من ايد عادية وساقه القضاء من حوادث نازلة هل تكون مع التناهى الا منقرضة وعند بلوغ الغاية الا منحسرة وانشد بعض الادباء لعثمان بن عفان رضى الله عنه

* خليلى لا والله ما من ملمة * تدوم على حى وان هى جلت *
* فان نزلت يوما فلا تخضعن لها * ولا تكثر الشكوى اذا النعل زلت *
* فكم من كريم قد بلى بنوائب * فصابرها حتى مضت واضمحلت *
* وكم غمرة هاجت بامواج غمرة * تلقيتها بالصبر حتى تجلت *
* وكانت على الايام نفسى عزيزة * فلما رأت صبرى على الذل ذلت *
* فقلت لها يا نفس موتى كريمة * فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت *

ولتسهيل المصائب وتخفيف الشدائد اسباب اذا قارنت حزما وصادفت عزما هان وقعها وقل تأثيرها وضررها ❊ فمنها ❊ اشعار النفس بما تعلمه من نزول الفناء وتقضى المسار وان لها آجالا منصرمة ومددا منقضية اذ ليس

للدنيا حال تدوم ولا لمخلوق فيها بقاء وروى ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ما مثلى ومثل الدنيا الا كمثل راكب مال الى ظل شجرة فى يوم صائف ثم راح وتركها وسئل على بن ابى طالب رضى الله عنه عن الدنيا فقال تغر وتضر وتمر وسأل بعض خلفاء بنى العباس جليسا له عن الدنيا فقال اذا اقبلت ادبرت وقال عمرو بن عبيد الدنيا امد والآخرة ابد وقال انوشروان ان احببت ان لا تغتم فلا تقتن ما به تهتم فاخذه بعض الشعراء فقال

* ألم تر ان الدهر من سوء فعله * يكدر ما اعطى ويسلب ما اسدى *
* فمن سره ان لا يرى ما يسوءه * فلا يتخذ شيئا يخاف له فقدا *

❊ وانشد بعض الحكماء ❊

* لحكيمنا بقراط خير قضية * ووصية تنفى الهموم الركدا *
* قال الهموم تكون من طبع الورى * فى لبث ما فى طبعه ان ينفدا *
* فاذا اقتنيت من الزجاجة قابلا * للكسر فانكسرت فلا تك مكمدا *

❊ وانشدنى بعض اهل العلم لسعيد بن مسلم ❊

* انما الدنيا هبات * وعوار مسترده *
* شدة بعد رخاء * ورخاء بعد شده *

ولما قتل بزرجمهر وجد فى جيب قميصه رقعة فيها مكتوب اذا لم يكن جد ففيم الكد وان لم يكن للامر دوام ففيم السرور واذا لم يرد الله دوام ملك ففيم الحيلة وقال ابن الرومى

* رأيت حياة المرء رهنا بموته * وصحته رهنا كذلك بالسقم *
* اذا طاب لى عيش تنغص طيبه * بصدق يقينى ان سيذهب كالحلم *
* ومن كان فى عيش يراعى زواله * فذلك فى بؤس وان كان فى نعم *

❊ ومنها ❊ ان يتصور انجلاء الشدائد وانكشاف الهموم وانها تقدر باوقات لا تنصرم قبلها ولا تستديم بعدها فلا تقصر بجزع ولا تطول بصبر وان كل يوم يمر بها يذهب منها بشطر ويأخذ منها بنصيب حتى تنجلى وهو عنها غافل وحكى ان الرشيد حبس رجلا ثم سأل عنه بعد زمان فقال للمتوكل به قل له

كل

كل يوم يمضى من نعمه يمضى من بؤسى مثله والامر قريب والحكم لله تعالى فاخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال

* لو ان ما انتم فيه يدوم لكم * ظننت ما انا فيه دائما ابدا *
* لكننى عالم انى وانكم * سنستجد خلاف الحالتين غدا *

﴿ وانشدت لبعض الشعراء ﴾

* عواقب مكروه الامور خيار * وايام ضر لا تدوم قصار *
* وليس بباق بؤسها ونعيمها * اذا كر ليل ثم كر نهار *

﴿ وانشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين حضرته الوفاة ﴾

* ألم تر ان ربك ليس تحصى * اياديه الحديثة والقديمه *
* تسل عن الهموم فليس شئ * يقوم ولا همومك بالمقيمه *
* لعل الله ينظر بعد هذا * اليك بنظرة منه رحيمه *

﴿ومنها﴾ ان يعلم ان فى ما وقى من الرزايا وكفى من الحوادث ما هو اعظم من رزيته واشد من حادثته ليعلم انه ممنوح بحسن الدفاع ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم ان لله تعالى فى اثناء كل محنة منحة وقيل للشعبى فى نائبة كيف اصبحت قال بين نعمتين خير منشور وشر مستور وقال بعض الشعراء

* لا تكره المكروه عند حلوله * ان العواقب لم تزل متباينه *
* كم نعمة لا تستقل بشكرها * لله فى طى المكاره كامنه *

﴿ ومنها ﴾ ان يتأسى بذوى الغير ويتسلى باولى العبر ويعلم انهم الاكثرون عددا والاسرعون مددا فيستجد من سلوة الاسى وحسن العزا ما يخفف شجوه ويقل هلعه وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ألصقوا بذوى الغير تتسع قلوبكم وعلى مثل ذلك كانت مراثى الشعراء قال البحترى

* فلا عجب للاسد ان ظفرت بها * كلاب الاعادى من فصيح واعجمى *
* فحربة وحشى سقت حمزة الردى * وموت على من حسام ابن ملجم *

﴿ وقال ابو نواس ﴾

* المرء بين مصائب لا تنقضى * حتى يوارى جسمه فى رمسه *
* فمؤجل يلقى الردى فى اهله * ومعجل يلقى الردى فى نفسه *

﴿ومنها﴾ ان يعلم ان النعم زائرة وانها لا محالة زائلة وان السرور بها اذا اقبلت مشوب بالحذر من فراقها اذا ادبرت وانها لا تفرح باقبالها فرحا حتى تعقب بفراقها ترحا فعلى قدر السرور يكون الحزن وقد قيل فى منثور الحكم المفروح به هو المحزون عليه وقيل من بلغ غاية ما يحب فليتوقع غاية ما يكره وقال بعض الحكماء من علم ان كل نائبة الى انقضاء حسن عزاؤه عند نزول البلاء وقيل للحسن البصرى رحمه الله كيف ترى الدنيا قال شغلنى توقع بلائها عن الفرح برخائها فاخذه ابو العتاهية فقال

* تزيده الايام ان اقبلت * شدة خوف لتصاريفها *
* كأنها فى حال اسعافها * تسمعه وقعة تخويفها *

﴿ومنها﴾ ان يعلم ان سروره مقرون بمساءة غيره وكذلك حزنه مقرون بسرور غيره اذ كانت الدنيا تنقل من صاحب الى صاحب وتصل صاحبا بفراق صاحب فتكون سرورا لمن وصلته وحزنا لمن فارقته وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم ما قرعت عصى على عصى الا فرح لها قوم وحزن آخرون وقال البحترى

* متى ارت الدنيا نباهة خامل * فلا ترتقب الا خمول نبيه *

﴿ وقال المتنبى ﴾

* بذا قضت الايام ما بين اهلها * مصائب قوم عند قوم فوائد *

﴿ وانشد بعض اهل الادب ﴾

* ألا انما الدنيا غضارة ايكة * اذا اخضر منها جانب جف جانب *
* فلا تفرحن منها لشئ تفيده * سيذهب يوما مثل ما انت ذاهب *
* وما هذه الايام الا فجائع * وما العيش واللذات الا مصائب *

﴿ ومنها ﴾ ان يعلم ان طوارق الانسان من دلائل فضله ومحنه من شواهد نبله ولذلك احدى علتين اما لان الكمال معوز والنقص لازم فاذا تواتر الفضل عليه صار النقص فيما سواه وقد قيل من زاد فى عقله نقص من رزقه وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ما انتقصت جارحة من انسان الا كانت ذكاء فى عقله وقال ابو العتاهية

* ما جاوز المرء من اطرافه طرفا * الا تخونه النقصان من طرف *

﴿ وانشدنى بعض اهل الادب لابراهيم بن هلال الكاتب ﴾

* اذا جمعت بين امرئين صناعة * فاحببت ان تدرى الذى هو احذق *
* فلا تتفقد منهما غير ما جرت * به لهما الارزاق حين تفرق *
* فحيث يكون النقص فالرزق واسع * وحيث يكون الفضل فالرزق ضيق *

واما لان ذا الفضل محسود وبالاذى مقصود فلا يسلم فى بره من معاند واشتطاط مناو وقال الصنوبرى

* محن الفتى يخبرن عن فضل الفتى * كالنار مخبرة بفضل العنبر *

وقل ما تكون محنة فاضل الا من جهة ناقص و بلوى عالم الاعلى يد جاهل وذلك لاستحكام العداوة بينهما بالمباينة و حدوث الانتقام لاجل التقدم وقد قال الشاعر

* فلا غرو ان يمنى عدو بجاهل * فمن ذنب التنين تنكسف الشمس *

﴿ ومنها ﴾ ما يعتاضه من الارتياض بنوائب عصره ويستفيده من الحنكة ببلاء دهره فيصلب عوده و يستقيم عموده و يكمل بادنى شدته و رخائه و يتعظ بحالتى عفوه وبلائه حكى عن ثعلب قال دخلت على عبيد الله بن سليمان بن وهب وعليه خلع الرضى بعد النكبة فلما مثلت بين يديه قال لى يا ابا العباس اسمع ما اقول

* نوائب الدهر ادبتنى * وانما يوعظ الاديب *
* قد ذقت حلوا وذقت مرا * كذاك عيش الفتى ضروب *
* لم يمض بؤس ولا نعيم * الا ولى فيهما نصيب *
* كذاك من صاحب الليالى * تغذوه من درها الخطوب *

فقلت لمن هذه الابيات قال لى ﴿ ومنها ﴾ ان يختبر امور زمانه ويتنبه على صلاح شانه فلا يغتر برخاء و لا يطمع فى استواء ولا يؤمل ان تبقى الدنيا على حالة او تخلو من تقلب واستحالة فان من عرف الدنيا وخبر احوالها هان عليه بؤسها و نعيمها و انشد بعض الادباء

* انى رأيت عواقب الدنيا * فتركت ما اهوى لما اخشى *
* فكرت فى الدنيا وعالمها * فاذا جميع امورها تفنى *
* وبلوت اكثر اهلها فاذا * كل امرئ فى شانه يسعى *

* اسنى منازلها وارفعها * فى العز اقربها من المهوى *
* تعفو مساويها محاسنها * لا فرق بين النعى والبشرى *
* ولقد مررت على القبور فما * ميزت بين العبد والمولى *
* أتراك تدرى كم رأيت من الاحياء ثم رأيتهم موتى *

فاذا ظفر المصاب باحد هذه الاسباب تخففت عنه احزانه وتسهلت عليه اشجانه فصار وشيك السلوة قليل الجزع حسن العزاء وقال بعض الحكماء من حاذر لم يهلع ومن راقب لم يجزع ومن كان متوقعا لم يكن متوجعا وقال بعض الشعراء

* ما يكون الامر سهلا كله * انما الدنيا سرور وحزون *
* هون الامر تعش فى راحة * قل ما هونت الا سيهون *
* تطلب الراحة فى دار الفنا * ضل من يطلب شيئا لا يكون *

فان اغفل نفسه عن دواعى السلوة ومنعها من اسباب الصبر تضاعف عليه من شدة الاسى وهم الجزع ما لا يطيق عليه صبرا ولا يجد عنه سلوا وقال ابن الرومى

* ان البلاء يطاق غير مضاعف * فاذا تضاعف صار غير مطاق *

فاذا ساعده جزعه بالاسباب الباعثة عليه وامده هلعه بالذرائع الداعية اليه فقد سعى فى حتفه واعان على تلفه ﴿ فمن اسباب ذلك ﴾ تذكر المصاب حتى لا يتناساه وتصوره حتى لا يعزب عنه ولا يجد من التذكار سلوة ولا يخلط مع التصور تعزية وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا تستفزز الدموع بالتذكر وقال الشاعر

* ولا يبعث الاحزان مثل التذكر *

﴿ ومنها ﴾ الاسف وشدة الحسرة فلا يرى من مصابه خلفا ولا يجد لمفقوده بدلا فيزداد بالاسف ولها وبالحسرة هلعا ولذلك قال الله تعالى لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم وقال بعض الشعراء

* اذا بليت فثق بالله وارض به * ان الذى يكشف البلوى هو الله *
* اذا قضى الله فاستسلم لقدرته * ما لامرئ حيلة فيما قضى الله *
* اليأس يقطع احيانا بصاحبه * لا تيأسن فان الصانع الله *

❊ ومنها ❊ كثرة الشكوى وبث الجزع فقد قيل فى قوله تعالى فاصبر صبرا جميلا انه الصبر الذى لا شكوى فيه ولا بث روى انس بن مالك ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ما صبر من بث وحكى كعب الاحبار انه مكتوب فى التوراة من اصابته مصيبة فشكى الى الناس فانما يشكو ربه وحكى ان اعرابية دخلت من البادية فسمعت صراخا فى دار فقالت ما هذا فقيل لها مات لهم انسان فقالت ما اراهم الا من ربهم يستغيثون وبقضائه يتبرمون وعن ثوابه يرغبون وقد قيل فى منثور الحكم من ضاق قلبه اتسع لسانه وانشد بعض اهل العلم

* لا تكثر الشكوى الى الصديق * وارجع الى الخالق لا المخلوق *
* لا يخرج الغريق بالغريق *

❊ وقال بعض الشعراء ❊

* لا تشك دهرك ما صححت به * ان الغنى هو صحة الجسم *
* هبك الخليفة كنت منتفعا * بغضارة الدنيا مع السقم *

❊ ومنها ❊ اليأس من خير مصابه و دركه طلابه فيقترن بحزن الحادثة قنوط الاياس فلا يبقى معها صبر ولا يتسع لها صدر وقد قيل المصيبة بالصبر اعظم المصيبتين وقال ابن الرومى

* اصبرى ايتها النفس فان الصبر احجى *
* ربما خاب رجاء * واتى ما ليس يرجى *

❊ وانشدنى بعض اهل العلم ❊

* أتحسب ان البؤس للحر دائم * ولو دام شئ عده الناس فى العجب *
* لقد عرفتك الحادثات بؤسها * وقد ادبت ان كان ينفعك الادب *
* ولو طلب الانسان من صرف دهره * دوام الذى يخشى لاعياه ما طلب *

❊ ومنها ❊ ان يعرى بملاحظة من حيطت سلامته وحرست نعمته حتى التحف بالامن والدعة واستمتع بالثروة والسعة ويرى انه قد خص من بينهم بالرزية بعد ان كان مساويا وافرد بالحارثة بعد ان كان مكافيا فلا يستطيع صبرا على بلوى ولا يلزم شكرا على نعمى ولو قابل بهذه النظرة ملاحظة من شاركه فى

الرزية وساواه فى الحادثة لتكافأ الامران فهان عليه الصبر وحان منه الفرج وانشدت لامرأة من العرب

* ايها الانسان صبرا * ان بعد العسر يسرا *
* كم رأينا اليوم حرا * لم يكن بالامس حرا *
* ملك الصبر فاضحى * مالكا خيرا وشرا *
* اشرب الصبر وان كا * ن من الصبر امرّا *

وانشدت لبعض اهل الادب

* يراع الفتى للخطب تبدو صدوره * فيأسى وفى عقباه يأتى سروره *
* ألم تر ان الليل لما تراكمت * دجاه بدا وجه الصباح ونوره *
* فلا تصحبن اليأس ان كنت عالما * لبيبا فان الدهر شتى اموره *

واعلم انه قل من صبر على حادثة وتماسك فى نكبة الا كان انكشافها وشيكا وكان الفرج منه قريبا اخبرنى بعض اهل الادب ان ابا ايوب الكاتب حبس فى السجن خمس عشرة سنة حتى ضاقت حيلته وقل صبره فكتب الى بعض اخوانه يشكو له طول حبسه فرد عليه جواب رقعته بهذا

* صبرا ابا ايوب صبر مبرح * فاذا عجزت عن الخطوب فمن لها *
* ان الذى عقد الذى انعقدت له * عقد المكاره فيك يملك حلها *
* صبرا فان الصبر يعقب راحة * ولعلها ان تنجلى ولعلها *

فاجابه ابو ايوب يقول

* صبرتنى ووعظتنى وانا لها * وستنجلى بل لا اقول لعلها *
* ويحلها من كان صاحب عقدها * كرما به اذ كان يملك حلها *

فلم يلبث بعد ذلك فى السجن الا اياما حتى اطلق مكرما وانشد ابن دريد عن ابى حاتم

* اذا اشتملت على اليأس القلوب * وضاق لما به الصدر الرحيب *
* واوطنت المكاره واطمأنت * وأرست فى مكانتها الخطوب *
* ولم تر لانكشاف الضر وجها * ولا اغنى بحيلته الاريب *

* اتاك على قنوط منك غوث * يمن به اللطيف المستجيب *
* وكل الحادثات اذا تناهت * فموصول بها الفرج القريب *

﴿ الفصل الثالث فى المشورة ﴾ اعلم ان من الحزم لكل ذى لب ان لا يبرم امرا ولا يمضى عزما الا بمشورة ذى الرأى الناصح ومطالعة ذى العقل الراجح فان الله تعالى امر بالمشورة نبيه صلى الله عليه وسلم مع ما تكفل به من ارشاده ووعد به من تأييده فقال تعالى وشاورهم فى الامر قال قتاده امره بمشاورتهم تألفا لهم وتطييبا لانفسهم وقال الضحاك امره بمشاورتهم لما علم فيها من الفضل وقال الحسن البصرى رحمه الله تعالى امره بمشاورتهم ليستن به المسلمون ويتبعه فيها المؤمنون وان كان عن مشورتهم غنيا وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال المشورة حصن من الندامة وامان من الملامة وقال على بن ابى طالب رضى الله عنه نعم الموازرة المشاورة وبئس الاستعداد الاستبداد وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه الرجال ثلاثة رجل ترد عليه الامور فيسددها برأيه ورجل يشاور فيما اشكل عليه وينزل حيث يأمره اهل الرأى ورجل حائر بامره لا يأتمر رشدا ولا يطيع مرشدا وقال عمر بن عبد العزيز ان المشورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركة لا يضل معهما رأى ولا يفقد معهما حزم وقال سيف بن ذى يزن من اعجب برأيه لم يشاور ومن استبد برأيه كان من الصواب بعيدا وقال عبد الحميد المشاور فى رأيه ناظر من ورائه وقيل فى منثور الحكم المشاورة راحة لك وتعب على غيرك وقال بعض الحكماء الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استغنى برأيه وقال بعض الادباء ما خاب من استخار ولا ندم من استشار وقال بعض البلغاء من حق العاقل ان يضيف الى رأيه آراء العقلاء ويجمع الى عقله عقول الحكماء فالرأى الفذ ربما زل والعقل الفرد ربما ضل وقال بشار بن برد

* اذا بلغ الرأى المشورة فاستعن * برأى نصيح او نصيحة حازم *
* ولا تجعل الشورى عليك غضاضة * فان الخوافى قوة للقوادم *

فاذا عزم على المشاورة ارتاد لها من اهلها من قد استكملت فيه خمس خصال ﴿ احداهن ﴾ عقل كامل مع تجربة سالفة فان بكثرة التجارب تصح الروية وقد روى ابو الزناد عن الاعرج عن ابى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم

انه قال استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا وقال عبد الله بن الحسن لابنه محمد احذر مشورة الجاهل وان كان ناصحا كما تحذر عداوة العاقل اذا كان عدوا فانه يوشك ان يورطك بمشورته فيسبق اليك مكر العاقل وتوريط الجاهل وقيل لرجل من عبس ما اكثر صوابكم قال نحن الف رجل وفينا حازم ونحن نطيعه فكأنا الف حازم وكان يقال اياك ومشاورة رجلين شاب معجب بنفسه قليل التجارب فى غيره او كبير قد اخذ الدهر من عقله كما اخذ من جسمه وقيل فى منثور الحكم كل شئ يحتاج الى العقل والعقل يحتاج الى التجارب ولذلك قيل الايام تهتك لك عن الاستار الكامنة وقال بعض الحكماء التجارب ليس لها غاية والعاقل منها فى زيادة وقال بعض الحكماء من استعان بذوى العقول فاز بدرك المأمول وقال ابو الاسود الديلى

* وما كل ذى نصح بمؤتيك نصحه * ولا كل مؤت نصحه بلبيب *
* ولكن اذا ما استجمعا عند صاحب * فحق له من طاعة بنصيب *

﴿ والخصلة الثانية ﴾ ان يكون ذا دين وتقى فان ذلك عماد كل صلاح وباب كل نجاح ومن غلب عليه الدين فهو مأمون السريرة موفق العزيمة روى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اراد امرا فشاور فيه امرءا مسلما وفقه الله لارشد اموره ﴿ والخصلة الثالثة ﴾ ان يكون ناصحا ودودا فان النصح والمودة يصدقان الفكرة ويمحضان الرأى وقد قال بعض الحكماء لا تشاور الا الحازم غير الحسود واللبيب غير الحقود واياك ومشاورة النساء فان رأيهن الى الافن وعزمهن الى الوهن وقال بعض الادباء مشورة المشفق الحازم ظفر ومشورة غير الحازم خطر وقال بعض الشعراء

* اصف ضميرا لمن تعاشره * واسكن الى ناصح تشاوره *
* وارض من المرء فى مودته * بما يؤدى اليك ظاهره *
* من يكشف الناس لا يجد احدا * تصح منهم له سرائره *
* اوشك ان لا يدوم وصل اخ * فى كل زلاته تنافره *

﴿ والخصلة الرابعة ﴾ ان يكون سليم الفكر من هم قاطع وغم شاغل فان من عارضت فكره شوائب الهموم لا يسلم له رأى ولا يستقيم له خاطر وقد قيل فى

منثور

منثور الحكم كل شئ يحتاج الى العقل والعقل يحتاج الى التجارب وكان كسرى اذا دهمه امر بعث الى مرازبته فاستشارهم فان قصروا فى الرأى ضرب قهارمته وقال ابطأتم بارزاقهم فأخطوا فى آرائهم وقال صالح بن عبد القدوس

* ولا مشير كذى نصح ومقدرة * فى مشكل الامر فاختر ذاك منتصحا *

﴿ والخصلة الخامسة ﴾ ان لا يكون له فى الامر المستشار غرض يتابعه ولا هوى يساعده فان الاغراض جاذبة والهوى صاد والرأى اذا عارضه الهوى وجاذبته الاغراض فسد وقد قال الفضل بن العباس بن عتبة بن ابى لهب

* وقد يحكم الايام من كان جاهلا * ويردى الهوى ذا الرأى وهو لبيب *
* ويحمد فى الامر الفتى وهو مخطئ * ويعذل فى الاحسان وهو مصيب *

فاذا استكملت هذه الخصال الخمس فى رجل كان اهلا للمشورة ومعدنا للرأى فلا تعدل عن استشارته اعتمادا على ما تتوهمه من فضل رأيك وثقة بما تستشعره من صحة رويتك فان رأى غير ذى الحاجة اسلم وهو من الصواب اقرب لخلوص الفكر وخلو الخاطر مع عدم الهوى وارتفاع الشهوة وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال رأس العقل بعد الايمان بالله التودد الى الناس وما استغنى مستبد برأيه وما هلك احد عن مشورة فاذا اراد الله بعبد هلكة كان اول ما يهلكه رأيه وقال على بن ابى طالب رضى الله عنه الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استغنى برأيه وقال لقمان الحكيم لابنه شاور من جرب الامور فانه يعطيك من رأيه ما قام عليه بالغلاء وانت تأخذه مجانا وقال بعض الحكماء نصف رأيك مع اخيك فشاوره ليكمل لك الرأى وقال بعض الادباء من استغنى برأيه ضل ومن اكتفى بعقله زل وقال بعض البلغاء الخطأ مع الاسترشاد احمد من الصواب مع الاستبداد وقال الشاعر

* خليلىّ ليس الرأى فى صدر واحد * اشيرا علىّ بالذى تريان *

ولا ينبغى ان يتصور فى نفسه انه ان شاور فى امره ظهر للناس ضعف رأيه وفساد رويته حتى افتقر الى رأى غيره فان هذه معاذير النوكى وليس يراد الرأى للمباهاة به وانما يراد للانتفاع بنتيجته والتحرز من الخطأ عند زلله وكيف يكون عارا ما ادى الى صواب وصد عن خطأ وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال

لقحوا عقولكم بالمذاكرة واستعينوا على اموركم بالمشاورة وقال بعض الحكماء
من كمال عقلك استظهارك على عقلك وقال بعض البلغاء اذا اشكلت عليك الامور
وتغير لك الجمهور فارجع الى رأى العقلاء وافزع الى استشارة العلماء ولا تأنف من
الاسترشاد ولا تستنكف من الاستمداد فلأن تسأل وتسلم خير لك من ان تستبد
وتندم وينبغى ان تكثر من استشارة ذوى الالباب لا سيما فى الامر الجليل
فقلما يضل عن الجماعة رأى او يذهب عنهم صواب لارسال الخواطر الثاقبة
واجالة الافكار الصادقة فلا يعزب عنها ممكن ولا يخفى عليها جائز وقد قيل فى
منثور الحكم من اكثر المشورة لم يعدم عند الصواب مادحا وعند الخطأ عاذرا
وان كان الخطأ من الجماعة بعيدا فاذا استشار الجماعة فقد اختلف اهل الرأى فى
اجتماعهم عليه وانفراد كل واحد منهم به فذهب الفرس ان الاولى اجتماعهم على
الارتياء واجالة الفكر ليذكر كل واحد منهم ما قدحه خاطره وانتجه فكره حتى اذا كان
فيه قدح عورض او توجه عليه رد نوقض كالجدل الذى تكون فيه المناظرة وتقع فيه
المنازعة والمشاجرة فانه لا يبقى فيه مع اجتماع القرائح عليه خلل الا ظهر ولا زلل
الا بان وذهب غيرهم من اصناف الامم الى ان الاولى استسرار كل واحد بالمشورة
ليجيل كل واحد منهم فكره فى الرأى طمعا فى الحظوة بالصواب فان القرائح اذا
انفردت استكدها الفكر واستفرغها الاجتهاد واذا اجتمعت فوضت وكان الاول
من بدائهها متبوعا ولكل واحد من المذهبين وجه ووجه الثانى اظهر والذى
اراه فى الاولى غير هذين المذهبين على الاطلاق ولكن ينظر فى الشورى فان
كانت فى حال واحدة هل هى صواب ام خطأ كان اجتماعهم عليها اولى لان ما
تردد بين امرين فالمراد منه الاعتراض على فساده او ظهور الحجة فى صلاحه
وهذا مع الاجتماع ابلغ وعند المناظرة اوضح وان كانت الشورى فى خطب
قد استبهم صوابه واستعجم جوابه من امور خافية واحوال غامضة لم يحصرها
عدد ولم يجمعها تقسيم ولا عرف لها جواب يكشف عن خطائه وصوابه
فالاولى فى مثله انفراد كل واحد بفكره وخلوه بخاطره ليجتهد فى الجواب ثم
يقع الكشف عنه أخطأ هو ام صواب فيكون الاجتهاد فى الجواب منفردا
والكشف عن الصواب مجتمعا لان الانفراد فى الاجتهاد اصح والاجتماع على

المناظرة

المناظرة ابلغ فهكذا هذا وينبغى ان يسلم اهل الشورى من حسد او تنافس فيمنعهم من تسليم الصواب لصاحبه ثم يعرض المستشير ذلك على نفسه مع مشاركتهم فى الارتياء والاجتهاد فاذا تصفح اقاويل جميعهم كشف عن اصولها واسبابها و بحث عن نتائجها وعواقبها حتى لا يكون فى الامر مقلدا ولا فى الرأى مفوضا فانه يستفيد بذلك مع ارتياضه بالاجتهاد ثلاث خصال احداهن معرفة عقله وصحة رويته والثانية معرفة عقل صاحبه وصواب رأيه والثالثة وضوح ما استعجم من الرأى وافتتاح ما اغلق من الصواب فاذا تقرر له الرأى امضاه فلم يؤاخذهم بعواقب الاكداء فيه فان ما على الناصح الاجتهاد وليس عليه ضمان النجح لا سيما والمقادير غالبة ومتى عرف منه تعقب المشير وكل الى رأيه واسلم الى نفسه فصار فردا لا يعان برأى ولا يمد بمشورة وقد قالت الفرس فى حكمها اضعف الحيلة خير من اقوى الشدة واقل التأنى خير من اكثر العجلة والدولة رسول القضاء المبرم واذا استبد الملك برأيه عميت عليه المراشد واذا ظفر برأى من خامل لا يراه للرأى اهلا ولا للمشورة مستوجبا اغتنمه عفوا فان الرأى كالضالة تؤخذ اين وجدت ولا يهون لمهانة صاحبه فيطرح فان الدرة لا يضعها مهانة غائصها والضالة لا تترك لذلة واجدها وليس يراد الرأى لمكان المشير به فيراعى قدره وانما يراد لانتفاع المستشير وانشد ابو العيناء عن الاصمعى

* النصح ارخص ما باع الرجال فلا * ترد على ناصح نصحا ولا تلم *
* ان النصائح لا تخفى مناهجها * على الرجال ذوى الالباب والفهم *

ثم لا وجه لمن تقرر له رأى ان يني فى امضائه فان الزمان غادر والفرص منتهزة والثقة عجز وقيل لملك زال عنه ملكه ما الذى سلبك ملكك قال تأخيرى عمل اليوم لغد وقال الشاعر

* اذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة * ولا تك بالترداد للرأى مفسدا *
* فانى رأيت الريب فى العزم هجنة * وانفاذ ذى الرأى العزيمة ارشدا *

وينبغى لمن انزل منزلة المستشار واحل محل الناصح المواد حتى صار مأمول النجح مرجو الصواب ان يؤدى حق هذه النعمة باخلاص السريرة ويكافئ على الاستسلام ببذل النصح فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال ان من حق

المسلم على المسلم اذا استنصحه ان ينصحه وربما ابطرته المشاورة فاعجب برأيه فاحذره في المشاورة فليس للمعجب رأى صحيح ولا روية سليمة وربما شح في الرأى لعداوة او حسد فورّى او مكر فاحذر العدو ولا تثق بمحسود ولا عذر لمن استشاره عدو او صديق ان يكتم رأيا وقد استرشد ولا ان يخون وقد ائتمن روى محمد بن المنكدر عن عائشة رضى الله عنها ان النبى صلى الله عليه وسلم قال المستشير والمستشار مؤتمن وقال سليمان بن دريد

* وأجب اخاك اذا استشارك ناصحا * وعلى اخيك نصيحة لا تردد *

ولا ينبغي ان يشير قبل ان يستشار الا فيما مس ولا ان يتبرع بالرأى الا فيما لزم فانه لا ينفك من ان يكون رأى متهما او مطرحا وفي اى هذين كان وصمة وانما يكون الرأى مقبولا اذا كان عن رغبة وطلب او كان لباعث وسبب روى ابو بلال العجلى عن حذيفة بن اليمان عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال قال لقمان لابنه يا بنى اذا استشهدت فاشهد واذا استعنت فأعن واذا استشرت فلا تعجل حتى تنظر وقال بهيس الكلابى

* من الناس من ان يستشرك فتجتهد * له الرأى يستغششك ما لا تتابعه *

* فلا تمحن للرأى من ليس اهله * فلا انت محمود ولا الرأى نافعه *

﴿ الفصل الرابع في كتمان السر ﴾ اعلم ان كتمان الاسرار من اقوى اسباب اسباب النجاح وادوم لاحوال الصلاح روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال استعينوا على الحاجات بالكتمان فان كل ذى نعمة محسود وقال على بن ابى طالب كرم الله وجهه سرك اسيرك فان تكلمت به صرت اسيره وقال بعض الحكماء لابنه يا بنى كن جوادا بالمال في موضع الحق ضنينا بالاسرار عن جميع الخلق فان احمد جود المرء الانفاق في وجه البر والبخل بمكتوم السر وقال بعض الادباء من كتم سره كان الخيار اليه ومن افشاه كان الخيار عليه وقال بعض البلغاء ما اسرك ما كتمت سرك وقال بعض الفصحاء ما لم تغيبه الاضالع فهو مكشوف ضائع وقال بعض الشعراء وهو انس بن اسيد

* ولا تفش سرك الا اليك * فان لكل نصيح نصيحا *

* فانى رأيت وشاة الرجا * ل لا يتركون اديما صحيحا *

وكم من اظهار سر اراق دم صاحبه ومنع من نيل مطالبه ولو كتمه كان من سطوته آمنا وفي عواقبه سالما ولنجاح حوائجه راجيا وقال انوشروان من حصن سره فله بتحصينه خصلتان الظفر بحاجته والسلامة من السطوات واظهار الرجل سر غيره اقبح من اظهاره سر نفسه لانه يبوء باحدى وصمتين الخيانة انه كان مؤتمنا او النميمة ان كان مستودعا فاما الضرر فربما استويا فيه وتفاضلا وكلاهما مذموم وهو فيهما ملوم وفي الاسترسال بابداء السر دلائل على ثلاثة احوال مذمومة احداها ضيق الصدر وقلة الصبر حتى انه لم يتسع لسر ولم يقدر على صبر وقال الشاعر

* اذا المرء افشى سره بلسانه * ولام عليه غيره فهو احمق *

* اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه * فصدر الذى يستودع السر اضيق *

والثانية الغفلة عن تحذر العقلاء والسهو عن يقظة الاذكياء وقد قال بعض الحكماء انفرد بسرك ولا تودعه حازما فيزل ولا جاهلا فيخون والثالثة ما ارتكبه من الغدر واستعمله من الخطر وقد قال بعض الحكماء سرك من دمك فاذا تكلمت به فقد ارقته • واعلم ان من الاسرار ما لا يستغنى فيه عن مطالعة صديق مساهم واستشارة ناصح مسالم فليختر العاقل لسره امينا ان لم يجد الى كتمه سبيلا وليتحر فى اختيار من يأتمنه عليه ويستودعه اياه فليس كل من كان على الاموال امينا كان على الاسرار مؤتمنا والعفة عن الاموال ايسر من العفة عن اذاعة الاسرار لان الانسان قد يذيع سر نفسه بمبادرة لسانه وسقط كلامه ويشح باليسير من ماله حفظا له وضنا به ولا يرى ما اذاع من سره كبيرا فى جنب ما حفظه من يسير ماله مع عظم الضرر الداخل عليه فمن اجل ذلك كان امناء الاسرار اشد تعذرا واقل وجودا من امناء الاموال وكان حفظ المال ايسر من كتم الاسرار لان احراز الاموال منيعة واحراز الاسرار بارزة يذيعها لسان ناطق ويشيعها كلام سابق وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه القلوب اوعية الاسرار والشفاه اقفالها والالسن مفاتيحها فليحفظ كل امرئ مفتاح سره • ومن صفات امين السر ان يكون ذا عقل صاد ودين حاجز ونصح مبذول وود موفور وكتوما بالطبع فان هذه الامور تمنع من الاذاعة وتوجب

حفظ الامانة فمن كملت فيه فهو عنقاء مغرب وقيل فى منثور الحكم قلوب العقلاء حصون الاسرار وليحذر صاحب السر ان يودع سره من يتطلع اليه ويؤثر الوقوف عليه فان طالب الوديعة خائن وقيل فى منثور الحكم لا تنكح خاطب سرك وقال صالح بن عبد القدوس

* لا تدع سرا الى طالب * منك فالطالب للسر مذيع *

وليحذر كثرة المستودعين لسره فان كثرتهم سبب الاذاعة وطريق الى الاشاعة لامرين احدهما ان اجتماع هذه الشروط فى العدد الكثير معوز ولا بد اذا كثروا من ان يكون فيهم من اخل ببعضها والثانى ان كل واحد منهم يجد سبيلا الى نفى الاذاعة عن نفسه واحالة ذلك على غيره فلا يضاف اليه ذنب ولا يتوجه عليه عتب وقد قال بعض الحكماء كلما كثرت خزان الاسرار ازدادت ضياعا وقال بعض الشعراء

* وسرك ما كان عند امرئ * وسر الثلاثة غير الخفى *

﴿ وقال آخر ﴾

* فلا تنطق بسرك كل سر * اذا ما جاوز الاثنين فاشى *

ثم لو سلم من اذاعتهم لم يسلم من ادلالهم واستطالتهم فان لمن ظفر بسر من فرط الادلال وكثرة الاستطالة ما ان لم يحجزه عنه عقل ولم يكفه عنه فضل كان اشد من ذل الرق وخضوع العبد وقد قال بعض الحكماء من افشى سره كثر عليه المتأمرون فاذا اختار وارجو ان يوفق للاختيار واضطر الى استيداع سره وليته كفى الاضطرار وجب على المستودع له آداء الامانة فيه بالتحفظ والتناسى له حتى لا يخطر له ببال ولا يدور له فى خلد ثم يرى ذلك حرمة يرعاها ولا يدل ادلال اللئام وحكى ان رجلا اسر الى صديق له حديثا ثم قال أفهمت قال بل جهلت قال أحفظت قال بل نسيت وقيل لرجل كيف كتمانك للسر قال اجحد الخبر واحلف للمستخبر وقال بعض الشعراء

* ولو قدرت على نسيان ما اشتملت * من الضلوع على الاسرار والخبر *
* لكنت اول من ينسى سرائره * اذ كنت من شرها يوما على خطر *

وحكى ان عبدالله بن طاهر تذاكر الناس فى مجلسه حفظ السر فقال ابنه

* ومستودعى سرا تضمنت سره * فاودعته من مستقر الحشى قبرا *
* ولكننى اخفيه عنى كأننى * من الدهر يوما ما احطت به خبرا *
* وما السر فى قلبى كميت بحفرة * لانى ارى المدفون ينتظر النشرا *

﴿ الفصل الخامس فى المزاح والضحك ﴾ اعلم ان للمزاح ازاحة عن الحقوق ومخرجا الى القطيعة والعقوق يصم المازح ويؤذى الممازح فوصمة المازح ان يذهب عنه الهيبة والبهاء ويجرى عليه الغوغاء والسفهاء واما اذية الممازح فلانه معقوق بقول كريه وفعل ممض ان امسك عنه احزن قلبه وان قابل عليه جانب ادبه فحق على العاقل ان يتقيه وينزه نفسه عن وصمة مساويه وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال المزاح استدراج من الشيطان واختداع من الهوى وقال عمر بن عبد العزيز اتقوا المزاح فانها حمقة تورث ضغينة وقال بعض الحكماء انما المزاح سباب الا ان صاحبه يضحك وقيل انما سمى المزاح مزاحا لانه يزيح عن الحق وقال ابراهيم النخعى المزاح من سخف او بطر وقيل فى منثور الحكم المزاح يأكل الهيبة كما تأكل النار الحطب وقال بعض الحكماء من كثر مزاحه زالت هيبته ومن كثر خلافه طابت غيبته وقال بعض البلغاء من قل عقله كثر هزله وذكر خالد بن صفوان المزاح فقال يصك احدكم صاحبه باشد من الجندل وينشقه احرق من الخردل ويفرغ عليه احر من المرجل ثم يقول انما كنت امازحك وقال بعض الحكماء خير المزاح لا ينال وشره لا يقال فنظمه السابورى فى قصيدته الجامعة للآداب فقال وزاد

* شر مزاح المرء لا يقال * وخيره يا صاح لا ينال *
* وقد يقال كثرة المزاح * من الفتى تدعو الى التلاح *
* ان المزاح بدؤه حلاوه * لكنما آخره عداوه *
* يحتد منه الرجل الشريف * ويجترى بسخفه السخيف *

﴿ وقال ابو نواس ﴾

* خل جنبيك لرام * وامض عنه بسلام *

* مت بداء الصمت خير * لك من داء الكلام *
* انما السالم من ألجم فاه بلجام *
* ربما استفتح بالمزح مغاليق الحمام *
* والمنايا آكلات * شاربات للانام *

واعلم انه قلما يعرى من المزاح من كان سهلا فالعاقل يتوخى بمزاحه احدى حالتين لا ثالث لهما * احداهما * ايناس المصاحبين والتودد الى المخالطين وهذا يكون بما انس من جميل القول وبسط من مستحسن الفعل وقد قال سعيد ابن العاص لابنه اقتصد فى مزاحك فان الافراط فيه يذهب البهاء ويجرئ عليك السفهاء وان التقصير فيه يفض عنك المؤانسين ويوحش منك المصاحبين * والحالة الثانية * ان ينفى بالمزاح ما طرأ عليه من سأم واحدث به من هم فقد قيل لا بد للمصدور ان ينفث وانشدت لابى الفتح البستى

* أفد طبعك المكدود بالجد راحة * تجم وعلله بشئ من المزح *
* ولكن اذا اعطيته المزح فليكن * بمقدار ما تعطى الطعام من الملح *

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يمزح على هذا الوجه روى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال انى لامزح ولا اقول الا حقا * فمن مزاحه صلى الله عليه وسلم ما روى ان عجوزا من الانصار اتته فقالت يا رسول الله ادع لى بالمغفرة فقال أما علمت ان الجنة لا يدخلها العجائز فصرخت فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أما قرأت قول الله عز وجل انا انشأناهن انشاء فجعلناهن ابكارا عربا اترابا * واتته اخرى فى حاجة لزوجها فقال لها ومن زوجك فقالت فلان فقال لها الذى فى عينه بياض فقالت لا فقال بلى فانصرفت عجلى الى زوجها وجعلت تتأمل عينيه فقال لها ما شأنك فقالت اخبرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فى عينيك بياضا فقال أما ترين بياض عينى اكثر من سوادها * واتى رجل على بن ابى طالب رضى الله عنه فقال انى احتلمت على امى فقال اقيموه فى الشمس واضربوا ظله الحد * وسئل الشعبى عن اكل لحم الشيطان فقال نحن نرضى منه بالكفاف وقيل له ما اسم امرأة ابليس لعنه الله فقال ذاك نكاح ما شهدناه وقال رجل لغلام بكم تعمل معى قال بطعامى فقال له احسن

قليلا

قليلا قال فاصوم الاثنين والخميس وحكى عن ابى صالح بن حسان وكان محدثا انه قال يوما لاصحابه افقه الناس وضاح اليمن فى قوله

* اذا قلت هاتى نوليني تبرمت * وقالت معاذ الله من فعل ما حرم *
* فما نولت حتى تضرعت عندها * وانبأتها ما رخص الله فى اللمم *

فاما الخروج الى حد الخلاعة فهجنة ومذمة كالذى حكى عن ابى معاوية الضرير وكان محدثا انه خرج يوما الى اصحابه وهو يقول

* واذا المعدة جاشت * فارمها بالمنجنيق *
* بثلاث من نبيذ * ليس بالحلو الرقيق *

أما ترى كيف طرق بخلاعته التهمة على نفسه بهذا المزح فيما لعله برئ منه وبعيد عنه وقد كان ابو هريرة رضى الله عنه مسترسلا فى مزاحه * روى ابن قتيبة فى المعارف ان مروان ربما كان يستخلفه على المدينة فيركب حمارا قد شد عليه برذعة فيسير فيلقى الرجل فيقول الطريق قد جاء الامير وربما اتى الصبيان وهم يلعبون لعبة الاعراب فلا يشعرون حتى يلقى نفسه بينهم و يضرب برجله فيفزع الصبيان فينفرون وهذا خروج عن القدر المستسمح به ويوشك ان يكون لهذا الفعل منه تأويل سائغ وقد كان صهيب بن سنان مزاحا فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أتأكل تمرا وبك رمد فقال يا رسول الله انما امضغ على الناحية الاخرى وانما استجاز صهيب ان يعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمزح فى جوابه لان استخباره صلى الله عليه وسلم قد كان يتضمن المزح فاجابه عن استخباره بما يوافقه مساعدة لغرضه وتقربا من قلبه والا فليس لاحد ان يجعل جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم مزحا لان المزح هزل ومن جعل جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم المبين عن الله عز وجل احكامه المؤدى الى خلقه اوامره هزلا ومزحا فقد عصى الله ورسوله وصهيب كان اطوع لله سبحانه وتعالى من ان يكون بهذه المنزلة فقد قال صلى الله عليه وسلم انا سابق العرب وصهيب سابق الروم وسلمان سابق الفرس وبلال سابق الحبش * ومن مستحسن المزح ومستسمح الدعابة ما حكى الزبير بن بكار عن الكندى ان القشيرى وقف على شيخ من الاعراب فقال يا اعرابى ممن انت فقال من عقيل قال من اى عقيل

قال من بنى خفاجة فقال القشيرى رأيت شيخا من بنى خفاجة فقال الاعرابى ما شانه قال له اذا جن الغلام حاجة فقال الاعرابى ما هى قال كحاجة الديك الى الدجاجة فاستعبر الاعرابى ضاحكا وقال قاتلك الله ما اعرفك بسرائر القوم فانظر كيف بلغ بهذا المزح غايته ولسانه نزه وعرضه مصون وهذا غاية ما يتسامح به الفضلاء من الخلاعة وان كان مستكره الفحوى والنزاهة عن مثله اولى وليحذر ان يسترسل فى ممازحة عدو فيجعل له طريقا الى اعلان المساوى وهو مجد ويفسح له فى التشفى مزحا وهو محق وقد قال بعض الحكماء اذا مازحت عدوك ظهرت له عيوبك • واما الضحك فان اعتياده شاغل عن النظر فى الامور المهمة مذهل عن الفكر فى النوائب الملمة وليس لمن اكثر منه هيبة ولا وقار ولا لمن وصم به خطر ولا مقدار روى ابو ادريس الخولانى عن ابى ذر الغفارى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اياك وكثرة الضحك فانه يميت القلب ويذهب بنور الوجه وروى عن ابن عباس فى قوله تعالى ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ان الصغيرة الضحك وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه من كثر ضحكه قلت هيبته وقال على بن ابى طالب كرم الله وجهه اذا ضحك العالم ضحكة مج من العلم مجة وقيل فى منثور الحكم ضحكة المؤمن غفلة من قلبه والقول فى الضحك كالقول فى المزاح ان تجافاه الانسان نفر عنه واوحش منه وان الفه كانت حاله ما وصفنا فليكن بدل الضحك عند الايناس تبسما وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه التبسم دعابة وهذا ابلغ فى الايناس من الضحك الذى هو قد يكون استهزاء وتعجبا وليس ينكر منه المرة النادرة لطارئ استغفل النفس عن دفعه هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو املك الخلق لنفسه قد تبسم حتى بدت نواجذه وانما كان ذلك منه صلى الله عليه وسلم على الوجه الذى ذكرناه ﴿ الفصل السادس فى الطيرة والفال ﴾ اعلم انه ليس شئ اضر بالرأى ولا افسد للتدبير من اعتقاد الطيرة ومن ظن ان خوار بقرة او نعيب غراب يرد قضاء او يدفع مقدورا فقد جهل وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ﴿ فالعدوى ﴾ ما يظنه الناس من تعدى العلل والامراض فاخبر انها لا تعدى فقيل يا رسول الله

انا نرى النقطة من الجرب فى مشفر البعير فتتعدى الى جميعه فقال صلى الله عليه وسلم فما اعدى الاول واما ﴿ الهامة ﴾ فهو ما كانت العرب فى الجاهلية تعتقده من ان القتيل اذا طل دمه فلم يدرك بثاره صاحت هامته فى القبر اسقونى قال الزبرقان بن بدر يعنيها

* يا عمرو ألا تدع شتمى ومنقصتى * اضربك حتى تقول الهامة اسقونى *

﴿ وقال ابراهيم بن هرمة ﴾

* وكيف وقد صاروا عظاما واقبرا * يصيح صداها بالعشى وهامها *
* تفانوا ولم يبقوا وكل قبيلة * سريع الى ورد الفناء كرامها *

واما ﴿ الصفر ﴾ فهو كالحية يكون فى الجوف يصيب الماشية والناس وهو اعدى عندهم من الجرب وفيه يقول الشاعر

* لا يمسك الساق من اين ولا عصب * ولا يعض على شرسوفه الصفر *

وروى ابو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا ظننتم فلا تحققوا واذا حسدتم فلا تبغوا واذا تطيرتم فامضوا وعلى الله فتوكلوا وقال الشاعر

* طيرة الناس لا ترد قضاء * فاعذر الدهر لا تشبه بلوم *
* اى يوم تخصه بسعود * والمنايا ينزلن فى كل يوم *
* ليس يوم الا وفيه سعود * ونحوس تجرى لقوم وقوم *

وقد كانت الفرس اكثر الناس طيرة وكانت العرب اذا ارادت سفرا نفرت اول طائر تلقاه فان طار يمنة سارت وتيمنت واذا طار يسرة رجعت وتشاءمت فنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال اقروا الطير على وكناتها وحكى عكرمة قال كنا جلوسا عند ابن عباس رضى الله عنهما فمر طائر يصيح فقال رجل من القوم خير خير فقال ابن عباس لا خير ولا شر وقال لبيد

* لعمرك ما تدرى الضوارب بالحصى * ولا زاجرات الطير ما الله صانع *

واعلم انه قلما يخلو من الطيرة احد لا سيما من عارضته المقادير فى ارادته وصده القضاء عن طلبته فهو يرجو واليأس عليه اغلب ويأمل والخوف اليه اقرب فاذا عاقه القضاء وخانه الرجاء جعل الطيرة عذر خيبته وغفل عن قضاء الله عز

وجل ومشيئته فاذا تطير احجم عن الاقدام ويئس من الظفر وظن ان القياس فيه مطرد وان العبرة فيه مستمرة ثم يصير ذلك له عادة فلا ينجح له سعي ولا يتم له قصد فاما من ساعدته المقادير ووافقه القضاء فهو قليل الطيرة لاقدامه ثقة باقباله وتعويلا على سعادته فلا يصده خوف ولا يكفه حزن ولا يؤوب الا ظافرا ولا يعود الا منجحا لان الغنم بالاقدام والخيبة مع الاحجام فصارت الطيرة من سمات الادبار واطراحها من امارات الاقبال فينبغي لمن مني بها وبلي ان يصرف عن نفسه وساوس النوكى ودواعي الخيبة وذرائع الحرمان ولا يجعل للشيطان سلطانا في نقض عزائمه ومعارضة خالقه ويعلم ان قضاء الله تعالى عليه غالب وان رزقه له طالب الا ان الحركة سبب فلا يثنيه عنها ما لا يضر مخلوقا ولا يدفع مقدورا وليمض في عزائمه واثقا بالله تعالى ان اعطى وراضيا به ان منع فقد روى ابو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان في الانسان ثلاثة الطيرة والظن والحسد فمخرجه من الطيرة ان لا يرجع ومخرجه من الظن ان لا يتحقق ومخرجه من الحسد ان لا يبغي وروي عنه صلى الله عليه وسلم انه قال كفارة الطيرة التوكل على الله تعالى وقيل في منثور الحكم الخير في ترك الطيرة وليقل ان عارضه في الطيرة ريب او خامره فيها وهم ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من تطير فليقل اللهم لا يأتي بالخيرات الا انت ولا يدفع السيئات الا انت ولا حول ولا قوة الا بالله وقد روي ان رجلا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله انا نزلنا دارا فكثر فيها عددنا وكثرت فيها اموالنا ثم تحولنا عنها الى اخرى فقلت فيها اموالنا وقل فيها عددنا فقال النبي صلى الله عليه وسلم ذروها فهي ذميمة وليس هذا القول منه صلى الله عليه وسلم على وجه الطيرة ولكن على طريق التبرك بما فارق وترك ما استوحش منه الى ما انس به * واما الفال ففيه تقوية للعزم وباعث على الجد ومعونة على الظفر فقد تفاءل رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته وحروبه وروى ابو هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع كلمة فاعجبته فقال اخذنا فالك من فيك فينبغي لمن تفاءل ان يتأول الفال باحسن تأويلاته ولا يجعل لسوء الظن على نفسه سبيلا فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ان البلاء موكل بالمنطق روي ان يوسف عليه السلام شكا الى الله

تعالى

تعالى طول الحبس فاوحى الله تعالى اليه يا يوسف انت حبست نفسك حيث قلت رب السجن احب الىّ ولو قلت العافية احب الىّ لعوفيت وحكى ان المؤمل بن اميل الشاعر لما قال يوم الحرة

* شف المؤمل يوم الحرة النظر * ليت المؤمل لم يخلق له بصر *

عمى فاتاه آت فى منامه فقال له هذا ما طلبت وحكى ان الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوما فى المصحف فخرج له قوله تعالى واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد فزق المصحف وانشأ يقول

* أتوعد كل جبار عنيد * فها انا ذاك جبار عنيد *

* اذا ما جئت ربك يوم حشر * فقل يا رب مزقنى الوليد *

فلم يلبث الا اياما حتى قتل شر قتلة وصلب رأسه على قصره ثم على سور بلده فنعوذ بالله من البغى ومصارعه والشيطان ومكائده وهو حسبنا وعليه توكلنا ❊ الفصل السابع فى المروءة ❊ اعلم ان من شواهد الفضل ودلائل الكرم المروءة التى هى حلية النفوس وزينة الهمم فالمروءة مراعاة الاحوال التى تكون على افضلها حتى لا يظهر منها قبيح عن قصد ولا يتوجه اليها ذم باستحقاق روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت اخوته وقال بعض البلغاء من شرائط المروءة ان يتعفف عن الحرام ويتصلف عن الآثام وينصف فى الحكم ويكف عن الظلم ولا يطمع فيما لا يستحق ولا يستطيل على من لا يسترق ولا يعين قويا على ضعيف ولا يؤثر دنيا على شريف ولا يسر ما يعقبه الوزر والاثم ولا يفعل ما يقبح الذكر والاسم وسئل بعض الحكماء عن الفرق بين العقل والمروءة فقال العقل يأمرك بالانفع والمروءة تأمرك بالاجمل ولن تجد الاخلاق على ما وصفنا من حد المروءة منطبعة ولا عن المراعاة مستغنية وانما المراعاة هى المروءة لا ما انطبعت عليه من فضائل الاخلاق لان غرور الهوى ونازع الشهوة يصرفان النفس ان تركب الافضل من خلائقها والاجمل من طرائقها وان سلمت منها وبعيد ان تسلم الا لمن استكمل شرف الاخلاق طبعا واستغنى عن تهذيبها تكلفا وتطبعا وقال الشاعر

* من لك بالمحض وليس محض * يخبث بعض ويطيب بعض *

ثم لو استكمل الفضل طبعا وفى المعوز ان يكون مستكملا لكان فى المستحسن من عادات دهره والموضوع من اصطلاح عصره من حقوق المروءة وشروطها ما لا يتوصل اليه الا بالمعاناة ولا يوقف عليه الا بالتفقد والمراعاة فثبت ان مراعاة النفس على افضل احوالها هى المروءة واذا كانت كذلك فليس ينقاد لها مع ثقل كلفها الا من تسهلت عليه المشاق رغبة فى الحمد وهانت عليه الملاذ حذرا من الذم ولذلك قيل سيد القوم اشقاهم وقال ابو تمام الطائى

* والحمد شهد لا يرى مشتاره * يجنيه الا من نقيع الحنظل *

* غل لحامله ويحسبه الذى * لم يوه عاتقه خفيف المحمل *

﴿ وقد لحظ المتنبى ذلك فى قوله ﴾

* لولا المشقة ساد الناس كلهم * الجود يفقر والاقدام قتال *

﴿ وله ايضا ﴾

* واذا كانت النفوس كبارا * تعبت فى مرادها الاجسام *

والداعى الى استسهال ذلك شيئان احدهما علو الهمة والثانى شرف النفس اما ﴿ علو الهمة ﴾ فلانه باعث على التقدم وداع الى التخصيص انفة من خمول الضعة واستنكارا لمهانة النقص ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم ان الله يحب معالى الامور واشرافها ويكره دنيها وسفسافها وروى عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه انه قال لا تصغرن همتكم فانى لم ار اقعد عن المكرمات من صغر الهمم وقال بعض الحكماء الهمة راية الجد وقال بعض البلغاء علو الهمم بذر النعم وقال بعض العلماء اذا طلب رجلان امرا ظفر به اعظمهما مروءة وقال بعض الادباء من ترك التماس المعالى بسوء الرجاء لم ينل جسيما واما ﴿ شرف النفس ﴾ فان به يكون قبول التأديب واستقرار التقويم والتهذيب لان النفس ربما جمحت عن الافضل وهى به عارفة ونفرت عن التأديب وهى له مستحسنة لانها عليه غير مطبوعة وله غير ملائمة فتصير منه انفر ولضده الملائم آثر وقد قيل ما اكثر من يعرف الحق ولا يطيعه واذا شرفت النفس كانت للآداب طالبة وفى الفضائل راغبة فاذا مازجها صادف طبعا ملائما فنمى واستقر

فاما من منى بعلو الهمة وسلب شرف النفس فقد صار عرضة لامر اعوزته آلته وافسدته جهالته فصار كضرير يروم تعلم الكتابة واخرس يريد الخطبة فلا يزيده الاجتهاد الا عجزا والطلب الا عوزا و لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ما هلك امرؤ عرف قدره وقيل لبعض الحكماء من اسوأ الناس حالا قال من بعدت همته و اتسعت امنيته وقصرت آلته وقلت مقدرته وقال افنون الثعلبي

* ولا خير فيما يكذب المرء نفسه * وتقواله للشئ يا ليت ذا ليا *
* لعمرك ما يدرى امرؤ كيف يتقى * اذا هو لم يجعل له الله واقيا *

وقال بعض الحكماء تجنبوا المنى فانها تذهب ببهجة ما خولتم و تستصغرون بها نعمة الله عليكم وقيل فى منثور الحكم المنى من بضائع النوكى فان صادف بهمته حظا نال به املا كان فيما ناله كالمغتصب وفيما وصل اليه كالمتغلب اذ ليس فى الحظوظ تقدير لحق ولا تمييز لمستحق وانما هى كالسحاب الذى يمسك عن منابت الاشجار الى مغايص البحار و يترك حيث صادف من خبيث وطيب فان صادف ارضا طيبة نفع وان صادف ارضا خبيثة ضر كذلك الحظ ان صادف نفسا شريفة نفع وكان نعمة عامة وان صادف نفسا دنية ضر وكان نقمة طامة وحكى ان موسى بن عمران عليه السلام دعا على قوم بالعذاب فاوحى اليه قد ملكت سفلها على اعلاها فقال يا رب كنت احب لهم عذابا عاجلا فاوحى الله تعالى اليه أوليس هذا كل العذاب العاجل الاليم فاما شرف النفس اذا تجرد عن علو الهمة فان الفضل به عاطل والقدر به خامل وهو كالقوى الجلد الكاسل والجبان الفشل تضيع قوته بكسله وجلده بفشله وقد قيل فى منثور الحكم من دام كسله خاب امله وقال بعض الحكماء نكح العجز التوانى فخرج منهما الندامة ونكح الشؤم الكسل فخرج منهما الحرمان وقال بعض الشعراء

* اذا انت لم تعرف لنفسك حقها * هوانا بها كانت على الناس اهونا *
* فنفسك اكرمها وان ضاق مسكن * عليك لها فاطلب لنفسك مسكنا *
* واياك والسكنى بمنزل ذلة * يعد مسيئا فيه من كان محسنا *

وشرف النفس مع صغر الهمة اولى من علو الهمة مع دناءة النفس لان من علت همته مع دناءة نفسه كان متعديا الى طلب ما لا يستحقه ومتخطيا الى التماس ما لا يستوجبه

ومن شرفت نفسه مع صغر همته، فهو تارك لما يستحق ومقصر عما يجب له وفضل ما بين الامرين ظاهر وان كان لكل واحد منهما من الذم نصيب وقد قيل لبعض الحكماء ما اصعب شئ على الانسان قال ان يعرف نفسه ويكتم الاسرار فاذا اجتمع الامران و اقترن بشرف النفس علو الهمة كان الفضل بهما ظاهرا و الادب بهما وافرا ومشاق الحمد بينهما مسهلة وشروط المروءة بينهما متبينة وقد قال الحصين ابن المنذر الرقاشي

* ان المروءة ليس يدركها امرؤ * ورث المكارم عن اب فاضاعها *
* امرته نفس بالدناءة والخنا * ونهته عن سبل العلا فاطاعها *
* فاذا اصاب من المكارم خلة * يبنى الكريم بها المكارم باعها *

واعلم ان حقوق المروءة اكثر من ان تحصى واخفى من ان تظهر لان منها ما يقوم فى الوهم حسا ومنها ما يقتضيه شاهد الحال حدسا ومنها ما يظهر بالفعل ويخفى بالتغافل فلذلك اعوز استيفاء شروطها الا جلا يتنبه الفاضل عليها بيقظته ويستدل العاقل عليها بفطرته وان كان جميع ما تضمنه كتابنا هذا من حقوق المروءة وشروطها وانما نذكر فى هذا الفصل الاشهر من قواعدها واصولها والاظهر من شروطها وحقوقها محصورا فى تقسيم جامع وهو ينقسم قسمين احدهما شروط المروءة فى نفسه والثانى شروطها فى غيره • فاما شروطها فى نفسه بعد التزام ما اوجبه الشرع من احكامه فيكون بثلاثة امور وهى العفة و النزاهة والصيانة فاما العفة فنوعان احدهما العفة عن المحارم والثانى العفة عن المآثم فاما العفة عن المحارم فنوعان احدهما ضبط الفرج عن الحرام والثانى كف اللسان عن الاعراض فاما ضبط الفرج عن الحرام فلأنه مع وعيد الشرع وزاجر العقل معرة فاضحة وهتكة داحضة ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم من وقى شر ذبذبه ولقلقه، و قبقبه فقد وقى يريد بذبذبه الفرج وبلقلقه اللسان وبقبقبه البطن وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال احب العفاف الى الله تعالى عفاف الفرج والبطن وحكى ان معاوية رضى الله عنه سأل عمر عن المروءة فقال تقوى الله تعالى وصلة الرحم و سأل المغيرة فقال هى العفة عما حرم الله تعالى والحرفة فيما احل الله تعالى وسأل يزيد فقال

هى الصبر على البلوى والشكر على النعمى والعفو عند القدرة فقال معاوية انت منى حقا وقال انوشروان لابنه هرمز من الكامل المروءة فقال من حصن دينه ووصل رحمه واكرم اخوانه وقال بعض الحكماء من احب المكارم اجتنب المحارم وقيل عار الفضيحة يكدر لذتها وقد انشدنى بعض اهل الادب للحسن ابن على رضى الله عنهما

* الموت خير من ركوب العار * والعار خير من دخول النار *
* والله من هذا وهذا جارى *

والداعى الى ذلك شيئان احدهما ارسال الطرف والثانى اتباع الشهوة وقد روى عن النبى عليه السلام انه قال لعلى بن ابى طالب كرم الله وجهه يا على لا تتبع النظرة النظرة فان الاولى لك والثانية عليك وفى قوله لا تتبع النظرة النظرة تأويلان احدهما لا تتبع نظر عينيك نظر قلبك و الثانى لا تتبع الاولى التى وقعت سهوا بالنظرة الثانية التى توقعها عمدا وقال عيسى بن مريم عليه السلام اياكم والنظرة بعد النظرة فانها تزرع فى القلب الشهوة وكفى بها لصاحبها فتنة وقال على بن ابى طالب كرم الله وجهه العيون مصايد الشيطان وقال بعض الحكماء من ارسل طرفه استدعى حتفه وقال بعض الشعراء

* وكنت متى ارسلت طرفك رائدا * لقلبك يوما اتعبتك المناظر *
* رأيت الذى لا كله انت قادر * عليه ولا عن بعضه انت صابر *

واما الشهوة فهى خادعة العقول وغادرة الالباب ومحسنة القبائح ومسولة الفضائح وليس عطب الا وهى له سبب وعليه الب ولذلك قال النبى عليه السلام اربع من كن فيه وجبت له الجنة وحفظ من الشيطان من ملك نفسه حين يرغب وحين يرهب وحين يشتهى وحين يغضب وقهرها عن هذه الاحوال يكون بثلاثة امور ❋ احدها ❋ غض الطرف عن اثارتها وكفه عن مساعدتها فانه الرائد المحرك والقائد المهلك روى سعيد بن سنان عن انس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال تقبلوا الى بست اتقبل اليكم بالجنة قالوا وما هى يا رسول الله قال اذا حدث احدكم فلا يكذب واذا وعد فلا يخلف واذا ائتمن فلا يخون غضوا ابصاركم واحفظوا فروجكم وكفوا ايديكم ❋ والثانى ❋ ترغيبها فى

الحلال عوضا واقناعها بالمباح بدلا فان الله ما حرم شيئا الا واغنى عنه بمباح من جنسه لما علمه من نوازع الشهوة وتركيب الفطرة ليكون ذلك عونا على طاعته وحاجزا عن مخالفته وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما امر الله تعالى بشئ الا واعان عليه ولا نهى عن شئ الا واغنى عنه ﴿ والثالث ﴾ اشعار النفس تقوى الله تعالى فى اوامره واتقاءه فى زواجره والزامها ما الزم من طاعته وتحذيرها ما حذر من معصيته واعلامها انه لا يخفى عليه ضمير ولا يعزب عنه قطمير وانه يجازى المحسن ويكافئ المسئ وبذلك نزلت كتبه وبلغت رسله روى ابن مسعود ان آخر ما نزل من القرآن واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون وآخر ما نزل من التوراة اذا لم تستحى فاصنع ما شئت وآخر ما نزل من الانجيل شر الناس من لا يبالى ان يراه الناس مسيئا وآخر ما نزل من الزبور من يزرع خيرا يحصد زرعه غبطة فاذا اشعرها ما وصفت انقادت الى الكف واذعنت بالاتقاء فسلم دينه وظهرت مروءته فهذا شرط واما كف اللسان عن الاعراض فلأنه ملاذ السفهاء وانتقام اهل الغوغاء وهو مستسهل الكلف اذا لم يقهر نفسه عنه برادع كاف وزاجر صاد تلبط بمعاره وتخبط بمضاره وظن انه لتجافى الناس عنه حمى يتقى ورتبة ترتقى فهلك واهلك فلذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم ألا ان دماءكم واموالكم واعراضكم حرام عليكم حرام عليكم فجمع بين الدم والعرض لما فيه من ايغار الصدور وابداء الشرور واظهار البذاء واكتساب الاعداء ولا يبقى مع هذه الامور وزن لموموق ولا مروءة لملحوظ ثم هو بها موتور موزور ولاجلها مهجور مزجور وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال شر الناس من اكرمه الناس اتقاء لسانه وقال بعض الحكماء انما هلك الناس بفضول الكلام وفضول المال وما قدح فى الاعراض من الكلام نوعان احدهما ما قدح فى عرض صاحبه ولم يتجاوزه الى غيره وذلك شيئان الكذب وفحش القول والثانى ما تجاوزه الى غيره وذلك اربعة اشياء الغيبة والنميمة والسعاية والسب بقذف او شتم وربما كان السب انكاها للقلوب وابلغها اثرا فى النفوس ولذلك ما زجر الله عنه بالحد تغليظا وبالتفسيق تشديدا وتصعيبا وقد يكون ذلك لاحد شيئين اما انتقام يصدر عن

سفه او بذاء يحدث عن لؤم وقد روى ابو سلمة عن ابى هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال المؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم وقال ابن المقفع الاستطالة لسان الجهالة وكف النفس عن هذه الحال بما يصدها من الزواجر اسلم وهو بذى المروءة اجمل فهذا شرط واما العفة عن المآثم فنوعان احدهما الكف عن المجاهرة بالظلم والثانى زجر النفس عن الاسرار بخيانة فاما المجاهرة بالظلم فعتو مهلك وطغيان متلف وهو يؤول ان استمر الى فتنة او جلاء فاما الفتنة فى الاغلب فتحيط بصاحبها وتنعكس عن البادئ بها فلا تنكشف الا وهو بها مصروع كما قال الله تعالى ولا يحيق المكر السيئ الا باهله وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الفتنة نائمة فمن ايقظها صار طعاما لها وقال جعفر بن محمد الفتنة حصاد للظالمين وقال بعض الحكماء صاحب الفتنة اقرب شئ اجلا واسوأ شئ عملا وقال بعض الشعراء

* وكنت كعنز السوء قامت لحتفها * الى مدية تحت الثرى تستثيرها *

واما الجلاء فقد يكون من قوة الظالم وتطاول مدته فيصير ظلمه مع المكنة جلاء وفناء كالنار اذا وقعت فى يابس الشجر فلا تبقى معها مع تمكنها شيئا حتى اذا افنت ما وجدت اضمحلت وخمدت فكذا حال الظالم مهلك ثم هالك والباعث على ذلك شيئان الجراءة والقسوة ولذلك قال النبى عليه السلام اطلبوا الفضل والمعروف عند الرحماء من امتى تعيشوا فى اكنافهم والصاد عن ذلك ان يرى آثار الله تعالى فى الظالمين فان له فيهم عبرا ويتصور عواقب ظلمهم فان فيها مزدجرا وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من اصبح ولم ينو ظلم احد غفر الله له ما اجترم وروى جعفر بن محمد عن ابيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا على اتق دعوة المظلوم فانه انما يسأل الله حقه وان الله لا يمنع ذا حق حقه وقيل فى منثور الحكم ويل للظالم من يوم المظالم وقال بعض البلغاء من جار حكمه اهلكه ظلمه وقال بعض الشعراء

* وما من يد الا يد الله فوقها * ولا ظالم الا سيبلى بظالم *

واما الاستسرار بالخيانة فضعة لانه بذل الخيانة مهين ولقلة الثقة به مستكين وقد قيل فى منثور الحكم من يخن يهن وقال خالد الربعى قرأت فى بعض

الكتب السالفة ان مما تعجل عقوبة ولا تؤخر الامانة تخان والاحسان يكفر والرحم تقطع والبغى على الناس ولولم يكن من ذم الخيانة الا ما يجده الخائن فى نفسه من المذلة لكفاه زاجرا ولو تصور عقبى امانته وجدوى ثقته لعلم ان ذلك من اربح بضائع جاهه واقوى شفعاء تقدمه مع ما يجده فى نفسه من العز ويقابل عليه من الاعظام وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال أدّ الامانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك وروى سعيد بن جبير قال لما نزلت هذه الآية ومن اهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا ما دمت عليه قائما ذلك بانهم قالوا ليس علينا فى الاميين سبيل يعنون ان اموال العرب حلال لهم لانهم من غير اهل الكتاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذب اعداء الله ما من شئ كان فى الجاهلية الا وهو تحت قدمى الا الامانة فانها مؤداة الى البر والفاجر ولا يجعل ما يتظاهر به من الامانة زورا ولا ما يبديه من العفة غرورا فينهتك الزور وينكشف الغرور فيكون مع هتكه للتدليس اقبح ولمعرة الرياء افضح وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لا تزال امتى بخير ما لم تر الامانة مغنما والصدقة مغرما وقال بعض الحكماء من التمس اربع باربع التمس ما لا يكون ومن التمس الجزاء بالرياء التمس ما لا يكون ومن التمس مودة الناس بالغلظة التمس ما لا يكون ومن التمس وفاء الاخوان بغير وفاء التمس ما لا يكون ومن التمس العلم براحة الجسد التمس ما لا يكون والداعى الى الخيانة شيئان المهانة وقلة الامانة فاذا حسمهما عن نفسه بما وصفت ظهرت مروءته فهذا شرط قد استوفينا فيه اقسام العفة • واما النزاهة فنوعان احدهما النزاهة عن المطامع الدنية والثانى النزاهة عن مواقف الريبة فاما المطامع الدنية فلان الطمع ذل والدناءة لؤم وهما ادفع شئ للمروءة وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه اللهم انى اعوذ بك من طمع يهدى الى طبع وقال بعض الشعراء

* لا تخضعن لمخلوق على طمع * فان ذلك نقص منك فى الدين *

* واسترزق الله مما فى خزائنه * فانما هو بين الكاف والنون *

والباعث على ذلك شيئان الشره وقلة الانفة فلا يقنع بما اوتى وان كان كثيرا

لاجل

لاجل شرهه و لا يستنكف مما منع وان كان حقيرا لقلة انفته وهذه حال من لا يرى لنفسه قدرا ويرى المال اعظم خطرا فيرى بذل اهون الامرين لاجلهما مغنما و ليس لمن كان المال عنده اجل و نفسه عليه اقل اصغاء لتأنيب و لا قبول لتأديب و روى ان رجلا قال يا رسول الله اوصنى قال عليك باليأس مما فى ايدى الناس واياك والطمع فانه فقر حاضر واذا صليت صلاة فصل صلاة مودع و اياك وما يعتذر منه وقال بعض الشعراء

* ومن كانت الدنيا مناه وهمه * سبته المنى واستعبدته المطامع *

وحسم هذه المطامع شيئان اليأس والقناعة وقد روى عبد الله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان روح القدس نفث فى روعى ان نفسا لا تموت حتى تستوفى رزقها فاتقوا الله واجملوا فى الطلب ولا يحملنكم ابطاء الرزق على ان تطلبوه بمعاصى الله تعالى فان الله عز وجل لا يدرك ما عنده الا بطاعته فهذا شرط • واما مواقف الريبة فهى التردد بين منزلتى حمد و ذم والوقوف بين حالتى سلامة وسقم فتتوجه اليه لائمة المتوهمين ويناله ذلة المريبين وكفى بصاحبها موقفا ان صح افتضح وان لم يصح امتهن وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم دع ما يريبك الى ما لا يريبك وسئل محمد بن على عن المروءة فقال ان لا تعمل فى السر عملا تستحيى منه فى العلانية وقال حسان بن ابى سنان ما وجدت شيئا هو اهون من الورع قيل له وكيف قال اذا ارتبت بشئ تركته والداعى الى هذه الحال شيئان الاسترسال وحسن الظن والمانع منهما شيئان الحياء والحذر وربما انتفت الريبة بحسن الثقة وارتفعت التهمة بطول الخبرة وقد حكى عن عيسى بن مريم عليه السلام انه رآه بعض الحواريين وقد خرج من منزل امرأة ذات فجور فقال يا روح الله ما تصنع هنا فقال الطبيب انما يداوى المرضى ولكن لا ينبغى ان يجعل ذلك طريقا الى الاسترسال وليكن الحذر عليه اغلب والى الخوف من تصديق التهم اقرب فما كل ريبة ينفيها حسن الثقة هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابعد خلق الله من الريب واصونهم من التهم وقف مع زوجته صفية ذات ليلة على باب مسجد يحادثها وكان معتكفا فمر به رجلان من الانصار فلما رآياه اسرعا فقال لهما على رسلكما انها

صفية بنت حيي فقالا سبحان الله أوفيك شك يا رسول الله فقال مه ان الشيطان يجري من احدكم مجرى لحمه ودمه فخشيت ان يقذف في قلبيكما سوءا فكيف من تخالجت فيه الشكوك وتقابلت فيه الظنون فهل يعري من في مواقف الريب من قادح محقق ولائم مصدق وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا لم يشق المرء الا بما عمل فقد سعد واذا استعمل الحزم وغلب الحذر وترك مواقف الريب ومظان التهم ولم يقف موقف الاعتذار ولا عذر لمختار لم يختلج في نزاهته شك ولم يقدح في عرضه افك وقد قال الشاعر

* اصونك ان ادل عليك ظنا * لان الظن مفتاح اليقين *

وقال سهل بن هارون مؤنة المتوقف ايسر من تكلف المعسف وقال بعض الحكماء من حسن ظنه بمن لا يخاف الله تعالى فهو مخدوع وانشدني بعض اهل الادب لابي بكر الصولي رحمه الله قوله

* احسنت ظني باهل دهري * فحسن ظني بهم دهاني *
* لا آمن الناس بعد هذا * ما الخوف الا من الآمان *

فهذا شرط استوفينا فيه نوعي النزاهة * واما الصيانة وهي الثالث من شروط المروءة فنوعان احدهما صيانة النفس بالتماس كفايتها وتقدير مادتها والثاني صيانتها عن تحمل المنن من الناس والاسترسال في الاستعانة واما التماس الكفاية وتقدير المادة فلان المحتاج الى الناس كل مهتضم وذليل مستثقل وهو لما فطر عليه محتاج الى ما يستمده ليقيم اود نفسه ويدفع ضرورة وقته وقد قالت العرب في امثالها كلب جوال خير من اسد رابض وما يستمده نوعان لازم وندب فاما اللازم فما اقام بالكفاية وافضى الى سد الخلة وعليه في طلبه ثلاثة شروط * احدها * استطابته من الوجوه المباحة وتوقي المحظورة فان المواد المحرمة مستخبثة الاصول محوقة المحصول ان صرفها في بر لم يؤجر وان صرفها في مدح لم يشكر ثم هو لاوزارها محتقب وعليها معاقب وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعجبك رجل كسب مالا من غير حله فان انفقه لم يقبل منه وان امسكه فهو زاده الى النار وقال بعض الحكماء شر المال ما لزمك اثم مكسبه وحرمت اجر انفاقه ونظر بعض الخوارج الى رجل من اصحاب السلطان

يتصدق

يتصدق على مسكين فقال انظر اليهم حسناتهم من سيئاتهم وقال على بن الجهم

* سر من عاش ماله فاذا حا * سبه الله سره الاعدام *

﴿ والثانى ﴾ طلبه من احسن جهاته التى لا يلحقه فيها غض ولا يتدنس له بها عرض فان المال يراد لصيانة الاعراض لا لابتذالها ولعز النفوس لا لاذلالها وقال عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه يا حبذا المال اصون به عرضى وارضى به ربى وقال ابو بشر الضرير

* كفى حزنا انى اروح واغتدى * ومالى من مال اصون به عرضى *
* واكثر ما القى الصديق بمرحبا * وذلك لا يكفى الصديق ولا يرضى *

وسئل ابن عائشة عن قول النبى صلى الله عليه وسلم اطلبوا الحوائج من حسان الوجوه فقال معناه من احسن الوجوه التى تحل ﴿ والثالث ﴾ ان يتأنى فى تقدير مادته وتدبير كفايته بما لا يلحقه خلل ولا يناله زلل فان يسير المال مع حسن التقدير واصابة التدبير اجدى نفعا واحسن موقعا من كثيره مع سوء التدبير وفساد التقدير كالبذر فى الارض اذا روعى يسيره زكا وان اهمل كثيره اضمحل وقال محمد بن على رضى الله عنه الكمال فى ثلاثة العفة فى الدين والصبر على النوائب وحسن التدبير فى المعيشة وقيل لبعض الحكماء فلان غنى فقال لا اعرف ذلك ما لم اعرف تدبيره فى ماله فاذا استكمل هذه الشروط فيما يستمده من قدر الكفاية فقد ادى حق المروءة فى نفسه وسئل الاحنف بن قيس عن المروءة فقال العفة والحرفة وقال بعض الحكماء لابنه يا بنى لا تكن على احد كلا فانك تزداد ذلا واضرب فى الارض عودا وبدءا ولا تأسف لمال كان فذهب ولا تعجز عن الطلب لوصب ولا نصب فهذا حال اللازم وقد كان ذووا الهمم العلية والنفوس الابية يرون ما وصل الى الانسان كسبا افضل مما وصل اليه ارثا لانه فى الارث فى جدوى غيره وبالكسب مجد الى غيره وفرق ما بينهما فى الفضل ظاهر وقال كشاجم

* لا استلذ العيش لم ادأب له * طلبا وسعيا فى الهواجر والغلس *
* وارى حراما ان يواتينى الغنى * حتى يحاول بالعناء ويلتمس *
* فاصرف نوالك عن اخيك موفرا * فالليث ليس يسيغ الا ما افترس *

واما الندب فهو ما فضل عن الكفاية وزاد على قدر الحاجة فان الامر فيه معتبر بحال طالبه فان كان ممن تقاعد عن مراتب الرؤساء وتقاصر عن مطاولة النظراء وانقبض عن منافسة الاكفاء فحسبه ما كفاه فليس فى الزيادة الا شره ولا فى الفضول الا نهم وكلاهما مذموم وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم خير الرزق ما يكفى وخير الذكر الخفى وقال على بن ابى طالب كرم الله وجهه الدنيا كل على العاقل وقال عبد الله بن مسعود المستغنى عن الدنيا بالدنيا كمطفئ النار بالتبن وقال بعض الحكماء اشتر ماء وجهك بالقناعة وتسل عن الدنيا لتجافيها عن الكرام فان كان ممن منى بعلو الهمم وتحركت فيه اريحية الكرم وآثر ان يكون رأسا ومقدما وان يرى فى النفوس معظما ومفخما فالكفاية لا تقله حتى يكون ماله فاضلا ونائله فائضا فقد قيل لبعض العرب ما المروءة فيكم قال طعام مأكول ونائل مبذول وبشر مقبول وقد قال الاحنف بن قيس

* فلو مد سروى بمال كثير لجدت وكنت له باذلا *
* فان المروءة لا تستطاع * اذا لم يكن مالها فاضلا *

واما صيانتها عن تحمل المنن والاسترسال فى الاستعانة فلأن المنة استرقاق الاحرار تحدث ذلة فى الممنون عليه وسطوة فى المان به والاسترسال فى الاستعانة تثقيل ومن ثقل على الناس هان ولا قدر عندهم لمهان وقال رجل لعمر رضى الله عنه خدمك بنوك فقال اغنانى الله عنهم وقال على بن ابى طالب رضى الله عنه لابنه الحسن فى وصيته له يا بنى ان استطعت ان لا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرا فان اليسير من الله تعالى اكرم واعظم من الكثير من غيره وان كان كل منه كثيرا وقال زياد لبعض الدهاقين ما المروءة فيكم قال اجتناب الريب فانه لا ينبل مريب واصلاح الرجل ماله فانه من مروءته وقيامه بحوائجه وحوائج اهله فانه لا ينبل من احتاج الى اهله ولا من احتاج اهله الى غيره وانشد ثعلب

* من عف خف على الصديق لقاؤه * واخو الحوائج وجهه مملول *
* واخوك من وفرت ما فى كيسه * فاذا عبثت به فانت ثقيل *

وان كان الناس لحمة لا يستغنون عن التعاون ولا يستقلون عن المساعد والمظافر فانما ذلك تعاون ائتلاف يتكافؤن فيه ولا يتفاضلون وربما كان المستعين فيه مفضلا والمعين مستفضلا كاستعانة السلطان بجنده والمزارع باكرته فليس من هذا بد ولا لاحد عنه غنى وانما الذى يتصون عنه الكرام تعاون التفضيل فينقبضون عن ان يستعينوا لئلا يكون عليهم يد ويسارعون ان يعينوا لان يكون لهم يد ومن اقدم من غير اضطرار على الاستعانة بجاه او بمال فقد اوهى مروءته واستبذل صيانته ومن دعاه الاضطرار لنائب الم او حادث هجم الى الاستعانة بمن يتنفس به من خناق كربه ويتخلص به من وثاق نوائبه فلا لوم على مضطر فان اغنته الاستعانة بالجاه عن الاستعانة بالمال فلا عذر له فى التعرض للمال ويعدل الى ولاة الامور فان الحوائج عندهم انجح وهى عليهم اسهل وهم لذلك مندوبون فهم لا يجدون لهم مسا وليصبرن على ابطائهم فان تراكم الامور عليهم يشغلهم الا عن الملحّ الصبور ولذلك قيل قدم لحاجتك بعض لجاجتك وقال ابو سارة سحيم بن الاعرف

* تعد قرابة وتعد صهرا * ويسعد بالقرابة من رعاها *
* وما زرناك من عدم ولكن * يهش الى الامارة من رجاها *
* وايا ما فعلت فان نفسى * تعد صلاح نفسك من غناها *

فان تعذر عليه صلاح حاله الا بمال يستعين به على نوائبه كان له مع الضرورة فسحة لكن ان وجده قرضا مردودا لم يأخذه صلة وجودا فان القرض مستسمح به فى المروءات هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما اعلى الله من قدره وفضله على خلقه قد اقترض ثم قضى فاحسن وقال صلى الله عليه وسلم من اعياه رزق الله تعالى حلالا فليستدن على الله وعلى رسوله وقال صلى الله عليه وسلم المستدين تاجر الله فى ارضه وقال البحترى

* ان لم يكن كنز فغل عطية * يبلغ بها باغى الرضا بعض الرضا *
* او لم يكن هبة فقرض سيرت * اسبابه وكواهب من اقرضا *

ولئن كان الدين رقا فهو اسهل من رق الافضال وقد روى عن على بن ابى طالب رضى الله عنه انه قال من اراد البقاء ولا بقاء فليباكر الغداء وليخفف الرداء قيل وما فى خفة الرداء من البقاء قال قلة الدين فان اعوزه ذلك الا استعماحا فهو الرق المذل ولذلك قيل لا مروءة لمقل وقال بعض الحكماء من قبل صلتك فقد باعك مروءته واذل لقدرك عزه وجلالته والذى يتماسك به الباقى من مروءة الراغبين واليسير التافه من صيانة السائلين وان لم يبق لذى رغبة مروءة ولا لسائل تصون اربعة امور هى جهد المضطر ﴿ احدها ﴾ ان يتجافى ضرع السائلين وابهة المستقلين فيذل بالضرع ويحرم بالابهة وليكن من التجمل على ما يقتضيه حال مثله من ذوى الحاجات وقد قيل لبعض الحكماء متى يفحش زوال النعم قال اذا زال معها التجمل وانشد بعض اهل الادب لعلى بن الجهم

* هى النفس ما حملتها تتحمل * وللدهر ايام تجور وتعدل *
* وعاقبة الصبر الجميل جميلة * واحسن اخلاق الرجال التفضل *
* ولا عار ان زالت عن الحر نعمة * ولكن عارا ان يزول التجمل *

﴿ والثانى ﴾ ان يقتصر فى السؤال على ما دعته اليه الضرورة وقادته اليه الحاجة ولا يجعل ذلك ذريعة الى الاغتنام فيحرم باغتنامه ولا يعذر فى ضرورته وقد قال بعض الحكماء من الف المسألة الف المنع ﴿ والثالث ﴾ ان يعذر فى المنع ويشكر على الاجابة فانه ان منع فعما لا يملك وان اجيب فالى ما لا يستحق فقد قال النمر بن تولب

* لا تغضبن على امرئ فى ماله * وعلى كرائم صلب مالك فاغضب *

﴿ والرابع ﴾ ان يعتمد على سؤال من كان للمسألة اهلا وكان النجح عنده مأمولا فان ذوى المكنة كثير والمعين منهم قليل ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم الخير كثير وقليل فاعله والمرجو للاجابة من تكاملت فيه خصالها وهى ثلاث ﴿ احداهن ﴾ كرم الطبع فان الكريم مساعد واللئيم معاند وقد قيل المخذول من كانت له الى اللئام حاجة ﴿ والثانية ﴾ سلامة الصدر فان العدو الب على نكبتك وحرب فى نائبتك وقد قيل من اوغرت صدره استدعيت

شره فان رق لك بكرم طبعه ورحمك بحسن ظفره فاعظم بهـا محنة ان يصير عدوك لك راحما وقد قال الشاعر

* وحسبك من حادث بامرئ * ترى حاسديه له راحمينا *

﴿ والثالث ﴾ ظهور المكنة فان من سأل ما لا يمكن فقد احال وكان كمستنهض المسجون ومستسعف المديون وكان بالرد خليقا وبالحرمان حقيقا وقد قال على كرم الله وجهه من لا يعرف لا حتى يقـال له لا فهو احمق ووصى عبد الله بن الاهتم ابنه فقـال يا بنى لا تطلب الحوائج من غير اهلهـا ولا تطلبهـا فى غير حينها ولا تطلب ما لست له مستحقا فانك ان فعلت ذلك كنت حقيقـا بالحرمان وقال الشاعر

* ولا تسألن امرءا حاجة * يحاول من ربه مثلهـا *
* فيترك ما كنت حملتـه * ويبدأ بحاجته قبلهـا *

فهذا ما يختص بشروط المروءة فى نفسه واما شروط المروءة فى غيره فثلاثة الموازرة والمياسرة والافضال اما ﴿ الموازرة ﴾ فنوعان احدهمـا الاسـعاف بالجاه والثـانى الاسـعاف فى النوائب فاما الاسعاف بالجاه فقد يكون من الاعلى قدرا والانفذ امرا وهو ارخص المكارم ثمنا والطف الصنائع موقعا وربما كان اعظم من المال نفعـا وهو الظل الذى يلجأ اليه المضطرون والحمى الذى يأوى اليه الخائفون فان اوطأه اتسع بكثرة الانصـار والشيع وان قبضه انقطع بنفور الغاشـية والتبع فهو بالبذل ينمى ويزيد وبالكف ينقص ويبيد فلا عذر لمن منح جاهـا ان يبخل به فيكون اسـوأ حالا من البخيل بمـاله الذى قد يعده لنوائبه ويستبقيه للذته ويكنزه لذريته وبضد ذلك من بخل بجاهه لانه قد اضـاعه بالشح وبدده بالبخل وحرم نفسه غنيمة مكنته وفرصة قدرته فلم يعقبه الا ندما على فائت واسفا على ضائع ومقتا يستحكم فى النفوس وذما قد ينتشر فى الناس وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الخلق كلهم عيال الله واحب خلق الله تعـالى اليه احسنهم صنيعا الى عياله وقال بعض الحكماء اصنع الخير عند امكانه يبق لك حمده عند زواله واحسن والدولة لك يحسن لك والدولة عليك واجعل زمان رخائك عدة لزمان بلائك وقال بعض البلغـاء من علامة الاقبال اصطناع

الرجال وقال بعض الادباء بذل الجاه احد الحبائين وقال ابن الاعرابى العرب تقول من امل شيئا هابه ومن جهل شيئا عابه وبذل الجاه قد يكون من كرم النفس وشكر النعمة وضده من ضده وليس بذل الجاه لالتماس الجزاء بذلا مشكورا وانما هو بائع جاهه ومعاوض على نعم الله تعالى وآلائه فكان بالذم احق وانشد بعض الادباء لعلى بن عباس الرومى رحمه الله

* لا يبذل العرف حين يبذله * كمشترى الحمد او كمعتاضه *
* بل يفعل العرف حين يفعله * لجوهر العرف لا لاعراضه *

وعلى من اسعد بجاهه ثلاثة حقوق يستكثر بها الشكر ويستمد بها المزيد من الاجر ❋ احدها ❋ ان يستسهل المعونة مسرورا ولا يستثقلها كارها فيكون بنعم الله تعالى متبرما ولاحسانه متسخطا فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من عظمت نعمة الله تعالى عليه عظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المؤنة عرض تلك النعمة للزوال ❋ والثانى ❋ مجانبة الاستطالة وترك الامتنان فانهما من لؤم الطبع وضيق الصدر وفيهما هدم الصنيع واحباط الشكر وقد قيل للحكيم اليونانى من اضيق الناس طريقا واقلهم صديقا قال من عاشر الناس بعبوس وجهه واستطال عليهم بنفسه ❋ والثالث ❋ ان لا يقرن بمشكور سعيه تقريعا بذنب ولا توبيخا على هفوة فلا يفى مضض التوبيخ بادراك النجح ويصير الشكر وجدا والحمد عيبا ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم اقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم وقال النابغة الجعدى

* ألم تعلما ان الملامة نفعها * قليل اذا ما الشئ ولى فادبرا *

واما الاسعاف فى النوائب فلان الايام غادرة والنوازل غائرة والحوادث عارضة والنوائب راكضة فلا يعذر فيها الا عليم ولا يستنقذه منها الا سليم وقد قال عدى بن حاتم

* كفى زاجرا للمرء ايام دهره * تروح له بالواعظات وتغتدى *

فاذا وجد الكريم مصابا بحوادث دهره حثه الكرم وشكر النعم على الاسعاف فيها بما استطاع سبيلا اليه ووجد قدرة عليه روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال خير من الخير معطيه وشر من الشر فاعله وقيل لبعض الحكماء هل شئ

خير

خير من الذهب والفضة قال معطيهما والاسعاف فى النوائب نوعان واجب وتبرع فاما الواجب فما اختص بثلاثة اصناف وهم الاهل والاخوان والجيران اما الاهل فلمماسة الرحم وتعاطف النسب وقد قيل لم يسد من احتاج اهله الى غيره وقال حسان بن ثابت

* وان امرءا نال المنى ثم لم ينل * قريبا ولا ذا حاجة لزهيد *

* وان امرءا عادى الرجال على الغنى * ولم يسأل الله الغنى لحسود *

واما الاخوان فلمستحكم الود ومتأكد العهد سئل الاحنف بن قيس عن المروءة فقال صدق اللسان ومواساة الاخوان وذكر الله تعالى فى كل مكان وقال بعض حكماء الفرس صفة الصديق ان يبذل لك ماله عند الحاجة ونفسه عند النكبة ويحفظك عند المغيب ورأى بعض الحكماء رجلين يصطحبان لا يفترقان فسأل عنهما فقيل هما صديقان فقال ما بال احدهما فقير والآخر غنى واما الجار فلدنو داره واتصال مزاره قال على كرم الله وجهه ليس حسن الجوار كف الاذى بل الصبر على الاذى وقال بعض الحكماء من اجار جاره اعار الله واجاره وقال بعض البلغاء من احسن الى جاره فقد دل على حسن نجاره وقال بعض الشعراء

* وللجار حق فاحترز من اذائه * وما خير جار لا يزال مؤاذيا *

فيجب فى حقوق المروءة وشروط الكرم فى هؤلاء الثلاثة تحمل اثقالهم واسعافهم فى نوائبهم ولا فسحة لذى مروءة مع ظهور المكنة ان يكلهم الى غيره او يلجئهم الى سؤاله وليكن سائل كرم نفسه عنهم فانهم عيال كرمه واضياف مروءته فكما انه لا يحسن ان يلجئ عياله واضيافه الى الطلب والرغبة فهكذا من عاله كرمه واضافته مروءته وقال بعض الشعراء

* حق على السيد المرجو نائله * والمستجار به فى العرب والعجم *

* ان لا يذيل الاقاصى صوب راحته * حتى يخص به الادنى من الخدم *

* ان الفرات اذا جاشت غواربه * روى السواحل ثم امتد فى الامم *

واما التبرع فيمن عدا هؤلاء الثلاثة من البعداء الذين لا يدلون بنسب ولا يتعلقون بسبب فان تبرع بفضل الكرم وفائض المروءة فنهض فى حوادثهم وتكفل

بنوائبهم فقد زاد على شروط المروءة وتجاوزها الى شروط الرئاسة وقيل لبعض الحكماء اى شئ من افعال الناس يشبه افعال الاله قال الاحسان الى الناس وان كف تشاغلا بما لزم فلا لوم ما لم يلجأ اليه مضطر لان القيام بالكل معوز والتكفل بالجميع متعذر فهذا حكم الموازرة ◆ واما ❊ المياسرة ❊ فنوعان احدهما العفو عن الهفوات والثانى المسامحة فى الحقوق فاما العفو عن الهفوات فلانه لا مبرأ من سهو وزلل ولا سليم من نقص او خلل ومن رام سليما من هفوة والتمس بريئا من نبوة فقد تعدى على الدهر بشططه وخادع نفسه بغلطه وكان من وجود بغيته بعيدا وصار باقتراحه فردا وحيدا وقد قالت الحكماء لا صديق لمن اراد صديقا لا عيب فيه وقيل لانوشروان هل من احد لا عيب فيه قال من لا موت له واذا كان الدهر لا يوجده ما طلب ولا يذله ما احب وكان الوحيد فى الناس مرفوضا قصيا والمنقطع عنهم وحشيا لزمه مساعدة زمانه فى القضاء ومياسرة اخوانه فى الصفح والاغضاء روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله تعالى امرنى بمداراة الناس كما امرنى باداء الفرائض وقال بعض الادباء ثلاث خصال لا تجتمع الا فى كريم حسن المحضر واحتمال الزلة وقلة الملال وقال ابن الرومى

* فعذرك مبسوط لذنب مقدم * وودك مقبول باهل ومرحب *
* ولو بلغتنى عنك اذنى اقمتها * لدىّ مقام الكاشح المتكذب *
* فلست بتقليب اللسان مصارما * خليلا اذا ما القلب لم يتقلب *

واذا كان الاغضاء حتما والصفح كرما ترتب بحسب الهفوة وتنزل بقدر الذنب والهفوات نوعان صغائر وكبائر فالصغائر مغفورة والنفوس بها معذورة لان الناس مع اطوارهم المختلفة واخلاقهم المتفاضلة لا يسلمون منها فكان الوجد فيها مطرحا والعتب مستقبحا وقد قال بعض العلماء من هجر اخاه من غير ذنب كان كمن زرع زرعا ثم حصده فى غير اوانه وقال ابو العتاهية

* وشر الاخلاء من لم يزل * يعاتب طورا وطورا يذم *
* يريك النصيحة عند اللقا * ء ويبريك فى السر برى القلم *

واما الكبائر فنوعان ان يهفو بها خاطيا ويزل بها ساهيا فالحرج فيها مرفوع

والعتب

والعتب عنها موضوع لان هفوة الخاطر هدر ولومه هذر وقال بعض الحكماء لا تقطع اخاك الا بعد عجز الحيلة عن استصلاحه وقال الاحنف بن قيس حق الصديق ان تحتمل له ثلاثا ظلم الغضب وظلم الدالة وظلم الهفوة وحكى ابن عون ان غلاما هاشميا عربد على قوم فاراد عمه ان يسئ به فقال يا عم انى قد اسأت وليس معى عقلى فلا تسئ بى ومعك عقلك وقال ابو نواس

* لم اواخذك اذ جنيت لانى * واثق منك بالاخاء الصحيح *
* فجميل العدو غير جميل * وقبيح الصديق غير قبيح *

فان تشبه خطاؤه بالعمد وسهوه بالقصد تثبت ولم يهم بالتوهم فيكون ملوما ولذلك قيل التثبت نصف العفو وقال بعض الحكماء لا يفسدك الظن على صديق اصلحك اليقين له وقال بعض شعراء هذيل

* فبعض الامر تصلحه ببعض * فان الغث يحمله السمين *
* ولا تعجل بظنك قبل خبر * فعند الخبر تنقطع الظنون *
* ترى بين الرجال العين فضلا * وفيما اضمروا الفضل المبين *
* كلون الماء مشتبها وليست * تخبر عن مذاقته العيون *

والثانى ان يعتمد ما اجترم من كبائره ويقصد ما اجترح من سيئاته ولا يخلو فيما اتاه من اربع احوال ❊ فالحال الاولى ❊ ان يكون موتورا قد قابل على وتره وكافأ على مساءته فاللائمة على من وتره عائدة والى البادئ بها راجعة لان المكافئ اعذر وان كان الصفح اجمل ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم اياكم والمشارة فانها تميت الغيرة وتحيي الغرة وقال بعض الحكماء من فعل ما شاء لقى ما لم يشأ وقال بعض الادباء من نالته اساءتك همته مساءتك وقال بعض البلغاء من اولع بقبح المعاملة اوجع بقبح المقابلة وقال صالح بن عبد القدوس

* اذا وترت امرءا فاحذر عداوته * من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا *
* ان العدو وان ابدى مسالمة * اذا رأى منك يوما فرصة وثبا *

والاغضاء عن هذا اوجب وان لم تكن المكافأة ذنبا لانه قد رأى عقبى اساءته فان واصل الشر واصلته المكافأة وقد قيل باعتزالك الشر يعتزلك وبحسن

النصفة تكون المواصلون وقال بعض الحكماء من كنت سببا لبلائه وجب عليك التلطف له فى علاجه من دائه وقد قال اوس بن حجر

* اذا كنت لم تعرض عن الجهل والخنا * اصبت حليما او اصابك جاهل *

والحال الثانية ان يكون عدوا قد استحكمت شحناؤه واستوعرت شراؤه واستخشنت ضراؤه فهو يتربص بدوائر السوء انتهاز فرصه ويتجرع بمهانة العجز مرارة غصصه فاذا ظفر بنائبة ساعدها واذا شاهد نعمة عاندها فالبعد منه حذرا اسلم والكف عنه متاركة اغنم فانه لا يسلم من عواقب شره ولا يفلت من غوائل مكره وقد قالت الحكماء لا تعرضن لعدوك فى دولته فاذا زالت كفيت شره وقال لقمان لابنه يا بنى كذب من قال ان الشر بالشر يطفأ فان كان صادقا فليوقد نارين ولينظر هل تطفئ احدهما الاخرى وانما يطفئ الخير الشر كما يطفئ الماء النار وقال جعفر بن محمد كفاك من الله نصرا ان ترى عدوك يعصى الله فيك وقال بعض الحكماء بالسيرة العادلة يقهر المعادى وقال البحترى

* واقسم لا اجزيك بالشر مثله * كفى بالذى جازيتنى لك جازيا *

❊ والحال الثالثة ❊ ان يكون لئيم الطبع خبيث الاصل قد اغراه لؤم الطبع على سوء الاعتقاد وبعثه خبث الاصل على اتيان الفساد فهو لا يستقبح الشر ولا يكف عن المكروه فهذه الحالة اطم لان الاضرار بها اعم ولا سلامة من مثله الا بالبعد والانقباض ولا خلاص منه الا بالصفح والاعراض فانه كالسبع الضارى فى سوارح الغنم وكالنار المتأججة فى يابس الحطب لا يقربها الا تالف ولا يدنو منها الا هالك روى مكحول عن ابى امامة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال الناس كشجرة ذات جنى ويوشك ان يعودوا كشجرة ذات شوك ان ناقدتهم ناقدوك وان هربت منهم طلبوك وان تركتهم لم يتركوك قيل يا رسول الله وكيف المخرج قال أقرضهم من عرضك ليوم فاقتك وقال عبد الله بن العباس العاقل الكريم صديق كل احد الا من ضره والجاهل اللئيم عدو كل احد الا من نفعه وقال شر ما فى الكريم ان يمنعك خيره وخير ما فى اللئيم ان يكف عنك شره وقال بعض البلغاء اعداؤك داؤك وفى البعد عنهم شفاؤك وقال بعض البلغاء

شرف الكريم تغافله عن اللئيم ووصى بعض الحكماء ابنه فقال يا بنى اذا سلم الناس منك فلا عليك ان لا تسلم منه فانه قل ما اجتمعت هاتان النعمتان وقال عبد المسيح بن نفيلة

* الخير والشر مقرونان فى قرن * فالخير مستتبع والشر محذور *

❋ والحال الرابعة ❋ ان يكون صديقا قد استحدث نبوة وتغيرا او اخا قد استجد جفوة وتنكرا فابدى صفحة عقوقه واطرح لازم حقوقه وعدل عن بر الاخاء الى جفوة الاعداء فهذا قد يعرض فى المودات المستقيمة كما تعرض الامراض فى الاجسام السليمة فان عولجت اقلعت وان اهملت اسقمت ثم اتلفت ولذلك قالت الحكماء دواء المودة كثرة التعاهد وقال كشاجم

* اقل ذا الود عثرته وقفه * على سنن الطريق المستقيمه *
* وتسرع بمعتبة اليه * فقد يهفو ونيته سليمه *

ومن الناس من يرى ان متاركة الاخوان اذا نفروا اصلح واطراحهم اذا فسدوا اولى كاعضاء الجسد اذا فسدت كان قطعها اسلم فان شح بها سرت الى نفسه وكالثوب اذا خلق كان اطراحه بالجديد له اجمل وقد قال بعض الحكماء رغبتك فيمن يزهد فيك ذل نفس وزهدك فيمن يرغب فيك صغر همة وقد قال بزرجمهر من تغير عليك فى مودته فدعه حيث كان قبل معرفته وقال نصر بن احمد الخبزارزى

* صل من دنى وتناس من بعدا * لا تكرهن على الهوى احدا *
* قد اكثرت حواء اذ ولدت * فاذا جفا ولد فخذ ولدا *

فهذا مذهب من قل وفاؤه وضعف اخاؤه وساءت طرائقه وضاقت خلائقه ولم يكن فيه فضل الاحتمال ولا صبر على الادلال فقابل على الجفوة وعاقب على الهفوة واطرح سالف الحقوق وقابل العقوق بالعقوق فلا بالفضل اخذ ولا الى العفو اخلد وقد علم ان نفسه قد تطغى عليه فترديه وان جسمه قد يسقم عليه فيؤلمه ويؤذيه وهما اخص به واحنى عليه من صديق قد تميز بذاته وانفصل بادواته فيريد من غيره لنفسه ما لا يجده من نفسه لنفسه هذا عين المحال ومحض الجهل مع ان من لم يحتمل بقى فردا وانقلب الصديق فصار عدوا وعداوة من

كان صديقا اعظم من عداوة من لم يزل عدوا ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم اوصانى ربى بسبع الاخلاص فى السر والعلانية وان اعفو عمن ظلمنى واعطى من حرمنى واصل من قطعنى وان يكون صمتى فكرا ونطقى ذكرا ونظرى عبرة وقال لقمان لابنه يا بنى لا تترك صديقك الاول فلا يطمئن اليك الثانى يا بنى اتخذ الف صديق والالف قليل ولا تتخذ عدوا واحدا والواحد كثير وقيل للمهلب بن ابى صفرة ما تقول فى العفو والعقوبة قال هما بمنزلة الجود والبخل فتمسك بايهما شئت وانشد ثعلب

* اذا انت لم تستقبل الامر لم تجد * بكفيك فى ادباره متعلقا *
* اذا انت لم تترك اخاك وزلة * اذا زلها اوشكتما ان تفرقا *

فاذا كان الامر على ما وصفت فمن حقوق الصفح الكشف عن سبب الهفوة ليعرف الداء فيعالجه فان لم يعرف الداء لم يقف على الدواء كما قد قال المتنبى

* فان الجرح ينفر بعد حين * اذا كان البناء على فساد *

واذا كان ذلك كذلك فلا يخلو حال السبب من ان يكون لملل او زلل فان كان لملل فودات الملول ظل الغمام وحلم النيام وقد قيل فى منثور الحكم لا تأمن لملول وان تحلى بالصلة وعلاجه ان يترك على ملله فيمل الجفاء كما مل الاخاء وان كان لزلل لوحظت اسبابه فان كان لها مدخل فى التأويل وشبهة تؤول الى جميل حمله على اجمل تأويله وصرفه الى احسن جهة كالذى حكى عن خالد بن صفوان انه مر به صديقان له فعرج عليه احدهما وطواه الآخر فقيل له فى ذلك فقال نعم عرج علينا هذا بفضله وطوانا ذاك بثقته بنا وانشد بعض اهل الادب لمحمد ابن داود الاصفهانى

* وتزعم للواشين انى فاسد * عليك وانى لست فيما عهدتنى *
* وما فسدت لى يعلم الله نية * عليك ولكن خنتنى فاتهمتنى *
* غدرت بعهدى عامدا واخفتنى * فخفت ولو آمنتنى لأمنتنى *

وان لم يكن لزلله فى التأويل مدخل نظر حاله بعد زلله فان ظهر ندمه وبان خجله فالندم توبة والخجل انابة ولا ذنب لتائب ولا لوم على منيب ولا يكلف عذرا عما سلف فيلجأ الى ذل التحريف او خجل التعنيف ولذلك قال النبى صلى

الله عليه وسلم اياكم والمعاذر فان اكثرها مفاجر وقال علي رضى الله عنه كفى بما يعتذر منه تهمة وقال مسلم بن قتيبة لرجل اعتذر اليه لا يدعونك امر قد تخلصت منه الى الدخول فى امر لعلك لا تخلص منه وقال بعض الحكماء شفيع المذنب اقراره وتوبته اعتذاره وقال بعض البلغاء من لم يقبل التوبة عظمت خطيئته ومن لم يحسن الى التائب قبحت اساءته وقال بعض الحكماء الكريم اوسع المغفرة اذا ضاقت بالمذنب المعذرة وقال بعض الشعراء

* العذر يلحقه التحريف والكذب * وليس فى غير ما يرضيك لى ارب *
* وقد اسأت فبالنعمى التى سلفت * الا مننت بعفو ما له سبب *

وان عجل العذر قبل توبته وقدم التنصل قبل انابته فالعذر توبة والتنصل انابة فلا يكشف عن باطن عذره ولا يعنف بظاهر غدره فيكون لئيم الظفر سيئ المكافأة وقد قيل من غلبته الحدة فلا تغتر بمودته وقال بعض الحكماء شافع المذنب خضوعه الى عذره وقال بعض الشعراء

* اقبل معاذير من يأتيك معتذرا * ان بر عندك فيما قال او فجرا *
* فقد اطاعك من يرضيك ظاهره * وقد اجلك من يعصيك مستترا *

وان ترك نفسه فى زلله ولم يتدارك بعذره وتنصله ولا محاه بتوبته وانابته راعيت حاله فى المتاركة فستجده لا ينفك فيها من امور ثلاثة ﴿ احدها ﴾ ان يكون قد كف عن سيئ عمله واقلع عن سالف زلله فالكف احدى التوبتين والاقلاع احد العذرين فكن انت المعتذر عنه بصفحك والمتنصل له بفضلك فقد قال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه المحسن على المسيئ امير ﴿ والثانى ﴾ ان يكون قد وقف على ما اسلف من زلله غير تارك ولا متجاوز فوقوف المرض احد البرئين وكفه عن الزيادة احدى الحسنتين وقد استبق بالوقوف عن التجاوز احد شطريه فعول به على صلاح شطره الآخر واياك وارجاءه فان الارجاء يفسد شطر صلاحه والتلافى يصلح شطر فساده فان من سقم من جسمه ما لم يعالجه سرى السقم الى صحته وان عالجه سرت الصحة الى سقمه ﴿ والثالث ﴾ ان يتجاوز مع الاوقات فيزيد فيه على مرور الايام فهذا هو الداء العضال فان امكن استدراكه وتأتى استصلاحه وذلك باستنزاله عنه ان علا وبارغابه

ان دنا وبعتابه ان ساوى والا فآخر الداء العياء الكى ومن بلغت به الاعذار الى غايتها فلا لائمة عليه والمقيم على شقاقه باغ مصروع وقد قيل من سل سيف البغى اغمده فى رأسه فهذا شرط * واما المسامحة فى الحقوق فلأن الاستيفاء موحش والاستقصاء منفر ومن اراد كل حقه من النفوس المستصعبة بشح او طمع لم يصل اليه الا بالمنافرة والمشاقة ولم يقدر عليه الا بالمخاشنة والمشاحة لما استقر فى الطباع من مقت من شاقها ونافرها وبغض من شاحها ونازعها كما استقر حب من ياسرها وسامحها فكان أليق لامور المروءة استلطاف النفوس بالمياسرة والمسامحة وتألفها بالمقاربة والمساهلة قال بعض الحكماء من عاشر اخوانه بالمسامحة دامت له موداتهم وقال بعض الادباء اذا اخذت عفو القلوب زكا ريعك وان استقصيت اكديت والمسامحة نوعان فى عقود وحقوق فاما العقود فهو ان يكون فيها سهل المناجزة قليل المحاجزة مأمون الغيبة بعيدا من المكر والخديعة روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال أجملوا فى طلب الدنيا فان كلا ميسر لما كتب له منها وقال صلى الله عليه وسلم الا ادلكم على شئ يحبه الله تعالى ورسوله قالوا بلى يا رسول الله قال التغابن للضعيف وحكى ابن عون ان عمر بن عبيد الله اشترى للحسن البصرى ازارا بستة دراهم ونصف فاعطى التاجر سبعة دراهم فقال ثمنه ستة دراهم ونصف فقال انى اشتريته لرجل لا يقاسم اخاه درهما * ومن الناس من يرى ان المساهلة فى العقود عجز وان الاستقصاء فيها حزم حتى انه لينافس فى الحقير وان جاد بالجليل الكثير كالذى حكى عن عبد الله بن جعفر وقد ماكس فى درهم وهو يجود بما يجود به فقيل له فى ذلك فقال ذلك مالى اجود به وهذا عقلى بخلت به وهذا انما يتساغ من اهل المروءة فى دفع ما يخادعهم به الادنياء ويغابنهم به الاشحاء وهكذا كانت حال عبد الله بن جعفر فاما مماسكة الاسترذال والاستسماح فكلا لانه مناف للكرم ومباين للمروءة * واما الحقوق فتتنوع المسامحة فيها نوعين احدهما فى الاحوال والثانى فى الاموال فاما المسامحة فى الاحوال فهو اطراح المنازعة فى الرتب وترك المنافسة فى التقدم فان مشاحة النفوس فيها اعظم والعناد عليها اكثر فان سامح فيها ولم ينافس كان مع

اخذه

اخذه بافضل الاخلاق واستعماله لاحسن الآداب اوقع فى النفوس من افضاله برغائب الاموال ثم هو ازيد فى رتبته وابلغ فى تقدمه وان شاح فيها ونازع كان مع ارتكابه لاخشن الاخلاق واستعماله لاهجن الآداب انكى فى النفوس من حد السيف وطعن السنان ثم هو اخفض للرتبة وامنع من التقدم • حكى ان فتى من بنى هاشم تخطى رقاب الناس عند ابن ابى داود فقال يا بنى ان الآداب ميراث الاشراف ولست ارى عندك من سلفك ارثا • واما المسامحة فى الاموال فتتنوع ثلاثة انواع مسامحة اسقاط لعدم ومسامحة تخفيف لعجز ومسامحة انكار لعسرة وهى مع اختلاف اسبابها تفضل مأثور وتألف مشكور واذا كان الكريم قد يجود بما تحويه يده وينفذ فيه تصرفه كان اولى ان يجود بما خرج عن يده فطاب نفسا بفراقه وقد تصل المسامحة فى الحقوق الى من لا يقبل البر ويأبى الصلة فيكون احسن موقعا وازكى محلا وربما كانت المسامحة فيها آمن من رد السائل ومنع المجتدى لان السائل كما اجترأ على سؤالك فسيجترئ على سؤال غيرك ان رددته وليس كل من صار اسير حقك ورهين دينك يجد بدا من مسامحتك ومياسرتك ثم لك مع ذلك حسن الثناء وجزيل الاجر وقال محمود الوراق رحمه الله

* المرء بعد الموت احدوثة * يفنى وتبقى منه آثاره *
* فاحسن الحالات حال امرئ * تطيب بعد الموت اخباره *

فهذه حال المياسرة واما ﴿ الافضال ﴾ فنوعان افضال اصطناع وافضال استكفاف ودفاع فاما افضال الاصطناع فنوعان احدهما ما اسداه جودا فى شكور والثانى ما تألف به نبوة نفور وكلاهما من شروط المروءة لما فيهما من ظهور الاصطناع وتكاثر الاشياع والاتباع ومن قلت صنائعه فى الشاكرين واعرض عن تألف النافرين كان فردا مهجورا وتابعا محقورا ولا مروءة لمتروك مطرح ولا قدر لمحقور مهتضم وقال عمر بن عبد العزيز ما طاوعنى الناس على شئ اردته من الحق حتى بسطت لهم طرفا من الدنيا وقال بعض الحكماء اقل ما يجب للمنعم بحق نعمته ان لا يتوصل بها الى معصيته وانشدت لبعض الاعراب

* من جمع المال ولم يجد به * وترك المال لعام جدبه *

* هان على الناس هوان كابه *

❊ وقال اسحق بن ابراهيم الموصلى ❊

* يبقى الثناء وتذهب الاموال * ولكل دهر دولة ورجال *
* ما نال محمدة الرجال وشكرهم * الا الجواد بماله المفضال *
* لا ترض من رجل حلاوة قوله * حتى يصدق ما يقول فعال *

فان ضاقت به الحال عن الاصطناع بماله فقد عدم من آلة المكارم عمادها وفقد من شروط المروءة سنادها فليواس بنفسه مواساة المساعف وليسعد بها اسعاد المتألف قال المتنبى

* فليسعد النطق ان لم تسعد الحال *

وان كان لا يراها وان اجهدها الا تبعا للمفضلين قليلة بين المكثرين فان الناس لا يساوون بين المعطى والمانع ولا يقنعهم القول دون الفعل ولا يغنيهم الكلام عن المال ويرونه كالصدى ان رد صوتا لم يجد نفعا كما قال الشاعر

* يجود بالوعد ولكنه * يدهن من قارورة فارغه *

فكل ما خرج عندهم عن المال كان فارغا وكل ما عدا الافضال به كان هينا وقد قدمنا من القول فى شروط الافضال ما اقنع ٭ واما افضال الاستكفاف فلان ذا الفضل لا يعدم حاسد نعمة ومعاند فضيلة يعتريه الجهل باظهار عناده ويبعثه اللؤم على البذى بسفهه فان غفل عن استكفاف السفهاء واعرض عن استدفاع اهل البذاء صار عرضه هدفا للمثالب وحاله عرضة للنوائب واذا استكف السفيه واستدفع البذى صان عرضه وحمى نعمته وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ما وقى به المرء عرضه فهو صدقة وقالت عائشة رضى الله عنها ذبوا باموالكم عن احسابكم وامتدح رجل الزهرى فاعطاه قميصه فقال له رجل أتعطى على كلام الشيطان فقال من ابتغى الخير اتقى الشر ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم من اراد بر الوالدين فليعط الشعراء وهذا صحيح لان الشعر ساتر يستر به ما ضمن من مدح او هجاء ومن اجل ذلك قيل لا تواخ شاعرا فانه يمدحك بثمن ويهجوك مجانا ٭ ولاستكفاف

السفهاء

السفهاء بالافضال شرطان احدهما ان يخفيه حتى لا ينتشر فيه مطامع السفهاء فيتوصلون الى اجتذابه بسببه والى ماله بثلبه والثانى ان يتطلب له فى المجاملة وجها ويجعله فى الافضال عليه سببا لانه لا يرى انه على السفه واستدامة البذاء • واعلم انك ما حييت ملحوظ المحاسن محفوظ المساوى ثم من بعد ذلك حديث منتشر لا يراقبك صديق ولا يحامى عنك شقيق فكن احسن حديث ينشر يكن سعيك فى الناس مشكورا واجرك عند الله مذخورا فقد روى زياد ابن الجراح عن عمر بن ميمون انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك فهذا ما اقتضاه هذا الفصل من شروط المروءة وان كان كل كتابنا هذا من شروطها وما اتصل بحقوقها والله سبحانه وتعالى اعلم ﴿ الفصل الثامن فى آداب منثورة ﴾ اعلم ان الآداب مع اختلافها بتنقل الاحوال وتغير العادات لا يمكن استيعابها ولا يقدر على حصرها وانما يذكر كل انسان ما بلغه الوسع من آداب زمانه واستحسن بالعرف من عادات دهره ولو امكن ذلك لكان الاول قد اغنى الثانى عنها والمتقدم قد كفى المتأخر تكلفها وانما حظ الاخير ان يتعانى حفظ الشارد وجمع المفترق ثم يعرض ما تقدم على حكم زمانه وعادات وقته فيثبت ما كان موافقا وينفى ما كان مخالفا ثم يستمد خاطره فى استنباط زيادة واستخراج فائدة فان اسعف بشئ فاز بدركه وحظى بفضيلته ثم يعبر عن ذلك كله بما كان مألوفا من كلام الوقت وعرف اهله فان لاهل كل وقت فى الكلام عادة تؤلف وعبارة تعرف ليكون اوقع فى النفوس واسبق الى الافهام ثم يرتب ذلك على اوائله ومقدماته ويثبته على اصوله وقواعده حسبما يقتضيه الجنس فان لكل نوع من العلوم طريقة هى اوضح مسلكا واسهل مأخذا • فهذه خمسة شروط هى حظ الاخير فيما يعانيه وكذلك القول فى كل تصنيف مستحدث ولولا ذلك لكان تعاطى ما تقدم به الاول عناء ضائعا وتكلفا مستهجنا ونرجو الله ان يمدنا بالتوفيق لتأدية هذه الشروط وتنهضنا المعونة بتوفية هذه الحقوق حتى نسلم من ذم التكلف ونبرأ من عيوب التقصير وان كان اليسير مغفورا والخاطئ معذورا فقد قيل من صنف كتابا فقد استهدف

فان احسن فقد استعطف وان اساء فقد استقذف وقد مضت ابواب تضمنت فصولا رأيت اتباعها بما لم احب الاخلال به فمن ذلك حال الانسان فى مأكله ومشربه فان الداعى الى ذلك شيئان حاجة ماسة وشهوة باعثة فاما الحاجة فتدعو الى ما سد الجوع وسكن الظمأ وهذا مندوب اليه عقلا وشرعا لما فيه من حفظ النفس وحراسة الجسد ولذلك ورد الشرع بالنهى عن الوصال بين صوم اليومين لانه يضعف الجسد ويميت النفس ويعجز عن العبادة وكل ذلك يمنع منه الشرع ويدفع عنه العقل وليس لمن منع نفسه قدر الحاجة حظ من بر ولا نصيب من زهد لان ما حرمها من فعل الطاعات بالعجز والضعف اكثر ثوابا واعظم اجرا اذ ليس فى ترك المباح ثواب يقابل فعل الطاعات واتيان القرب ومن اخسر نفسه ربحا موفورا او احرمها اجرا مذخورا كان زهده فى الخير اقوى من رغبته ولم يبق عليه من هذا التكليف الا الشهوة بريائه وسمعته واما الشهوة فتتنوع نوعين شهوة فى الاكثار والزيادة وشهوة فى تناول الالوان الملذة فاما النوع الاول وهو شهوة الزيادة على قدر الحاجة والاكثار على مقدار الكفاية فهو ممنوع منه فى العقل والشرع لان تناول ما زاد على الكفاية نهم معرّ وشره مضر وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه اقال اياكم والبطنة فانها مفسدة للدين مورثة للسقم مكسلة عن العبادة وقال على رضى الله عنه ان كنت بطنا فعد نفسك زمنا وقال بعض البلغاء اقلل طعاما تحمد مناما وقال بعض الادباء الرعب لؤم والنهم شؤم وقال بعض الحكماء اكبر الدواء تقدير الغذاء وقال بعض الشعراء

* فكم من لقمة منعت اخاها * بلذة ساعة اكلات دهر *

* وكم من طالب يسعى لامر * وفيه هلاكه لو كان يدرى *

﴿ وقال آخر ﴾

* كم دخلت اكلة حشا شره * فاخرجت روحه من الجسد *

* لا بارك الله فى الطعام اذا * كان هلاك النفوس فى المعد *

ورب اكلة هاضت آكل واحرمته مآكل روى ابو يزيد المدنى عن عبد الرحمن ابن المرقع قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله لم يخلق وعاء ملئ

شرا من بطن فان كان لا بد فاعلا فاجعلوا ثلثا للطعام وثلثا للشراب وثلثا للريح • واما النوع الثانى وهو شهوة الاشياء المذة ومنازعة النفوس الى طلب الانواع الشهية فذاهب الناس فى تمكين النفس فيها مختلفة فمنهم من يرى ان صرف النفس عنها اولى وقهرها عن اتباع شهواتها احرى ليذل له قيادها ويهون عليه عنادها لان تمكينها وما تهوى بطر يطغى واشر يردى لان شهواتها غير متناهية فاذا اعطاها المراد من شهوات وقتها تعدتها الى شهوات قد استحدثتها فيصير الانسان اسير شهوات لا تنقضى وعبد هوى لا ينتهى ومن كان بهذه الحال لم يرج له صلاح ولم يوجد فيه فضل وانشدت لابى الفتح البستى

* يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته * لتطلب الربح مما فيه خسران *
* اقبل على النفس واستكمل فضائلها * فانت بالنفس لا بالجسم انسان *

وللحذر من هذه الحال ما حكى ان ابا حزم رحمه الله كان يمر على الفاكهة فيشتهيها فيقول موعدك الجنة وقال آخر تمكين النفس من لذاتها اولى واعطاؤها ما اشتهت من المباحات احرى لما فيه من ارتياح النفس بنيل شهواتها ونشاطها بادراك لذاتها فتنحسر عنها ذلة المقهور وبلادة المجبور ولا تقصر عن درك ولا تعصى فى نهضة ولا تكل عن استعانة وقال آخرون بل توسط الامرين اولى لان فى اعطائها كل شهواتها بلادة والنفس البليدة عاجزة وفى منعها عن البعض كف لها عن السلاطة وفى تمكينها من البعض حسم لها عن البلادة وهذا لعمرى اشبه المذاهب بالسلام لان التوسط فى الامور احمد واذ قد مضى الكلام فى المأكول والمشروب فينبغى ان يتبع بذكر الملبوس • اعلم ان الحاجة وان كانت فى المأكول والمشروب ادعى فهى الى الملبوس ماسة وبها اليه فاقة لما فى الملبوس من حفظ الجسد ودفع الاذى وستر العورة وحصول الزينة قال الله تعالى يا بنى ادم قد انزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير فعنى قوله انزلنا عليكم لباسا اى خلقنا لكم ما تلبسون من الثياب يوارى سوآتكم اى يستر عوراتكم وسميت العورة سوءة لانه يسوء صاحبها انكشافها من جسده وقوله وريشا فيه اربعة تأويلات احدها انه المال وهو

قول مجاهد والثانى انه اللباس والعيش والنعم وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما والثالث انه المعاش وهو قول معبد الجهنى والرابع انه الجمال وهو قول عبد الرحمن بن زيد * وقوله ولباس التقوى فيه ستة تأويلات احدهما ان لباس التقوى هو الايمان وهو قول قتادة والسدى والثانى انه العمل الصالح وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما والثالث انه السمت الحسن وهو قول عثمان بن عفان رضى الله عنه والرابع هو خشية الله تعالى وهو قول عروة بن الزبير والخامس انه الحياء وهذا قول معبد الجهنى والسادس هو ستر العورة وهذا قول عبد الرحمن بن زيد * وقوله ذلك خير فيه تأويلان احدهما ان ذلك راجع الى جميع ما تقدم من قوله قد انزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا ولباس التقوى ثم قال ذلك خير اى ذلك الذى ذكرته خير كله والثانى ان ذلك راجع الى لباس التقوى ومعنى الكلام وان لباس التقوى خير من الرياش واللباس وهذا قول قتادة والسدى فلما وصف الله تعالى حال اللباس واخرجه مخرج الامتنان علم انه معونة منه لشدة الحاجة اليه واذا كان كذلك ففى اللباس ثلاثة اشياء احدها دفع الاذى والثانى ستر العورة والثالث الجمال والزينة فاما دفع الاذى به فواجب بالعقل لان العقل يوجب دفع المضار واجتلاب المنافع وقد قال الله تعالى والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال اكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم فاخبر بحالها ولم يأمر بها اكتفاء بما يقتضيه العقل واستغناء بما يبعث عليه الطبع ويعنى بالظلال الشجر وبالاكنان جمع كن وهو الموضع الذى يستكن فيه ويعنى بقوله سرابيل تقيكم الحر ثياب القطن والكتان والصوف وبقوله وسرابيل تقيكم بأسكم الدروع التى تقى البأس وهو الحرب فان قيل كيف قال تقيهم الحر ولم يذكر البرد وقال جعل لكم من الجبال اكنانا ولم يذكر السهل فعن ذلك جوابان * احدهما * ان القوم كانوا اصحاب جبال وخيام فذكر لهم الجبال وكانوا اصحاب حر دون برد فذكر لهم نعمه عليهم فيما هو مختص بهم وهذا قول عطاء * والجواب الثانى * انه اكتفاء بذكر احدهما عن ذكر الآخر اذ كان معلوما ان السرابيل التى تقى الحر ايضا تقى البرد ومن اتخذ من الجبال اكنانا اتخذ من السهل وهذا قول الجمهور واما ستر

العورة

العورة فقد اختلف الناس فيه هل وجب بالعقل او بالشرع فقالت طائفة وجب سترها بالعقل لما فى ظهورها من القبح وما كان قبيحا فالعقل مانع منه ألا ترى ان آدم وحواء لما اكلا من الشجرة التى نهيا عنها بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة تديها لعقولهما فى ستر ما رأياه مستقبحا من سوآتهما لانهما لم يكونا قد كلفا ستر ما لم يبد لهما ولا كلفاه بعد ان بدت لهما وقبل سترها وقالت طائفة اخرى بل ستر العورة واجب بالشرع لانه بعض الجسد الذى لا يوجب العقل ستر باقيه وانما اختصت العورة بحكم شرعى فوجب ان يكون ما يلزم من سترها حكما شرعيا وقد كانت قريش واكثر العرب مع ما كانوا عليه من وفور العقل وصحة الالباب يطوفون بالبيت عراة و يحرمون على نفوسهم اللحم والودك و يرون ذلك ابلغ فى القربة وانما القرب ما استحسنت فى العقل حتى انزل الله تعالى يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين يعنى بقوله خذوا زينتكم الثياب التى تستر عوراتكم وكلوا واشربوا ما حرمتموه على انفسكم من اللحم والودك وفى قوله تعالى ولا تسرفوا تأويلان احدهما لا تسرفوا فى التحريم وهذا قول السدى والثانى لا تأكلوا حراما فانه اسراف وهذا قول ابن زيد فاوجب بهذه الآية ستر العورة بعد ان لم يكن العقل موجبا له فدل ذلك على ان سترها وجب بالشرع دون العقل واما الجمال والزينة فهو مستحسن بالعرف والعادة من غير ان يوجبه عقل او شرع وفى هذا النوع قد يقع التجاوز والتقصير والتوسط المطلوب فيه معتبر من وجهين احدهما فى صفة الملبوس وكيفيته والثانى فى جنسه وقيمته فاما صفته فمعتبرة بالعرف من وجهين احدهما عرف البلاد فان لاهل المشرق زيا مألوفا ولاهل المغرب زيا مألوفا وكذلك لما بينهما من البلاد المختلفة عادات فى اللباس مختلفة والثانى عرف الاجناس فان للاجناد زيا مألوفا وللتجار زيا مألوفا وكذلك لمن سواهما من الاجناس المختلفة عادات فى اللباس وانما اختلفت عادات الناس فى اللباس من هذين الوجهين ليكون اختلافهم سمة يتميزون بها وعلامة لا يخفون معها فان عدل احد عن عرف بلده وجنسه كان ذلك منه خرقا وحمقا ولذلك قيل العرى الفادح خير من الزى الفاضح واما جنس الملبوس وقيمته فمعتبر من وجهين

احدهما بالمكنة من اليسار والاعسار فان للموسر فى الزى قدرا وللمعسر دونه والثانى بالمنزلة والحال فان لذى المنزلة الرفيعة فى الزى قدرا وللمنخفض عنه دونه ليتفاضل فيه على حسب تفاضل احوالهم فيصيروا به متميزين فان عدل الموسر الى زى المعسر كان شحا وبخلا وان عدل الرفيع الى زى الدنى كان مهانة وذلا وان عدل المعسر الى زى الموسر كان تبذيرا وسرفا وان عدل الدنى الى زى الرفيع كان جهلا وتخلفا ولزوم العرف المعهود واعتبار الحد المقصود ادل على العقل وامنع من الذم ولذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه اياكم لبستين لبسة مشهورة ولبسة محقورة وقال بعض الحكماء البس من الثياب ما لا يزدريك فيه العظماء ولا يعيبوه عليك الحكماء وقال بعض الشعراء

* ان العيون رمتك اذ فاجأتها * وعليك من شهر الثياب لباس *
* اما الطعام فكل لنفسك ما تشا * واجعل لباسك ما اشتهاه الناس *

واعلم ان المروءة ان يكون الانسان معتدل الحال فى مراعاة لباسه من غير اكثار ولا اطراح فان اطراح مراعاتها وترك تفقدها مهانة وذل وكثرة مراعاتها وصرف الهمة الى العناية لها دناءة ونقص وربما توهم بعض من خلا من فضل وعرى عن تمييز ان ذلك هو المروءة الكاملة والسيرة الفاضلة لما يرى من تميزه بذلك عن الاكثرين وخروجه عن جملة العوام المسترذلين وخفى عليه انه اذا تعدى طوره وتجاوز قدره كان اقبح لذكره وابعث على ذمه فكان كما قال المتنبى

* لا تعجبن مضيما حسن بزته * وهل يروق دفينا جودة الكفن *

وحكى المبرد ان رجلا من قريش كان اذا اتسع لبس أرث ثيابه واذا ضاق لبس احسنها فقيل له فى ذلك فقال اذا اتسعت تزينت بالجود واذا ضقت فبالهيئة وقد اتى ابن الرومى بابلغ من هذا المعنى فى شعره فقال

* وما الحلى الا زينة لنقيصة * يتمم من حسن اذا الحسن قصرا *
* فاما اذا كان الجمال موفرا * لحسنك لم يحتج الى ان يزورا *

ولذلك قالت الحكماء ليست العزة فى حسن البزة وقال بعض الشعراء

* وترى سفيه القوم يدنس عرضه * سفها ويمسح نعله وشراكها *

واذا اشتد كلفه بمراعاة لباسه قطعه ذلك عن مراعاة نفسه وصار الملبوس

عنده انفس وهو على مراعاته احرص وقد قيل فى منثور الحكم البس من الثياب ما يخدمك ولا يستخدمك وقال خالد بن صفوان لاياس بن معاوية اراك لا تبالى ما لبست فقال البس ثوبا اقى به نفسى احب الىّ من ثوب اقيه بنفسى فكما انه لا يكون شديد الكلف بها فكذلك لا يكون شديد الاطراح لها فقد حكى عن ابن عائشة ان رجلا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فنظر اليه رث الهيئة فقال ما مالك قال من كل المال قد اتانى الله فقال ان الله تعالى يحب اذا انعم على امرئ نعمة ان ينظر الى اثرها عليه وقد قيل المروءة الظاهرة فى الثياب الطاهرة وهكذا القول فى غلمانه وحشمه ان اشتد كلفه بهم صار عليهم قيما ولهم خادما وان اطرحهم قل رشادهم وظهر فسادهم فصاروا سببا لمقته وطريقا الى ذمه لكن يكفهم عن سيئ الاخلاق ويأخذهم باحسن الآداب ليكونوا كما قال فيهم الشاعر

* سهل الفناء اذا مررت ببابه * طلق اليدين مؤدب الخدام *

وليكن فى تفقد احوالهم على ما يحفظ تجمله ويصون مبتذله فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ادهنوا يذهب البؤس عنكم والبسوا تظهر نعمة الله عليكم واحسنوا الى مماليككم فانه اكبت لعدوكم وليتوسط فيهم ما بين حالتى اللين والخشونة فانه ان لان هان عليهم وان خشن مقتوه وكان على خطر منهم حكى ان المؤبد سمع ضحك الخدام فى مجلس انو شروان فقال أما تمنع هؤلاء الغلمان فقال انوشروان انما بهم يهابنا اعداؤنا وقال ابو تمام الطائى

* حشم الصديق عيوبهم بحاثة * لصديقه عن صدقه ونفاقه *
* فلينظرن المرء من غلمانه * فهم خلائفه على اخلاقه *

واعلم ان للنفس حالتين حالة استراحة ان حرمتها اياها كلت وحالة تصرف ان أرحتها فيها تخلت فالاولى بالانسان تقدير حاليه حال نومه ودعته وحال تصرفه ويقظته فان لهما قدرا محدودا وزمانا مخصوصا يضر بالنفس مجاوزة احدهما وتغير زمانهما فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال نومة الصبحة معجزة منفخة مكسلة مورمة مفشلة منساة للحاجة وقال عبد الله بن عباس رضى

الله عنهما النوم ثلاثة نوم خرق وهى الصبحة ونوم خلق وهى القائلة ونوم حمق وهو العشى وقد روى محمد بن يزدان عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نوم الضحى خرق والقيلولة خلق ونوم العشى حمق وقيل فى منثور الحكم من لزم الرقاد عدم المراد فاذا اعطى النفس حقها من النوم والدعة واستوفى حقه بالتصرف واليقظة خلص بالاستراحة من عجزها وكلالها وسلم بالرياضة من بلادتها وفسادها وحكى ان عبدالله بن عمر بن عبد العزيز دخل على ابيه فوجده نائما فقال يا ابة أتنام والناس بالباب فقال يا بنى نفسى مطيتى واكره ان اتعبها فتقوم بى وينبغى ان يقسم حالة تصرفه ويقظته على المهم من حاجاته فان حاجة الانسان لازمة والزمان يقصر عن استيعاب المهم فكيف به ان تجاوز الى ما ليس بمهم هل يكون الا

* كتاركة بيضها بالعرآء * وملبسة بيض اخرى جناحا *

ثم عليه ان يتصفح فى ليله ما صدر من افعال نهاره فان الليل اخطر للخاطر واجمع للفكر فان كان محمودا امضاه واتبعه بما شاكله وضاهاه وان كان مذموما استدركه ان امكن وانتهى عن مثله فى المستقبل فانه اذا فعل ذلك وجد افعاله لا تنفك من اربعة احوال اما ان يكون قد اصاب فيها الغرض المقصود بها او يكون قد اخطأ فيها فوضعها فى غير موضعها او يكون قصر فيها فنقصت عن حدودها او يكون قد زاد فيها حتى تجاوزت محدودها وهذا التصفح انما هو استظهار بعد تقديم الفكر قبل الفعل ليعلم به مواقع الاصابة وينتهز به استدراك الخطأ وقد قيل من كثر اعتباره قل عثاره وكما يتصفح احوال نفسه فكذا يجب ان يتصفح احوال غيره فربما كان استدراكه الصواب منها اسهل بسلامة النفس من شبهة الهوى وخلو الخاطر من حسن الظن فان ظفر بصواب وجده من غيره او الجبه جميل من فعله زين نفسه بالعمل به فان السعيد من تصفح افعال غيره فاقتدى باحسنها وانتهى عن سيئها وقد روى زيد بن خالد الجهنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال السعيد من وعظ بغيره وقال الشاعر

* ان السعيد له من غيره عظة * وفى التجارب تحكيم ومعتبر *

وانشدنى

وانشدني بعض اهل العلم لطاهر بن الحسين

* اذا اعجبتك خصال امرئ * فكنه يكن منك ما يعجبك *
* فليس على المجد والمكرما * ت اذا جئتها حاجب يحجبك *

فاما ما يرومه من اعماله ويؤثر الاقدام عليه من مطالبه فيجب ان يقدم الفكر فيه قبل دخوله فان كان الرجاء فيه اغلب من الاياس منه وحمدت العافية فيه سلكه من اسهل مطالبه وألطف جهاته وبقدر شرفه يكون الاقدام وان كان الاياس اغلب عليه من الرجاء مع شدة التغرير ودناءة الامر المطلوب فليحذر ان يكون له متعرضا فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا هممت بامر ففكر في عاقبته فان رشدا فأمضه وان كان غيا فانته عنه وقالت الحكماء طلب ما لا يدرك عجز وقال بعض الشعراء

* فاياك والامر الذى ان توسعت * موارده ضاقت عليك المصادر *
* فما حسن ان يعذر المرء نفسه * و ليس له من سائر الناس عاذر *

وليعلم ان لكل حين من ايام عمره خلقا وفي كل وقت من اوقات دهره عملا فان تخلق في كبره باخلاق الصغر وتعاطى افعال الفكاهة والبطر استصغره من هو اصغر وحقره من هو اقل واحقر وكان كالمثل المضروب بقول الشاعر

* وكل باز يمسه هرم * تخرا على رأسه العصافير *

فكن ايها العاقل مقبلا على شانك راضيا عن زمانك سلما لاهل دهرك جاريا على عادة عصرك منقادا لمن قدمه الناس عليك متحننا على من قدمك الناس عليه ولا تباينهم بالعزلة عنهم فيمقتوك ولا تجاهرهم بالمخالفة لهم فيعادوك فانه لا عيش لممقوت ولا راحة لمعادي وانشد بعض اهل الادب لبعضهم

* اذا اجتمع الناس في واحد * وخالفهم في الرضا واحد *
* فقد دل اجماعهم دونه * على عقله انه فاسد *

واجعل نصح نفسك غنيمة عقلك ولا تداهنها باخفاء عيبك واظهار عذرك فيصير عدوك احظى منك في زجر نفسه بانكارك ومجاهرتك من نفسك التي هي اخص بك لاغرائك لها باعذارك ومساءتك فحسبك سوءا رجل ينفع عدوه ويضر نفسه

وقد قال بعض الحكمآء اصلح نفسك لنفسك يكن الناس تبعا لك وقال بعض البلغاء من اصلح نفسه ارغم انف اعاديه ومن اعمل جده بلغ كنه امانيه وقال بعض الادبآء من عرف معايبه فلا يلم من عابه وانشدني ابو ثابت النحوي لبعض الشعرآء

* ومصروفة عيناه عن عيب نفسه * ولو بان عيب من اخيه لأبصرا *
* ولو كان ذا الانسان ينصف نفسه * لأمسك عن عيب الصديق وقصرا *

فهذب ايها الانسان نفسك بافكار عيوبك وانفعها كنفعك
لعدوك فان من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه
المواعظ اعاننا الله واياك على القول
بالعمل وعلى النصح بالقبول
وحسبنا الله
وكفى
م م
م



الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله محمد وعلى آله وصحبه اما بعد فان كتاب ادب الدنيا والدين للامام الكبير * العلامة الشهير * الغنى بشهرته عن الاطناب فى المدح * الواضح متن فضائله فلا يحتاج لطول الشرح * مولانا ابى الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردى البصرى كتاب اشتمل من نتائج العقل * ومعارج الفضل * واسرار الشرع * ومحاسن الطبع * ما لا يستغنى عنه طالب دنيا ولا طالب اخرى * ويستحق به مؤلفه من كل من اطلع عليه حمدا وشكرا * من آيات بينات * واحاديث محكمات * ونصائح عقلاء * ولطائف ادباء * وبدائع بلغاء * ونكت شعراء * وحكم حكماء * اتفق على حسنها ذووا الالباب * ولم يجتمع مثلها قبله ولا بعده فى كتاب * وقد كان مع جلالة قدره وشهرة مؤلفه نادرا جدا * لا يكاد طالبه يظفر به ولو سمح بما سمح عدا ونقدا * حتى يسر الله طبعه هذه المرة فى مطبعة الجوائب البهيه * فى القسطنطينية المحميه * مصححا بالدقة والتروى من الفقير يوسف النبهانى على نسختين صحيحتين * واضيف الى الصحة حسن الطبع ففاز بالحسنيين * وقد تم طبعه * وسيعم ان شاء الله نفعه * فى غرة شهر شعبان المبارك من شهور سنة ١٢٩٩ من هجرة سيد الرسل الكرام * عليه وعلى آله واصحابه افضل الصلاة والسلام

م م
م

فهرسة كتاب ادب الدنيا والدين

﴿ طبعت برخصة نظارة المعارف الجليلة ﴾

﴿ معارف نظارت جليله سنك رخصتيله طبع قلنمشدر ﴾


مطبعة الجوائب



تأليف

العلامة * الحبر الفهامة * الامام الكبير * المحقق
شهير * اقضى القضاة ابى الحسن على بن محمد بن
حبيب البصرى الماوردى
رحمه الله تعالى

الطبعة الاولى

فى مطبعة الجوائب
قسطنطينية
سنة
١٢٩٩